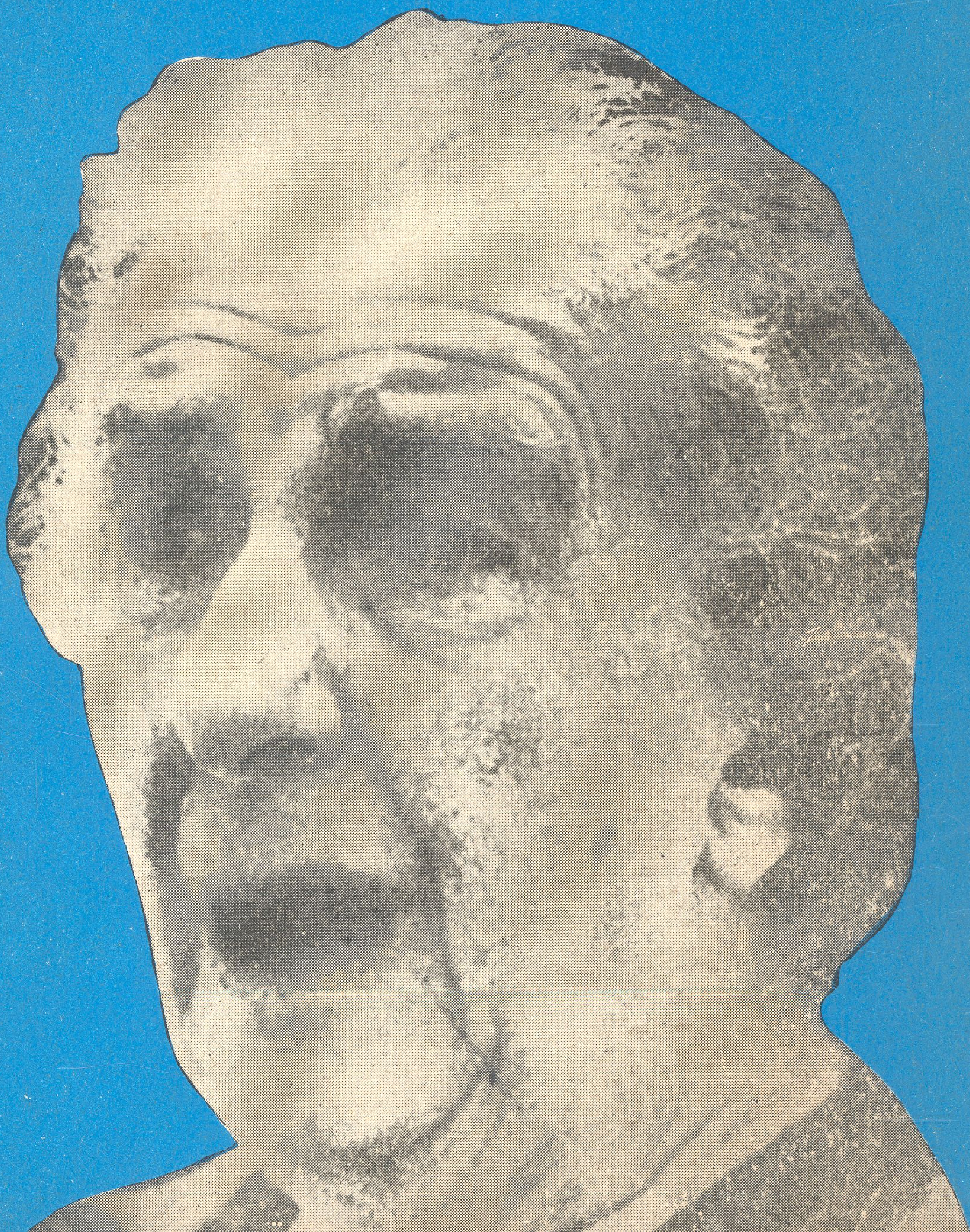
المفاجأة



المفاجأة

دور المخابرات في حرب الشرق الأوسط

ماهر عبد الحميد

مطبعة النهضة العربية
١٣ شارع كامل صدقي بالفجالة ت: ٩٠٦٧٨٠

إهداء

إلى

شهداء الجزائر

حيث الكلمة العليا – في أديب.

عبد الله



شيمون اجرانات

صورة الغلاف

جولدا مائير ـــ ٧ أكتوبر

مقدمة

كنت أتمنى لو أن هذا الكتاب قد صدر قبل أن تتخذ لجنة «اجرانات» التى شكلت للتحقيق فى أسباب هزيمة إسرائيل ، بعد حرب أكتوبر، قرارها الذى اتسم بقدر كبير من الظلم والقسوة والذى أدى إلى طرد مدير المخابرات الإسرائيلية ، ومجموعة كبيرة من خيرة ضباطها .. فضلا عن إدانة الجنرال « دافيد أليعازر » رئيس أركان جيش الدفاع ، الذى كان مسؤولا عن إدارة العمليات العسكرية .. والذى كان سيء الحظ أيضاً .

ولقد تدخلت عوامل كثيرة ، وحالت دون تحقيق أمنيتى هذه .. إذ كانت لجنة « اجرانات » تعمل فى ظل ضغط هائل من جانب الرأى العام الإسرائيلى والحكومة الإسرائيلية ..

كان الرأى العام يطالب بتحديد المسؤولين عن آلاف القتلى والمفقودين والأسرى .. أما الحكومة فكانت تضغط بشدة هى

الأخرى ، لكى ينتهى ذلك الكابوس المخيف بأية وسيلة .. وكان لابد من التضحية بكبش فداء على مذبح الهزيمة .

ولأن الأمر يتعلق بحرب مفاجئة .. كان الكبش الذى يجب أن يقع عليه الاختيار ، أمام المقصلة ، واحد من اثنين : المخابرات أو الجيش .. وقد استقر رأى الحكومة بسرعة .. على الإطاحة برأس المخابرات .. مع جز فراء الجيش على سبيل التقريع واللوم .

ورغم ذلك .. أثار قرار اللجنة موجة رهيبة من السخط العام .. مما سبب ارتباكاً فظيعاً للحياة السياسية ، واضطرت الوزارة الإسرائيلية إلى أن تستقيل .

أما من جانبى .. فقد حدث نوع من التأخير غير المقصود إذ رأيت توضيح القضية من بدايتها .. فلم اقتصر على كشف دور المخابرات أثناء الحرب .. بل تتبعت هذا الدور منذ أن بدأ الصراع يتخذ شكلا دموياً بين الطرفين .. ولأنى التزمت بتناول القضية من وجهة نظر علم المخابرات .. مع مايحتمه ذلك من حياد وموضوعية .. كان على أن أتأكد من الوقائع ، وأن أطلع على الوثائق ، وألا أتعرض للموضوعات التى لا اقتنع بصحتها كذلك شرحت الأخطاء بصرف النظر عن جنسية مرتكبيها .. واعتقد أن مثل هذا النهج يعد فريداً بالنسبة لأى كاتب يرتبط ارتباطا وثيقا بمنظمة المخابرات .. كما أنه كان سبباً جوهرياً لتأخير صدور الكتاب .

وكان هناك سبب آخر لا يقل أهمية وخطراً .. وهو أن الحرب ما زالت مستمرة .. لم تصل إلى نهايتها بعد .. الأمر

الذى خلق صعوبة فائقة .. فى عملية انتقاء الموضوعات .. وفى طريقة معالجتها وسرد تفاصيلهـــا .. حتى لا تنكشف أسرار ما زالت طى الكتمان .. وحتى لا أتحمل مسؤولية الافضاء بمعلومات أقدر مدى ما ينجم عن الإفضاء بها من عواقب وخيمة لذلك اجتهدت أن اتخير الألفاظ بعناية .. وحرصت على الأناة والدقة .. أيما حرص .

وسوف يكتشف القارىء أن المخابرات الإسرائيلية قد ظلمت ظلماً جسيما .. وعلى عكس ما يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة .. يعد كتابى وثيقة دفاع عن مخابرات اسرائيل وليس عريضة اتهام ضدها .. فقد تحملت هذه المنظمة النشطة نتائج أخطاء ارتكبت قبل الحرب بسنوات عديدة . كما أنها واجهت خصما بارعا مخادعا لا أعتقد أنها كانت تستطيع التغلب عليه .. كما اعتقد أنها لن تتمكن من اللحاق به فى المستقبل .

ما ذنب المخابرات الاسرائيلية فيما حدث ؟؟

لقد خدعت وأخذت على غرة .. هذه هى التهمة الرئيسية التى تقلل من شأن أى جهاز للمخابرات . ولكن لا بد من أن نضع حقيقة واضحة فى الاعتبار .. وهى أن المخابرات الاسرائيلية لم تنخدع وحدها .. فقد كان معها فى الميدان مجموعة من أجهزة المخابرات العاتية ، المخابرات الامريكية التى تملك أكبر ميزانية رصدت لمنظمة مخابرات فى هذا العالم .. والمخابرات الروسية التى تحتفظ بأكبر رصيد من الأعوان والعملاء فى التاريخ .. بالاضافة إلى شبكات مخابرات كل الأحلاف العسكرية التى تغطى كوكب الأرض .

فإذا كانت التهمة قد وجهت لمخابرات إسرائيل — رغم ضآلتها وسط العمالقة — باعتبارها الطرف الأقرب ، وفى بؤرة الصراع ، فإنها تستطيع الاعتذار بحجة منطقية تلقى قبولا من جانبى شخصياً .. وهى أن خصمها — منظمة المخابرات المصرية العتيدة — قد تغلب على كل الأقوياء دفعة واحدة .

لقد أحرزت المخابرات المصرية انتصارها المذهل بالدأب والمثابرة والصبر ، وطوعت علم المخابرات لخدمة أهدافها ، فاحتفظت بمعلومات دقيقة وشاملة عن عدوها .. ثم استغلت معلوماتها فى رسم صورة متقنة وزائفة داخل عقلية هذا العدو نفسه .. وقامت بعملية تهريب .. وأصدرت بيانات مضللة .. وجندت عميلا لا يزيد عمره عن خمسة عشر عاما .. واستفادت من محاضر الكنيست الاسرائيلى . بل وأنشأت إدارة بأسرها من أجل الخداع .. حتى إذا ما جاء يوم الحرب .. تلفت العالم حوله بدهشة وانبهار .. وكان وقع المفاجأة مدمراً .

أما بالنسبة لى .. فقد عملت مع الإسرائيليين ، وقدمت خدماتى — بإخلاص — للمصريين .. ولعل هذا الازدواج هو سندى الوحيد للتدليل على أحقيتى فى تقييم أعمال كل منهما — بمقياس علمى مجرد — حاولت بأقصى ما أستطيع من طاقة ، أن ابتعد به عن دواعى التحيز أو التعصب الذى يفتقر إلى أسس من الحقيقة، وقد أثبتت حرب أكتوبر ؛ أنى اخترت الجانب الأوفر دهاء .. والأكثر قوة بالفعل .

ماهر عبد الحميد

الشرق الأوسط : مايو ١٩٧٤

١

المخابرات الإسرائيلية

أولــــ الأخطـــــاء

تعتبر إسرائيل من أكثر دول العالم انتهاجا للجاسوسية ، وقد ورثت جهازاً ضخماً للمخابرات ، يتكون من العملاء اليهود الذين كانوا يعملون لحساب أجهزة مخابرات الدول التى كانت تأويهم ، أو ضدها على حد سواء .

وقبل حرب اكتوبر ، كانت أجهزة المخابرات الإسرائيلية قد بلغت أقصى درجة لها من حيث الاعداد والكفاءة ، تدار شئونها بمهارة ، بالرغم من التغييرات المستمرة بين رؤسائها ، وكثرة الازدواج فى اجراءاتها ، وكان لدى الحكومة الإسرائيلية وتحت تصرفها ، خمس منظمات للمخابرات ، منها أربع تعمل فى مختلف الميادين ، وتختص الخامسة بالتقديرات الاستراتيجية .

وتحتل المخابرات العسكرية الإسرائيلية ، مكان الصدارة بين هذه المنظمات الخمس ، ومن الكلمتين العبريتين « أجاف مودين » التى تعنى إدارة المخابرات ، جاء الاسم المختصر الذى يستخدم فى مطبوعاتها السرية ، واتصالاتها الرسمية ، وهو : « أمان » .

ولا شك أن هذه الإدارة ، تعتبر واحدة من أحدث إدارات المخابرات المعاصرة ، فلديها جهاز ضخم من الفنيين ، ولها عـــدد لا بأس به من أجهزة التجسس ، ابتداء من آلات التصوير العادية ، ومعـــدات التسمع الدقيقة ، إلى طائرات الاستطلاع الموجهة لاسلكيا ، كما أنها تستخدم الحاسبات الالكترونية فى تجميع معلوماتها ، وحتى عهد قريب كان رئيس « أمان » ضابط برتبة ميجور جنرال ويدعى « الياهو زاعيرا » .

تضطلع المنظمة الثانية ، بالأمن الداخلى ومكافحة التجسس ، ويتكون اسمها من ثلاث كلمات عبرية « شيروت بيتاحون كلالى » أى إدارة الأمن العام ، وقد شاع لهذه الإدارة اسم مختصر هو « شين بيت » أما اسمها الحقيقى فهو « شاباك » .

تعتمد « شاباك » بصفة رئيسية على الوسائل التقليدية : الرشوة والنساء ومساعدات من يتعاطفون معها لأسباب تتعلق بالدين ، ولكنها تتصف بالجمود ، وليس هناك ما يبرر الاعتقاد بأنها تساير التطور الذى حققته زميلتها « أمان » ربما بسبب ضعف ميزانيتها ، إذا قورنت بحجم الأموال المخصصة للمنظمات الأخرى .

وفيما يختص بالعالم العربى ، توجد منظمة تعمل على جمع المعلومات عن بلدانه المختلفة ، اقتصادها وطوائفها وأحزابها السياسية ، وقدراتها العسكرية . وتعرف هذه المنظمة باسم هيئة الأبحاث بوزارة الخارجية ، وتشغـــل مكاتبها الجناح رقم ٢٤ فى مبنى وزارة الخارجية بالقدس ، ويرأس هذه المنظمة أحد اليهود المولودين فى سوريا . كما أن معظم معاونيه من اليهود المولودين فى البلاد العربيـة .

هناك أيضاً منظمة ليست شهيرة كشقيقاتها ، ولكنها هامة ، ويطلق عليها اسم مكتب اليهود فى دول الاضطهاد ؛ والمقصود بدول الاضطهاد فيما نعتقد ، الدول العربية ، ودول الاتحاد السوفيتى والبلدان الاشتراكية ، وتعنى هـــذه المنظمة

بتجميع المعلومات عن الطوائف اليهودية فى هذه الدول ، وتحتفظ بقوائم مفصلة للأموال التى يملكها أغنياء اليهود ، ومؤسساتهم التجارية والصناعية ، كما تقوم برسم الأسس المبدئية للخطة الدعائية التى تستخدمها إسرائيل لتشجيع وتنشيط هجرة اليهود إليها .

وفوق هذه المنظمات الأربع تقوم منظمة رئيسية ، وهى أكبر المنظمات الإسرائيلية وأشدها بأساً ، وتختص بالتقديرات الاستراتيجية ، أو ما يمكن أن يسمى بالمخابرات العامة الإسرائيلية ، ويطلقون عليها اسم « الموساد » وهى المسئولة عن توجيه جهود جمع المعـــلومات ، والتنبؤ بالاجراءات التى تعتزمها الدول العربية القريبة من إسرائيل . وهى التى تقدم تقرير المخابرات اليومى لمجلس الوزراء . ويقال إن ملفاتها تحوى أكثر من عشرين ألف بطاقة بأسماء عملائها من اليهود فى جميـــع أنحاء العالم ، ممن يعتمد عليهم فى خدمة المخابرات الإسرائيلية ، فى أى وقت وبأية وسيلة .

أما المنظمة الأم التى انبثقت عنها هذه المنظمـة القائمة حالياً ، فكانت تدعى « الشاى » وهى منظمة المخابرات التى قدمت خدماتها لعصابة الهاجاناه ، وكانت هذه « الشاى » بدائية إلى حد كبير ، إلا أنها استفادت من خبرات الخليط اليهودى الذى توافد على إسرائيل قبل حرب سنة ١٩٤٨ . والذى حمل معـــه المقومات الرئيسية لإنشاء الهيكل الأول للمنظمات الإسرائيلية ، ولعل أهم ما كان يميزها اعتمادها على عدد كبير من الهواة ، وافتقارها إلى المنهج العلمى ، ولكن هذا القصور الخطير لم يسبب « للشاى » أية متاعب حقيقية ، لأن الدول العربية لم تكن تهتم كثيراً بأجهزة المخابرات .

فلو أننا قارنا المخابرات الإسرائيلية ، على أسس سليمة بمجموعة مكاتب المخابرات المتفرقة ، التى كانت قائمة فى مصر سنة ١٩٥٤ ، لوجدنا أن تلك الأخيرة كانت غير جديرة بمنافسة غريمتها .

كانت هذه المكاتب الهزيلة ، هي كل ما ورثه مجلس قيادة الثورة في مصر . من عهد الملك فاروق . الذى كان اهتمامه منصبا على تنمية منظمات الشرطة السرية، لحماية العرش الملكي ، وأكتفى في مجال المخابرات بأربعة مكاتب فرعية في أسلحة الجيش ، يرأس كل منها ضابط ذو رتبة صغيرة ، وكان اختيار هؤلاء الضباط يتم وفق صلاتهم بكبار رجال القصر ، أو ميولهم الحزبية ، وليس تبعاً لكفاءتهم الشخصية .

ومنذ أول يوم في السلطـــة ، أبدى مجلس قيادة الثورة اهتماما جديا بدور المخابرات ، ولكنه آثر إقامة منظمة قوية ، على مدى سنين ، بدلا من الاعتماد في تكوين المنظمة على الخبرات الصديقة ، التى كان يستطيع استيرادها وقبولها على ما هى عليه ، في فترة وجيزة .

وفي وقت ما ، بعد مارس سنة ١٩٥٤ . كلفت مجموعة من الضباط الموثوق فيهم . والمشهود لهم بالاخلاص ببحث حجم الاحتياجات التى يستلزمها إنشاء جهاز متكامل للمخابرات ، على أن يضعوا في اعتبارهم أن الخبرات الأجنبية لا تقدم طواعية ، ولكن يمكن الحصول عليها بوسائل المخابرات بعد إنشائها .

قبل أن يفرغ هؤلاء الضباط من إنجاز المهمة التى كلفوا بها ، ارتكبت المخابرات الإسرائيلية أول أخطائها . . فأقدمت على خطوة لا تتسم بالحكمة ، إذ اتخذت قراراً يقضى بإرسال عدد من خيرة رجالها إلى مصر ، ليقوموا بتكوين وإدارة شبكة من اليهود المصريين ، يكون واجبها الأساسى ، تخريب المؤسسات الأمريكية في القاهرة والاسكندرية ، بالإضافة إلى ما تصل إليـــه أيديهم ، من منشآت القاعدة البريطانية العسكرية التى كانت قائمة وقتئذ في قناة السويس .

كان الهدف الذى وضعه الإسرائيليون نصب أعينهم ، يتلخص في إصابة عصفورين بحجر واحد ، تدمير العلاقات المصرية الانجلو امريكيـة ، للحيلولة دون الجلاء عن مصر ، الذى بدا وشيكا ، والتشكيك في مقدرة النظام الجديد على حماية أمنه الداخلي .

وكان بنحاس لافون وزير الدفاع الإسرائيلي فى ذلك الوقت ، هو صاحب الفكرة والآمر بتنفيذها، وقد تكونت الشبكة بالفعل تحت اسم الوحدة رقم ١٣١ وقسمت إلى قسمين رئيسيين : الأول بقيادة طبيب يهودى يدعى « موسى مرزوق ، ومقره القاهرة ، والثانى بقيادة يهودى آخر يدعى فيكتور ليفى ومقره الاسكندرية . ووضعت الوحدة بقسميها تحت إشراف ضابط من ضباط « أمان » اسمه « إبراهام وار » .

وشهد قطار القاهرة — الاسكندرية السريع ، رحلات تقوم بها فتاة رائعة الجمال ، ذات شعر ذهبي وشفتين ساحرتين وصدر ناهد ، وكانت هذه الحسناء الدائمة الترحال ، هى أداة الاتصال بين « إبراهام وار » وبين قسمى الشبكة ، وقد اتخذت لنفسها اسما مستعاراً له وقع جذاب وهو « مارسيل » أما اسمها الحقيقى فكان « فيكتورين نينو » .

إن عالم الجاسوسية حافل بالغرائب ، كما يشتمل أحياناً على أخطاء لا يمكن تصورها ، فقد تحولت فيكتورين — ابنة العشرين عاماً — والتى لم تكن بأى حال جاسوسة موهوبة ، والتى لم تتلق أى تدريب ذى بال — من موظفة حالمة فى شركة إنجليزية بمصر الجديدة ، إلى مخربة محترفة ، ولكن أغرب ما فى هذه القصة كلها ، أنها كانت تعرف أعضاء الشبكة جميعاً ، كما كانت تعرف مقر الرئيس .

وبعد أن أصبح التنظيم فى حالة تسمح ببدء نشاطه ، وصل إلى مصر ضابط إسرائيلى على جانب عظيم من الدهاء والدراية ، متخفياً تحت قناع وكيل شركة بريطانية للاطراف الصناعية ؛ ولم يكن فى حقيقة الأمر سوى « ماكس بينت » الرائد السابق فى سلاح الطيران الإسرائيلى ، وأهم شخصية فى « أمان » وباعتراف الإسرائيليين أنفسهم كان أفضل ضابط مخابرات إسرائيلى ظهر حتى الآن .

واعتمدت الشبكة فى تجهيز مفرقعاتها وما تحتاجه من مواد حارقة ، على

الوسائل المحلية المتاحة ، وكان هذا سبباً فى أن منتجاتها كانت متخلفة إلى أقصى درجة ، كما أن الأماكن التى وضعت فيها ، دلت على أن العمـــلاء كانوا من المبتدئين ، الذين يتخيرون أماكن سهلة وبعيدة عن الحراسة ، لدس شحناتهم .

ولما كانت الأخطاء البسيطة تسبب أعظم الشرور ، سقطت الشبكة بأسرها فى قبضة المصريين ، إذ إشتعلت قنبلة سيئة الصنع فى جيب أحد أعضائها ، أثناء تسكعه أمام سينما ريو بالاسكندرية ، وشاهد جندى عادى من جنود البوليس ، رجلا يسير بينما الدخان يتصاعد من طيات ثيابه ، فصـــاح عليه محذراً ، ولكن العميل التعس ظن أن أمره قد أكتشف ، فأسرع بروابة القصة بحذافيرها .

ولم تكن الوقائع فى حاجة إلى جهاز مخابرات قوى لكى يضع يديه على تفاصيلها .. وخـــلال ساعتين من هذه الحادثة الطريفة .. قام ستون من رجال المخابرات — ومعظمهم حديث عهد بالخدمة — بزيارات لأعضاء الشبكة ، وقبل أن ينجلى الليل ، كانوا جميعا قد وصلوا إلى الأماكن التى أعدت لاستقبالهم على وجه السرعة ، ومن غير أى استعدادات مسبقة .

كان من البديهى — منذ اللحظة الأولى — أن يضع المصريون عيونهم على الشخصية المحيرة فى هذه المجموعة ، الفتاة الوحيدة وسط طغمة من المخربين ، وكان جمال فكتورين الأخاذ حافزاً كافيا لوضعها فى أول القائمة .. وكانت هى رقيقة وطيبة ، فاعترفت على الفور — وبلا أية منغصات — بالحكاية كلها ، كما أكدت دون مواربة أن « ماكس بينت » هو الرئيس وأنه ضابط من كبار ضباط المخابرات العسكرية الإسرائيلية .

أدى سقوط الشبكة إلى هزة مسموعة فى تل أبيب ، وأسفر إكتشافها الذى نجم عن سوء التصرف ، عما عرف باسم فضيحة « لافون » ، وهى الفضيحة التى قضت قضاء مبرماً على مستقبل « لافون » ، وتسببت فى تشقق حزب الأغلبيـــة « الماباى » ، وكانت الدافع لعزلة بن جوريون ، وأرقت الحياة الســـياسية فى إسرائيل طوال عشر سنوات كاملة .

أما فى القاهرة .، فكان رد الفعل مختلفاً ، وأصدر المصريون بياناً مقتضباً بالقبض على المخربين . . واستغلوا ضربتهم بحذق ومهارة فأعلنوا بسرعة أن رئيس الشبكة « ماكس بينت » قد انتحر .. ولكنهم لم يذيعوا أية تفاصيل عن الانتحار ، ولم يوضحوا نوع الوسيلة التى استخدمها فى انتحاره .. كما أنهم لم يسمحوا بأية إشارة إلى هذا الحادث المفرط فى الغموض مرة أخرى .

وليس بمقدور أى إنسان أن يتثبت من التاريخ الذى انتحر فيه « ماكس بينت » . كما أن أحداً لا يستطيع الجزم بحجم المعلومات التى أفضى بها قبل موته ، ذلك الموت الفجائى الذى يثير عدداً من التساؤلات الداعية إلى الحيرة والشك . والتى نعتقد اعتقاداً راسخاً بأنها سوف تبقى إلى الأبد ، من غير أن يجرؤ أحد على الإجابة عليها ، إجابة مقنعة على الإطلاق .

فهل انتحر ماكس بينت فعلا ؟

إن الحرص يقتضى تداول هذه النقطة بأعلى قدر من الحذر لأنها شائكة ، بل أنها أشبه بالتجول عارى القدمين فى حقل مكشف من الألغام ، ولكننا نستطيع تقليب الأمر على جوانبه بصيغة الاستفسار ، دون أن نتعرض للمحاذير .. أما إذا تطرقنا إلى ما يعتبر خطراً داهماً بصورة ما .. فإننا نتعذر بحجة البحث المنطقى ومتطلباته وحدها .

إن القاعدة المعمول بها فى السجون المصرية .. وفى الأماكن المعدة للتحقيق توجب تجريد المتهم من الأدوات الحادة .. كالمفاتيح وشفرات الحلاقة المعدنية ، وكذلك أعواد الثقاب والقداحات .. كما تحتم التأكد من خلو غرف التحفظ من الأشياء التى تصلح للاستخدام فى الشنق الذاتى . وليست هذه القاعدة من ابتكار المخابرات ولكنها قديمة لا يمكن القطع بتاريخ تقريرها . ومن المؤكد أن الشرطة المدنية والبوليس السرى . . كانا يتبعانها بدقة ، وصلت إلى حد محاكمة

الضباط الذين يتهاونون فى تنفيذها ، إذا تمكن أحد المتهمين من قتل نفسه بأى أسلوب .

ثم أن « ماكس » ليس متهماً عادياً .. بل أنه ضابط من صلب تنظيم المخابرات الإسرائيلية ، ولا شك أن المصريين كانوا يشعرون بلهفة مشوبة بالحرارة ، لمعرفة كل المعلومات التى يحتفظ بها .. وهم يخطون أول خطوة لتكوين منظمتهم .. ومن المستبعد تماما أن يفرطوا فى الصيد الثمين الذى سقط فى أيديهم بمثل هذه السهولة .

لقد كان قرار المخابرات الإسرائيلية ، القاضى بإيفاد ضابط من كبار ضباطها إلى مصر — وتعريضه مع كل ما لديه من معلومات — لخطر الاكتشاف عملا يجافيا لأبسط مبادىء علم المخابرات .. الأمر الذى كان بمثابة هبة عظيمة النفع للمصريين .. ولدينا الدليل على صدق تصورنا فى الإجراءات التى تتابعت بعد هذه السقطة ، فى فترة زمنية بالغة القصر ، والتى كانت ثمرتها جهاز ضخم للمخابرات يضم إدارات مشابهة للإدارات التى فى حوزة الخصم وان اختلفت فى نوعيتها .

فإذا أضفنا إلى ذلك عدداً من القصص الغامضة التى ظلت تتردد طيلة السنوات التالية .. وتدور كلها حول شخص مجهول يعيش فى كنف المخابرات المصرية ويتنقل تحت حراسة مشددة محاطاً بأقصى درجات السرية .. وهو شخص تجمع الأقاويل الضئيلة التى تناثرت من حوله على أنه يشبه « ماكس بينت » بدرجة ملحوظة .. وإن كان يختلف قليلا بسبب رأسه الحليق وشاربه الكثيف ، فإننا نشك فى صحة قصة الانتحار هذه .. ولا نتجاوز كثيرا إذا قررنا أنها محض اختلاق .

ومع بيان الانتحار الذى نشر فى صحف القاهرة .. نشرت صورة « لماكس » وهو ملقى على أرضية رمادية بملابسه الكاملة وعينين مغلقتين .. إلا أننا نتساءل

كيف يميز الإنسان بين صورة شخص نائم .. وصورة شخص ميت ؟ خصوصاً إذا التقطت الصورة فى نهاية حركة الشهيق أو الزفير وإذا كانت ملامح القتيل لا تكشف عن مشاعر محددة .. كالألم أو الهناء .. المعاناة أو الاستسلام.. وهى المشاعر التى تكتسبها الملامح الإنسانية فى لحظات اليقظة الأخيرة .

وتدل السجلات التى تحوى الاستجواب المبدئى « لماكس » على أنه اعترف بلا اكتراث بتفاصيل كثيرة كان بمقدوره اخفاؤها ، أو التمهل قبل البوح بها على الأقل ، وتتضمن الصفحات التى سطرها بخط يده .. إجابات عديدة على أسئلة لم توجه إليه أصلا .

لقد كانت معلوماته ـ على غزارتها ـ موضع تمحيص وتدقيق كافيين من جانب الضباط المصريين .. الذين وجدوا فى بداية عملهم . كنزاً لا يمكن تقديره يتمثل فى شخصية أسيرهم .. وبوسعنا أن نتخيل القيمة العظمى لمعلومات عميل على هذه الدرجة من التعقيد ، رائد فى سلاح الطيران ، يشرف على عملية تقوم بها « الموساد » بأوامر مباشرة من وزير الدفاع .. بينما هو عضو بارز فى « أمان » ومن المسلم به .. أن هذه المعلومات تغدوا أكثر تدفقاً . إذا كان هناك من تنبأ ـ لسبب أو لآخر ـ بأن « ماكس » يزمع الانتحار .

وفى الوقت الذى كان فيه ضباط المخابرات المصريون .. يحملقون فى وجه فريستهم صامتين . . كان « ماكس بينت » مسترسلا فى الادلاء باعترافاته ، بلغة عربية سليمة . ويبدو أنه كان يرغب رغبة صادقة فى تجنيب نفسه متاعب تقوية الذاكرة .. لأنه بدأ أقواله بسرد قصته منذ اللحظة التى ولد فيها .. ففى دنيا الجواسيس يتعين على العميل الذى يسقط فى قبضة أعدائه أن يعود بذاكرته إلى أيام طفولته ،. وإلا فإن قصته تعتبر مبتورة ولا تقنع أحداً ..

وقد ذكر « ماكس » أنه ولد من أب يهودى وأم مسيحية .. وكان مسقط رأسه فى «كولن» بألمانيا الغربية وهاجر مع أسرته إلى فلسطين .. وهناك إشتغل بالهندسة ، وعمل كمهندس كهرباء .. ثم انضم إلى عصابة الهاجاناه .. والأرجح

أنه يفيض بالحماس أينما وجد .. لأنه تحول من مهندس مدنى إلى طيار مقاتل بعد حرب سنة ١٩٤٨ .

ومن الأمور التى تستوقف النظر فى أقوال هذا الجاسوس الذى يشبه اللغز ، أنه لم يستخدم تعبير «حرب الاستقلال » وهو الوصف الذى يميل الإسرائيليون إلى اطلاقه على حربهم الأولى .

وبعد ذلك انتقل إلى خدمة المخابرات .. لأنه يتمتـــع بملامح عربية ــ لا أعرف من أين اكتسبها ــ وقد سطع نجمه كرجل مخابرات قدير . . وفى عام ١٩٥١ عمل مع « ابراهام » فى ألمانيا . . . ثم انتقل إلى العراق كوكيل لشركة بترول انجليزية ، إلى أن كلف بمهمته الأخيرة فى مصر .

وفى موضع آخر قرر « ماكس » أنه أبدى معارضته الشديدة لقرار إنشاء الوحـــدة رقم ١٣١ ، وقال إنه كان يرى أن استخدام هؤلاء اليهود المصريين فى عملية تخريب بهذا الحجم، دون أن يتلقوا قدراً مناسباً من التدريب سوف يؤدى حتماً إلى سقوطهم مع ما ينجم عن ذلك من تشديد الرقابة على اليهود فى مصر وأضاف إن معارضته لم تجد أذناً صاغية فى تل أبيب .

ركز المصريون أسئلتهم فى هذه النقطة ببراعة .. واستغلوا شعور السجين بالتفوق فى إذكاء حنقه على رؤسائه.. فأفاض فى الحديث عن مساوىء المسيطرين على إدارات المخابرات الإسرائيلية ، وعدم أهليتهم لتسنم الوظائف التى تتطلب قدراً عظيماً من الثقافة والتدريب .. ومن خلال حديثه فى هذا الشأن ، أطلع المصريون على خفايا المخابرات الممتازة التى كان عدوهم ينفرد بها .

وسئل « ماكس » بشكل مباشر عن المعلومات الخاصة بالطيران الإسرائيلى باعتباره أحد ضباط سلاح الجو . . ولعله قرر أن يدلى بكل ما فى جعبته ، لأن السجلات تحوى كمية ضخمة من البيانات والرسوم اليدوية للمنشآت المموهة ، وأسراب الطائرات . . وكانت القوة الجوية الإسرائيلية وقتئذ فى طور التكوين

ولكن أقوال « ماكس » استخدمت كمرجع موثوق به لمضاهاة أقوال العمــــلاء الذين جندوا فيما بعد ، من بين أفراد هذا السلاح والتثبت من صدق معلوماتهم .

وبالوسائل المعتادة .. حفظت فى ملفات المخابرات المصرية المعلومات التى أدلى بها عن تنظيم إدارات المخابرات الإسرائيلية ، ونظم العمل ونقل الأوامر فى أفرعها وأقسامها .. وأيضاً مراتب وشخصيات رؤسائها ؛ إلا أن هــــذه المعلومات الحيوية عادت إلى الاختفاء مرة أخرى عندما نمت المخابرات المصرية وازدادت امكانياتها ، ونعتقد أن ذلك كان فى سنة ١٩٦٢ ، ففى هذا التاريخ ، أصبح فى حوزة المسئولين عن حفظ الوثائق الهامة نوع من الورق السرى لتسجيل المعلومات البالغة السرية .. وحسب معلوماتى ، يصنع هذا الورق من « نترات السليلوز » وهى مادة تنفجر بمجرد تعرضها للضوء العادى .

وعلى أية حال ، فمن النادر أن يكون لجاسوس بمفرده أثر حاسم على مجرى التاريخ ، ولكن « ماكس بينت » كان هذا الرجل ، وطبقاً لما جاء فى تقرير سنوى من تقارير المخابرات .. كانت مساهمة هذا الجاسوس الفريد .. ذات أثر حاسم فى الحرب الخفية ، التى دارت بصفة متصلة — وبلا هوادة — بين مصر وإسرائيل .

وما أن حل شتاء عام ١٩٥٥ ، حتى كانت حكومة الثورة قد اقتنعت اقتناعا قوياً بحدة هذه الحرب الخفية التى يديرها عدوها ، وفى الوقت الذى قررت فيه الإسراع فى تنفيذ الخطط الخاصة بإنشاء المخابرات ، اعتمدت عن طيب خاطر المبالغ اللازمة لإنشاء المبانى التى تضم أقسام المخابرات الشهيرة ؛ ولشراء ما يمكن شراؤه من المعدات .

وقبل العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، أثبت ضباط المخابرات المصرية أن هذه المبالغ لم تضع سدى .. فقد رفعت لجنة التقديرات العليا ، المنبثقة عن أفرع المخابرات المختلفة ، تقريراً للرئيس ضمنته اقتناعها بأن فرنسا وبريطانيا

تستعدان لعملية عسكرية كبرى ضد مصر . . وأن إسرائيل سوف تركب الموجة هي الأخرى في ظروف تعتبر مواتية لها .

وكان أحد باعة الميداليات التذكارية في ميناء مارسيليا قد نقل إلى ضابط مخابرات مصري ، ما وصل إلى أذنيه من أحاديث ضباط وجنود الحملة التي كانت تتأهب للإبحار إلى بور سعيد . . وكان بائع الميداليات سعيداً إلى أقصى حد وهو يتسلم الف فرنك فرنسي ثمناً للتقرير القصير الذي قدمه ، ولكن الرئيس عبد الناصر لم يكن سعيداً بتقرير مخابراته ولم يلتفت إليه .

كذلك لم تمض سنتان على تلك الليلة التي اعتقل فيها « ماكس بينت » حتى كان أول عميل مصري يتلقى تدريبه . . ويستعد لرحلة طويلة . . هي الأولى من نوعها . . إلى إسرائيل ؟.

٢

القديس في تل ابيب

في ربيع عام ١٩٥٧ قررت إدارة الجاسوسية في جهاز المخابرات المصرى أنها قد أصبحت في وضع يمكنها من تدريب وتجهيز عميل صالح للانخراط في المجتمع الإسرائيلى .. وكانت هذه المنظمة تتكون وقتئذ من ستة ضباط وثمانية موظفين مدنيين وأربعة شبان يجيدون الكتابة على الآلات الكاتبة . . أما مكاتبها فكانت تحتل بناء باهتاً من الخشب في معسكر قديم من معسكرات الجيش .

ولم تكن الامكانيات وحدها هى التى تعانى من النقص ،. ولكن السلطات أيضاً كانت محدودة إلى درجة مؤسفة ، واضطرت إدارة الجاسوسية إلى الحصول على موافقة رئيس الوزراء شخصياً قبل أن تبدأ في تدريب عميلها الذى عرف في إسرائيل باسم « اسحق بن سالمون كوتشوك » ولكن اسمه الحقيقى هو « كيفورك يعقوبيان » .

وكان « كيفورك » — وترجمتها القديس — رجلا أجنبياً يشبه بصفة عامة « بارتيليمو » الذى كان مديراً للبوليس في عهد الحملة الفرنسية ، ضخم الجثة له أنف رومانى وعينان سوداوان تتوقدان بالفطنة .

وفى عام ١٩٥٦ عند ما تعرضت مصر للغزو البريطانى الفرنسى ، تقدم إلى مكاتب التطوع التى أنشئت على عجل لتدريب المدنيين على حمل السلاح، وعندئذ لقى ترحيباً حاراً من جانب أحد ضباط المخابرات.

ويبدو أن هذا الضابط قد رشحه للعمل فى ميدان الجاسوسية . وكان « كيفورك » فى حقيقة الأمر نموذجا مثالياً لعميل ذى ملامح أجنبية .. يتقن ثلاث لغات ، ولديه رغبة جارفة للتضحية بالنفس .. كما كانت حركاته تكشف عن متانة البنيان ومقدرة على تحمل المصاعب .. وهذه كلها صفات تجيز الاعتماد عليه .. أما حبه لمصر التى اتخذها وطناً فلا يتطرق إليه أدنى شك .

وتلقى « كيفورك » دعوة مهذبة لتناول طعام الشعاء فى مطعم منعزل .. وخلال الحديث الذى دار حول مائدة الطعام .. أشار إلى أنه يود تقديم خدمة جليلة (للوطن) .. وقال إنه يتوق إلى الاعراب عن امتنانه العميق للمساواة التى يتمتع بها رغم أنه ليس مصرياً . وكانت هذه المشاعر — بالاضافة إلى مواهبه — جواز مرور إلى عمله الجديد .. الجاسوسية .

وفى الاجتماع التالى .. ابتكرت شفرة لتنظيم الاتصال بينه وبين الضابط الذى تولى أمره .. وكانت هذه الشفرة هى أول خطوة فى العالم السرى الذى كان « كيفورك» يشعر حياله بالانبهار ويتشوق للدخول فى لجته .. شأنه فى ذلك شأن الوافدين الجدد دائماً .

وفى منتصف ديسمبر تلقى « كيفورك » أمراً غريباً .. إذ كان عليه أن يسافر إلى الإسكندرية .. وهناك يحجز غرفة فى فندق « سيسل » المطل على البحر .. وقيل له أن يبقى فى هذا الفندق إلى أن ترسل القاهرة مندوبا ليسلمه أوامر جديدة .. وقد استمتع باسبوعين من البطالة فى فندق راق مع ما توفره حياة الوحدة لصاحبها من فرص للاطلاع واللهو .

وذات يوم تسلم النزيل الغامض مظروفا عادياً حمله إليه البريد .. ولدهشته الشديدة لم يجد فى المظروف أية رسائل .. ولكنه وجد تذكرة من تذاكر

السينما .. ويبدو أنه كان قد تعود على أساليب المخابرات .. لأنه أسرع إلى دار السينما فى موعد الحفلة ، وكانت المقاعد شبه خالية .. ربما لرداءة الفيلم .. وقد يكون ذلك بسبب فصل الشتاء . وبمجرد أن أطفئت الأنوار وصل إلى المكان متفرج آخر واحتل المقعد المجاور « لكيفورك » وبعد عشر دقائق همس برقة فى أذن جاره :

— انى صديق . . سوف تجد عربة مقفلة فى أول زقاق على يمين الباب .. وسوف تجدنى هناك .

وطوال الفترة التى استغرقها الفيلم .. لم يتبادل الرجلان أية أحاديث .. وقبل النهاية بدقائق انسحب الزائر بهدوء ودون أن ينظر إلى « كيفورك » الذى كان يود لو منح فرصة لتأمل ملامح ذلك الرجل الذى يتحدث بلهجة من يعرف أن أحداً لا يملك مناقشته .

ولاحظ « كيفورك » — بعد أن احتل مقعده فى العربة — أنها تسرع إلى خارج المدينة .. فتمتم ببضع كلمات مشيراً إلى حاجياته التى تركها فى الفندق .. ولكن صديقه كان رجلا متفهما لمثل هذه المشاكل البسيطة ، فطمأنه قائلا أن حقائبه تقبع فى مؤخرة العربة .. ثم ابتسم بأدب وأضاف أن فاتورة الفندق قد تم سدادها ومعها بقشيش سخى يتفق مع منزلة « كيفورك » ومكانته .

وفى القاهرة ، أقام « كيفورك » فى فيللا متطرفة فى صحراء مصر الجديدة ، ووضع له برنامج تدريب حافل .. وبعد عشرة أشهر غدا إنساناً جديداً .. عميلا محترفا يتقن اللغة العبرية ، ويجيد استخدام واصلاح أجهزة اللاسلكى ، كما أصبح على دراية بفن التصوير ، وفتح الخزائن ، وتخطى العوائق ، والتخلص من المراقبة .

واوضحت تقارير مدربيه أنه يتمتع بطاقة هائلة ومقدرة على الاستيعاب قوى الملاحظـــة . شديد الشغف بعمله ، ذلك فضلا عن اكتسابه لشخصيته الجديدة بسرعة وحذق .. أما ندرة أخطائه فقد دلت على أن لديه موهبة أصيلة لا شك أنها ولدت معه .

كان القدر يخفى « لكيفورك » مفاجأة جديدة ، فبينما كان يقرأ سفراً من التوراة .. قدم له أحد ضباط المخابرات ، مفتاحاً نحاسيا يتدلى من رأسه قرص معدنى ، حفر فى منتصفه رقم ١٤ ، وقال له أن يتوجه إلى مستشفى خاص فى وسط القاهرة ، وأن يذهب مباشرة إلى الغرفة رقم ١٤ ثم يفتح بابها . وهناك يتوجب عليه أن يخلع ثيابه ثم يرتدى ثيابا سيجدها فوق فراش المرض .. ولم يكن « كيفورك » بعد انتهاء التدريب يستسيغ توجيه الأسئلة .. فأطاع دون تردد .

وفى الصباح .. جاءت إلى الغرفة إمرأة غليظة القلب ورجلان فى ثياب التمريض .. وتولى ثلاثتهم حمل « كيفورك » ووضعوه فوق نقالة ذات عجلات ثم خرجوا بحمولتهم البشرية إلى الردهة .. وبعد أن دحرجوه أمامهم أمتار قليلة أدخلوه فى مصعد يستخدم فى نقل الأثاث ، وفى الطابق الثانى انزلق « كيفورك » المذهول إلى غرفة فسيحة يسطع فى سقفها ضوء قوى .. وكان قد لمح على باب هذه الغرفة لافتة عليها كلمتين (غرفة العمليات) .

وكان قصور الامكانيات فى ذلك الوقت هو السبب فى تلك الرحلة المزعجة .. وكان من الضرورى إجراء جراحة يسيرة « لكيفورك » لاستئصال زائدة جلدية صغيرة ؛ حتى تنتهى تماما ، صلته بماضيه الذى يشكل خطراً بالغا على حياته .. وعند ما أدرك « كيفورك » ماجرى له ؛ قال أنه كان يستطيع إزالة هذه الزائدة بماكينة الحلاقة لو أن أحداً طلب منه أن يفعل .. وكان الرجل جاداً .

وبعد الجراحة تحول العميل إلى قديس حقيقى .. فأخذ يتردد بانتظام على المعبد اليهودى الذى ما زال قائما فى شارع عدلى .. ليتلقى تعاليم ديانته الجديدة .. وليندمج فى الطائفة اليهودية المصرية باعتباره واحداً من أبنائها .

وكما كان الرجل بارعا فى مراحل التدريب .. كان بارعا أيضا فى تمثيل دور اليهودى المتدين .. الذى يحتفظ فى ذاكرته بالنص الكامل لأسفار موسى الخمسة ، ويعشق الاستماع إلى المزامير .

وفى مارس عام ١٩٥٩ صدرت الأوامر «لكيفورك» الذى أصبح «اسحق» بالسفر إلى البرازيل .. وفى «ريو دى جانيرو» عاش «اسحق» حياة العوز والفاقة وتنقل فى أعمال وضيعة متعددة ليحصل على ما يسد رمقه : ولم يسأم مطلقا من ترديد قصة هروبة من مصر .. وكما هو العهد به . أتقن دوره كيهودى هارب من الاضطهاد ، تحدوه الرغبة فى النزوح إلى أرض الميعاد .

وبين الآن والآخر كان « اسحق » يعثر على شخص طيب يطمع فى دخول الجنة بعد أن يموت .. وكان هذا الشخص يقدم له وجبة ممتازة وقدراً يسيراً من النقود .. وفى الحقيقة كان « اسحق » راضيا بحياة الشظف التى فرضتها عليه مهنته الفريدة .. تلك المهنة التى تحتم على المرء أن يعيش فى القاع .. وعند القمة وأن يستمر فى التنفس والشعور بالبهجة .

وأخيراً تمكن « اسحق» من العمل كمصور متجول ، واشترى لنفسه «كاميرا » عتيقة ضخمة لها ثلاث أرجل وراح يذرع شوارع العاصمة البرازيلية ليلتقط الصور التذكارية لقاء أجر زهيد .. وعندما يجن الليل ، كان يقبع فى غرفة حقيرة استأجرها فى فناء منزل قديم ، ثم يسترسل فى التعبد .

وأثبتت الحوادث أن « اسحق » كان شخصا اجتماعيا أيضا .. فقد اقترح عليه يهودى إسرائيلى يدعى « أرجامان » كان يقضى إجازة فى البرازيل أن يستوطن مستعمرته « برورحايم » عند ما يصل إلى إسرائيل ، وكانت هذه الدعوة بمثابة إعلان عن نجاح (القديس) فى تقمص شخصيته ، ولم تضيع المخابرات المصرية وقتها .. فأضاءت النور الأخضر أمام عميلها الذى كان يتلهف على القيام بأخطر مراحل حياته وأكثرها إثارة .

ذات صباح .. ارتقى « اسحق بن سالمون » مع عشرات من اليهود المهاجرين .. ظهر الباخرة « بوتال » فى طريقـــه إلى حيفا ، ولأنه رحل من مصر بغير أية مدخرات ، كما أن مهنة المصور لم تحقق له أرباحا وفيرة احتل مكانه على السطح وألقى أمتعته ثم جلس بجوارها متطلعا إلى زرقة البحر اللانهائية .

وبينما السفينة فى عرض البحر ، مر أحد بحارتها أمام « اسحق » ثم توقف لحظة .. وبعد أن أخرج علبة سجائر من جيب سترته .. مد يده بالعلبة نحو المهاجر الذى كان مستنداً إلى الحاجز الحديدى ببلاهة ثم سأله ببرود :

ـ من أين اشتريت هذه القبعة ؟

وأجابه « اسحق » إجابة سخيفة وإن كانت خفيفة الظل :

ـ لقد اشتريتها من محل يبيع قطع غيار السيارات.

وعاد البحار فسأله :

ـ وهل اسمك مكتوب على بطانتها ؟

فأجاب اسحق :

ـ لا .. ولكن توجد لوحة برونزية فى السقف .

وبعد عبارات التعارف هذه ، ابتسم البحار ثم ألقى سيجارته فى الماء ، وتبعه «اسحق» على الفور ، ونصح البحار صديقه بأن يتخلص من الكاميرا التى يحتفظ بها فى أمتعته بإلقائها فى البحر .. وكانت هذه النصيحة هى آخر ما تلقاه القديس من تعليمات .

ولم ينس القديس صـــديقه « أرجامان » فاتجه من حيفا مباشرة إلى مستعمرته « برور حايم » وبعد أن قضى أياما فى ضيافة العجوز وزوجته .. انتقل إلى مستعمرة « نجبا » ليتلقى دروساً فى اللغة العبرية .

وشعر المصريون بالرضا وهم يرقبون عميلهم الأول ، وهو يثبت أقدامه فى اسرائيل دون متاعب .. وبلغ الحرص على « القديس » درجة مذهلة ، فلم يتضمن أى ملف من الملفات السرية بيانا عن الرجل تحت أى رمز .. كذلك لم يعرف بوصوله إلى اسرائيـل سوى عدد محدود جداً من كبار الضباط وللمغالاة فى الحيطة والحذر . لم تتصل القاهرة بجاسوسها ولم تسمح له بإجراء أى اتصال معها .. منذ وصوله إلى حيفا وحتى نهاية يوليو ١٩٦٠ ، وكانت

هذه الفترة « ركوداً مقصوداً » بهدف التأكد من خلو الطريق فقد كان القديس الابن البكر ، والوحيد فى أسرة شغوفة بالأبناء .

وفى مستعمرة « نجبا » وقع « كيفورك » فى شباك الحب .. نقطة الضعف القاتلة فى جاسوس مثالى .. وكانت فتاته حسناء تبلغ من العمر ثمانية عشر عاما جميلة القد ذات خدين متوردين .. وشفاة ممتلئة بأنوثه متفجرة تدعى « ميرا » واتفق الشابان على الزواج ، حالما تتطور الامور إلى أحسن ، ولم يكن هذا التصرف مناسبا .

وفى آخر يوم قضاه فى مستعمرة « نجبا » كان حزينا لفراق محبوبته ، واختلس لحظات انفرد فيها بالفتاة التى اختارها شريكة لحياته .. وألح عليها لكى تهجر المستعمرة الكئيبة وترحل معه إلى تل أبيب . ولكن الحبيبـــة الساحرة أصرت على البقاء حيث هى .. وطلبت من فتاها أن يعود لرؤيتها عند ما يعثر على عمل ويستقر حاله .. والغريب أن هذا الرجل الفولاذى كان متدفق المشاعر جياش العاطفة .. مع درايته الكاملة بخطورة النساء فى حياة الجواسيس .

وباعتباره يهوديا استوطن اسرائيل .. كان لا بد أن يقضى « اسحق » فترة تجنيد فى الجيش الإسرائيلى .. وألحق بسلاح المدرعات .. وفى هذه الفترة كانت المخابرات المصرية تتلقى معلوماته الثمينة بصفة منتظمة .. بعد أن رتبت معه عدة وسـائل للاتصال باللاسلكى والرسائل السرية .. وفى أحيان كثيرة عن طريق عملاء من رجالها .. كانوا يدخلون إلى اسرائيل تحت أستار مختلفة.

وبعد انتهاء خدمته الاجبارية .. عاد إلى ممارسة هوايته القديمة فجأة .. فأشترى آلة تصوير عتيقة حملها فوق كتفه وراح يتجول فى الشوارع .

ويبدو أن الحاجة كانت ماسة فى مصر للحصول على تفاصيل النشـــاط البحرى الإسرائيلى .. فقد صدر الأمر إليه بالانتقال الى ميناء « عسقلون » .. وهناك استأجر منزلا بعيداً من طابق واحد .. وكان لديه فوق السطح حظيرة مشوشة لتربية زوجين من الحمام ، وتحت آنية المساء التى كانت هـذه

الطيور البريئة تستقى منها . . دس القديس أدوات نقل المعلومات . . كما صنع لنفسه منظاراً مقربا ، وجثم خلف النافذة ليرقب حركة الميناء.

وبفضل هذا الرجل . كانت المخابرات المصرية تراقب السفن الإسرائيلية بدقة فائقة . . وكانت تعرف نبأ دخول أية سفينة إلى ميناء « عسقلون » بينما هذه السفن تقترب من الرصيف . وحتى قبل أن تلقى المرساة ، ونظراً لأن الجيش الإسرائيلي كان يتمتع بقدر كبير من الدهاء . . استخدم « عسقلون » فى تفريغ شحنات الأسلحة بإعتباره ميناء منعزلا بعيداً عن العيون . . ولكن « القديس » كان هناك .

وفى إحدى الليالى المظلمة . . كاد الجاسوس أن يتعرض لكارثة حقيقية ، فقد شاهد من مكانه سفينة ضخمة تحمل شحنة من الصناديق ولكنه لم يتبين أحجامها بدقة ، وعلى الفور ، غادر منزله واستقل قارباً صغيراً اقترب به من مؤخرة السفينة . . وكانت محركاتها ما زالت دائرة . . وأدى تيار الموج المنبعث من المراوح الضخمة إلى انقلاب الزورق . . وكافح كفاحا هائلا لكى ينجو بنفسه إلا أن الموج كان قويا . . وابتلع خلال عشر دقائق ثلاثة جالونات من الماء المالح المخلوط بالزيت ومخلفات السفن . وفى النهاية اضطر إلى أن يصرخ طالبا النجدة .

ولحسن الحظ لم تهتم شرطة ميناء عسقلون بذلك المواطن الأحمق . . الذى انقذ فى اللحظة الأخيرة . . وكان هو يرتعد بينما الماء ينساب من طيات ثيابه ، ولكنه اختلق قصة محبوكة . . ادعى من خلالها أنه كان فى رحلة صيد وغرق بعيداً واستطاع أن يسبح إلى أن اقترب من الشاطىء . ثم خارت قواه وهكذا تمكن من العودة بسلام إلى منزله ؛ وهناك اكتفى بالجلوس وراء النافذة ومراقبة السفن فى سلام وطمأنينة .

واستمرت اللعبة اللطيفة حتى شتاء عام ١٩٦٢ ؛ إذ رأت المخابرات المصرية ان ما حصلت عليه يعتبر كافيا بالنسبة للنشاط البحرى . فأمرت القديس بالرحيل

إلى تل أبيب ؛ وهناك استأجر غرفة فى منزل سيدة هرمة تدعى « كيرسن » . . . واستجلب لوحة رسم وفرشاة ليملأ أرجاء الغرفة بالألوان . . وكان يقضى النهار فى التجول بالكاميرا الشقية التى لم تكف عن التقاط الصور ؛ وفى المساء يعـــود لممارسة هوايته الجديدة . الرسم بالزيت .

وكانت السيدة «كيرسن» تشعر بالعطف على هذا الشاب الذى يكدح من أجل لقمة العيش .. ولم تكن تعرف بالطبع أن اجره الرسمى الذى كان يودع فى بنك محترم بالقاهرة ، يزيد على ثمن بيتها المتهدم ذاك .

وبعد وصوله إلى تل أبيب . . امتنعت المخابرات المصرية عن الاتصال به قرابة شهرين . . وكانت لديه تعليمات بأن يوقف الاتصال اللاسلكى إذا أرسل رسالتين متتاليتين ولم يتلق رداً .. ولم يكن يعرف كيف يتصرف فى مئات الصور الهامة التى التقطها ، . ومع ذلك مضى قدماً فى التقـاط المزيد .. وكانت شراهتـه تزداد كلمـا مر أمام ثكنة عسكرية .. كذلك لقيت الطوابير المسلحة عناية فائقـة من المصور المحترف .. وابتكر طريقة فنية للاحتفاظ بمجموعته الفريدة ، فكان يرتبها حسب تواريخها ؛ ويضع كل عشرة فى مظروف ثم يثبتة فى ظهر لوحة الرسم .

وفى نهاية هذه الفترة تمكن من التخلص من هذه الذكريات غير السارة فقد تلقى أمراً بأن ينتظر عشرين دقيقة فى محطة الأتوبيس الرئيسية فى تل أبيب ، وأن يحمل فى يده اليمنى نسخة من التوراة وفى اليد اليسرى مسطرد هندسية على شـكل حرف (T) ولفت ذلك الخليط الغريب من الدين والهندسة ، نظر رجل قصير ممتلىء تتدلى من ذراعه مظلة مزركشة . وبعد تبادل عبارات التعارف .. تم اللقاء بين الرجلين .

وانتهز « القديس » فرصة لقائه بأول منـــدوب فى تل أبيب وأفضى له برغبته فى الزواج من « ميرا » واعترف بأنه وقع فى حب الفتاة وأنه لا يستطيع التخلى عنها ؛ وقال الجاسوس العاشق أن هذا الزواج سوف يوطد صلته بالمجتمع

الإسرائيلى ؛ مما يتيح له البقاء بصفة دائمة ويربطه بالأرض التى اتخذها وطنا .. ولم تكن له أية مطالب أخرى .

وقامت المخابرات فى القاهرة ببحث واف للمسألة برمتها .. وتم جمع معلومات غزيرة عن الفتاة خوفاً من أن تكون شركا جميلا ؛ وكان بقاؤها فى مستعمرة « نجبا » حيث تستقبل المهاجرين الجدد . الذين يفدون لتعلم اللغة العبرية .. مثيراً للشكوك ، وأجابت « ميرا » نفسها على السؤال الحرج .. فقد انتقلت إلى «ميرحافيا» والتحقت بمدرسة للزراعة .. وهناك التقت بسائحة فرنسية من نفس عمرها .. واستطاعت هذه السائحة الظريفة أن تستوثق من حقيقة صديقتها ، كما قامت بتفتيش أمتعتها تفتيشا فنيا .. وعند ما عادت إلى باريس .. كان تقريرها فى صف « ميرا » إلى أبعد الحدود .

وقررت القاهره تلبية مطالب جاسوسها .. واستعد أحد عملاء المخابرات للسفر الى تل أبيب ليزف النبأ بنفسه إلى « كيفورك » العزيز .. وليسلمه رزمة من النقود ليدبر أمر زواجه .. ولست أعتقد أن ثمة زواجا قد تكلف مثل هذه النفقات التى انفقت من أجل عاطفة جاسوس أحب بإخلاص ووفاء صادقين .

لكن القدر كان يدخر للقديس مفاجأة سخيفة ، فقد تشكك أحد عملاء المخابرات الإسرائيلية عند ما رآه يلتقط صورة تذكارية لمجموعة من جنود المظلات بالقرب من الشاطىء .. ولاحظ العميل أن المصور حرص على أن تظهر أسلحة هؤلاء الجنود فى الصورة .. وفرضت رقابة محكمة حول « القديس » فى نفس اليوم ؛ وكان الإسرائيليون يرمون إلى اكتشاف وسيلته فى الاتصال مع رؤسائه .

وذات ليلة اكتشف أن رجلا يتبعه من بعيد .. فخرج فى جولة طويلة لتضليل عدوه .. ثم عاد من طريق جانبى .. ولكنه لاحظ — بعين الخبير — أن غرفته قد استقبلت زائراً ذا أصابع مدربة .. فعاد مرة أخرى إلى الخارج وهناك كان عميلان قبيحان فى انتظاره .. فتغافل عنهما ودار دورة ثانية قبل

أن يعود إلى البيت .. وتمكن من التخلص من جهاز الارسال ولكنه احتفظ بآلة التصوير .

وبعد ثلاثة أيام .. أحاط عملاء المخابرات الإسرائيلية بمنزل « كيفورك » وكان الرجل يتناول طعام العشاء .. عندما سمع طرقا على باب غرفته ..وفي الخارج كانت السيدة « كيرسن » تجهش بالبكاء ؛ بينما وقف رجل زرى الهيئة وفي يده مسدس .

واقتيد رجل من أذكى الجواسيس إلى السجن والتحقيق،ولم تضبط في حوزته أية وثيقة تثبت التهم التي وجهت إليه .. كما أن جميع الصور التي ضبطت لديه لم تتجاوز ستة كارت بوستال لمناظر طبيعية عادية.. ولكنه أدين بتهمة التجسس لسبب بسيط وهو أنه لم يكن يهوديا .

وأدى سقوط أول العملاء إلى تحول جذري في أسلوب التدريب ،وطوال الفترة التي قضاها «كيفورك » في سجون إسرائيل . كان راتبه يودع بانتظام في حسابه المصرفي .. وكان مدرسو الجواسيس يذكرون طلابهم بمغبة المغالاة في تأدية الواجب ،، حتى لا يلاقوا نفس المصير .. ولم ينتقص خطأ « كيفورك » من منزلته في قلوب ضباط المخابرات على أية حال .

كذلك عمدت المخابرات الإسرائيلية إلى اعادة تقييم الموقف؛ وأدركت أن المصريين قد مضوا خطوة إلى الأمام في الحرب المحتدمة بين الجانبين .

وازدادت سلطات «شاباك» ودعمت بعدد كبير من الضباط ، كما شددت اجراءات الفحص والتفتيش في موانئ اسرائيل ومطاراتها .. وأضيفت إلى المستندات التي تطلب من المهاجرين الجدد ..وثيقة على شكل خطاب من الوكالة اليهودية القائمة بالتهجير.. ولكن هذا التطور كان مصحوبا بفكرة تبنتها «الموساد» وكان مؤداها أن المصريين سوف يكتفون — بعد سقوط أول جواسيسهم بالرقابة من بعيد

وكان ذلك خطأ جسيماً.

٣

جاسوس في صندوق

عند ما تكون هناك حدود مشتركة . بين دولتين متحاربتين، يحدث أحيانا أن شخصاً ما يقرر ارتكاب حماقة سخيفة .. فيعبر الحدود إلى الجانب الآخر . . . لعله يجد لديه فرصة لحياة أفضل .. وربما هربا من بعض المتاعب التى لا يستطيع احتمالها .. وكان هذا هو ما وقع بالفعل فى صيف ١٩٦١ ، إذ تسلل أحد الإسرائيليين إلى قطاع غزة .. ولكن حظه التعس أوقعه فى براثن أول دورية صادفها فى طريقه من رجال الشرطة .

وهكذا ألقى القبض عليه .

ولأن الرجل قادم من إسرائيل .. رأى ضابط الشرطة أن الحكمة تقتضى الاتصال برؤسائه ليتخذوا قرارا بشأن ذلك الإسرائيلى . . الذى كان يتجول فى الأراضى الواقعة تحت الاشراف المصرى .. وكأنه سائح برىء أخطأ الطريق وعرج على منطقة محظورة .

وطبقا للاوامر التى كانت سائدة فى ذلك الوقت .. اخطرت المخابرات

التي أسرعت بإيفاد أحد ضباطها إلى مركز الشرطة .. وكان ذلك الضابط يبدو كمدرس لغات في مدرسة ثانوية .. صارم الوجه رقيق الشفتين مؤدب إلى أقصى حد .. ولكنه كان رجلا موفور الذكاء يتمتع بقسط كبير من الدهاء وبعد النظر فطلب أن يحضر التحقيق كمراقب .. وراح يستمع إلى الإسرائيلي وهو يجيب على أسئلة الشرطة التقليدية .. ومن آن لآخر .. كان رجل المخابرات يتناول قلمه .. ثم يخط بعض الأسئلة تحت بصر ضابط الشرطة ليتولى توجيهها بنفسه .. وكان المتهم بادي الشقاء لأنه لم يستقبل استقبالا لائقا .

كان يهوديا ينحدر من أصل مراكشي .. في حوالي الثلاثين من عمره .. أشقر الشعر ، ذا عينين خضراوين وأنفاً دقيقا فوق فم واسع وأسنان صفراء . وكان مظهره ينم عن تعاسة أصيله .. قميص متسخ وبنطلون مرتوق وحذاء حال لونه من كثرة التجوال.. وقد أدعى أنه فر من إسرائيل هربا من اضطهاد الشرطة هناك .. كما أوضح أنه متزوج ولكن زواجه لم يكن موفقا فانتهى بالانفصال ... أما اسمه فيتكون من كلمتين : « موردخاي لوك» .

أسفر تفتيش ثيابه عن محتويات تدل على الفاقة .عملة معدنية من فئة ٢٥ أجروت (ربع ليرة اسرائيلية) ودولار أمريكي مزيف،وتذكرة قطار رخيصة ثم حبة دواء مقوية وهوية اسرائيلية وعنوانه وصورة فتاة مصابة بحول خفيف وفي جيب بنطلونه الخلفي عثر على مشط مكسور وقطعة خبز سوداء ملفوفة في كيس من البلاستيك الشفاف .

وفي نهاية التحقيق .. قرر ضابط المخابرات أن المسألة لا تعدو كونها دخول البلاد من غير إذن .. وأن القانون يستطيع أن يأخذ مجراه الطبيعي .. ثم ألقى نظرة أخيرة على « موردخاي » الذي أحنى رأسه باكتئاب ... ثم غادر المكان .

كانت حجة الإسرائيلي مدهشة في الواقع ، ومنطقية أيضا .. إذ كان دفاعه يتلخص في سؤال واحد ردده أمام الشرطة وفي قاعة المحكمة وفي كل مكان اقتادوه إليه .. وهو كيف أحصل على اذن قبل أن اعبر الحدود إليكم ؟ وكيف

أهرب من اسرائيل دون أن اضطر الى دخول أراض عربية دون اذن ؟ أليست اسرائيل محاطة من جميع الجهات ببلاد عربية ؟ والناحية التى لا تجاور بلداً عربيا يوجد فيها بحر شاسع تسبح فيه أسماك القرش .

ولكن القانون هو القانون .. ورأى القضاة أن « موردخاى » ارتكب جريمة عقوبتها عشر سنوات يقضيها بين جدران السجن .. وكان المسكين أقرب الى الجنون وهو يساق من القفص الحديدى الى عربة السجن مكبل اليدين .. ولم يكف لحظة واحدة عن الصراخ فزعا من المصير المحزن الذى سعى إليه بقدميه .

ونقل « موردخاى » الى سجن الحضرة فى الاسكندرية ليقضى مدة العقوبة وفى البداية كان يصرخ ويضرب باب زنزانته بقبضتيه وبرأسه ثم ينتحب إلى أن تخور قواه، ولكن حياة السجن الرتيبة خففت شيئا فشيئا من عصبيته .. وبعد أن قضى سنة كاملة بدا عليه ذلك الانطباع الذى يكسو ملامح السجناء لمدد طويلة ، والذى لا يتعدى الاستسلام التام للقدر .. مهما كان ذلك القدر وقسوته .

ومضت سنة أخرى والسجين مستسلم لمصيره .. وأصبح انسانا هادئا وديعا وازداد وزنه . وسمحت له إدارة السجن بالاطلاع ولكنه كان فقيرا .. وقد أهداه ضابط السجن كتابين كما كان يرسل إليه أحيانا بعض الصحف .

وذات ليلة .. حدث أمر لم يكن يخطر على خيال هذا الرجل مطلقا ... إذ اقترب أحد الحراس من زنزانته ثم هتف :

— موردخاى .. هناك زائر ينتظرك.

كان النبأ بمثابة صدمة للسجين التعس .. وكان يعرف أنه غريب فى بلد كله أعداء .. حتى عالم السجن المحدود كان يمثل فى نظره قطاعا من الحياة المصرية ورغم أن جميع زملائه من المجرمين الذين جمعت بينهم صفة الخروج على القانون إلا أنه كان دخيلا عليهم يعاملونه بإستعلاء وينظرون اليه بإعتباره فردا من العدو .. ولا يميلون إلى مصادقته .

وفى غرفة مأمور السجن . . كان نفس الضابط الذى أوفدته المخابرات . . قبل ذلك بعامين . . بناء على استدعاء الشرطة فى غزة . . كان بلحمه ودمه . . جالسا إلى المكتب . . وأمامه ورقة بيضاء وعلى شفتيه ابتسامة مهذبة ويبدو أنه كان سعيداً لعثوره على صديقه مرة أخرى .

ودار بين الاثنين حديث ودى للغاية . . وكان من الطبيعى بالنسبة للسجين الذى قضى أربعة وعشرين شهراً بلا صديق . أن يتعلق بأول من يبدى نحوه لمسة عطف وتفهم للشدائد التى يعانيها . . ولكنه فزع إلى حد الارتعاد . عندما عرف أن الحكومة المصرية قررت أن تقذفه خارج الحدود . . إلى اسرائيل بدلا من الانفاق عليه لمدة الثمانى سنوات المتبقية من العقوبة .

ويبدو أن ضابط المخابرات كان رجلا رقيق الشعور . . وقد عرف فيما بعد أنه كان يدعى سليم السيد . . لأنه طيب خاطر صديقه الذى كان يقطر بالتعاسة . . ثم وعد بأن يتدخل لدى السلطات ليبقى « موردخاى » فى السجن .

وبعد فترة من الصمت . . قال الضابط الطيب أن المشكلة سوف تعود إلى الظهور مرة أخرى بشكل مؤكد عندما تنتهى مدة العقاب .

وعرض السجين التنازل عن جنسيته إذا كان فى هذا الاجراء مخرج من أجل البقاء فى مصر أو النزوح إلى أى بلد غير اسرائيل . . وأفاض بإنفعال فى وصف المستقبل المظلم الذى ينتظره إذا قذف إلى اسرائيل وكان الضابط ينصت وقد أسند ذقنه بأصابعه . . وكان يخط بعض الكلمات على الورقة البيضاء من حين لآخر ، ولا شك أنه تأثر بأحزان السجين الواجف بشدة .

بعد أسبوع استدعى « موردخاى » مرة أخرى . فى منتصف ليلة شديدة البرودة ، لكى يلتقى بالزائر الوحيد الذى يعطف عليه . . وفهم « موردخاى » أن محدثه يعرض عليه أن يختار بين الاقامة فى هذا السجن البغيض مدة الثمانى سنوات القادمة . . وبعدها بالطبع مسألة العودة إلى اسرائيل . . وبين الحل البديل . . وهو أن يثبت حسن نواياه — تجاه مصر — اثباتا قاطعا .

واختار «موردخاى» المواطن الإسرائيلى . الحل الوحيد الذى بدا ملائما أن يصبح عميلا

كان الاتفاق قصيراً ولكنه عملى . . ولم ينس الضابط الجاد أن يذكر صديقه بأن أى اخلال بالاتفاق . . . أو حتى محاولة المراوغة . . . سوف يؤدى إلى أن يعاد إلى السجن مرة أخرى .

وفى الثامن عشر من ديسمبر ١٩٦٣ ، كان « موردخاى » يستعد لتنفيذ أول ما تلقاه من أوامر . . فبعد تناول الغذاء مع بقية نزلاء السجن بدأ فى الصراخ ورأى الحراس أن اليهودى يتلوى من الألم وهو يقبض بأصابعه على معدته كأنها ستقفز من مكانها . . فاستدعوا طبيب السجن . الذى حقنه بالمسكنات وأمر بالتزامه الراحة . . وفى الواحدة صباحا كان تأثير المسكنات قد تبدد . . فعاود الصراخ مرة أخرى

واستدعى الطبيب ليلا ليرى مريضه المشاغب . . فقرر أن « موردخاى» فى حاجة إلى جراحة عاجلة حتى يمكن معرفة مايجرى فى جوفه, ولم يكن هذا الطبيب جراحا . . لذلك اكتفى بكتابة رأيه ثم انصرف لينام .

وفى المستشفى أجريت « لموردخاى » الاستعدادات اللازمة قبل الجراحة . تحلق شعر بطنه . . وتولى أحد الأطباء قياس نبضه وضغط دمه . . وفى الثالثة والنصف صباحا غاب « موردخاى » عن الوعى بتأثير حقنة البنج . . ثم ادخل الى غرفة العمليات حيث كان الجراح ينتظره مع اثنين من مساعديه .

وفى الرابعة وعشر دقائق وصلت الى المستشفى عربة سوداء تقل أحد اللحادين . . واخطر سجن الاسكندرية بوفاة المريض أثناء جراحة استكشاف عادية . . وخرج « موردخاى » من غرفة العمليات فى نعش من الخشب الأبيض . . وفى هدوء تام وضع فى عربة نقل الموتى . ولم يذرف أحد دمعة واحدة على ذلك الميت السىء الحظ .

وأفاق « موردخاى » ليجد نفسه فى فيللا نائية وسط الصحراء .. وكان صديقة الوفى جالسا فى مقعد مجاور لسريره ومعه جريدة .. ومنذ هذه اللحظة .. بدأ برنامج التدريب الشاق الذى أعد له .

وكان تدريبه قاصراً على استخراج المعلومات وتقوية الملاحظة، واستخدام القواعد الرياضية الصحيحة للاشتباك من غير سلاح . بالإضافة إلى تمرينات الذاكرة .. وخلال عمله مع المخابرات طوال السنوات الخمس التالية ، لم يتعرف « موردخاى » على أى ضابط من ضباطها .. باستثناء سليم السيد الذى صحبه من بداية الشوط إلى نهايته .

كانت المخابرات المصرية تضع فى اعتبارها احتمالا واحداً لا يمكن التغافل عنه مهما بدا خيالياً .. وهو أن يكون «موردخاى» عميلا مضادا .. استخدمت فى دفعه وسيلة مبتكرة .. لذلك لم يدخل مطلقا إلى مبنى المخابرات الرئيسى .. وحتى بافتراض أنه يعمل لحساب اسرائيل .. كان ذا فائدة عظيمة .. إذ أنه تأييد غير مباشر للفكرة التى اعتنقتها «الموساد» بعد سقوط « كيفورك » بأن المصريين سوف يقنعون بالرقابة من بعيد .

واتضح – بعد انتهاء التدريب – أن الحياة ليست شقاء دائما ، إذ اتيحت الفرصة « لموردخاى » لكى يزور أوربا فى رحلة سياحية رائعة طاف خلالها بفرانكفورت وميونشين وكولن ، ثم استقر فى نابولى .. حيث عمل مرشدا سياحيا .

وكان عمله مدعاة للبهجة ، كما أنه لم يصادف أية متاعب ، وكان على هذا المرشد الوسيم المثقف أن يقيم صلات قوية مع السياح الإسرائيليين الذين يفدون على المدينة الايطالية الجميلة ، والذين يفضلون مرشدا يهوديا لمصاحبتهم .. وكانت له سلطة تقييم زبائنه من حيث أهمية معلوماتهم ، مع ترشيح من يعتقد أنه « مناسب » لتتولى المخابرات المصرية تجنيده لحسابها .

وفى نهاية كل يوم . . كان « موردخاى» يكتب تقريراً وافيا ثم يضعه فى مظروف ويلقيه فى صندوق بريد مثبت فى مدخل منزل مغاق بصفة دائمة . . وخلال دقائق . . كان رجل قصير القامة يضع بين شفتيه سيجارا ضخما . . يجد سعادة بالغة فى استعادة الرسالة الهامة ، وكانت هذه الرسائل التى تحوى معلومات ذات شأن ترسل فى نفس اليوم إلى المكاتب المتخصصة فى مبنى إدارة الجاسوسية فى القاهرة .

وفى أربعة أشهر تسلمت المخابرات المصرية من «موردخاى» سبعين تقريراً يمكن اعتبارها ذات قيمة . . ويتضمن أحد هذه التقارير معلومات مفيدة عن مصنع للذخيرة صغيرة العيار . وفى تقرير آخر أشـــار العميل النشط الى الجهود التى تبذلهـا اسرائيل فى « ديمونة » وكان قد ترثر كما يجب مع كهل يعمل هناك .

ولكن اختياره للعملاء الجدد لم يكن صائبا . . فمن بين ست عشرة حالة رشحها بنفسه . أسفر البحث الدقيق والدراسة المستفيضة . . عن عدم صلاحيتها جميعا . . ولعـل السبب فى هـذا الاخفاق المشين . . يرجع إلى جهـل الرجل بقواعد اللعبة ، ومن المسلم به . . أن اختيار عميل جديد يعد عملا من أعمال المخابرات المتقدمة ، التى تستلزم علاوة على التدريب خبرة عملية توفرها الخدمة الطويلة والممارسة الموضوعية .

ورغم ذلك واصل « موردخاى » الذى حصل على رقم ٢٢ فى سجلات إدارة الجاسوسية واصل عمله كجامع معلومات دون عراقيل . . وكان هذا العمل يدر عليه دخلا لا بأس به . . كما أن رئيسه كان يسلمه منحا صغيرة فى المناسبات السارة، ولم تكن هذه المنح ضخمة فى الواقع، ليس لسبب إلا لكى لا يظهر العميل بمظهر أكبر من مستواه ، ولا جدال فى أن استبدال حياة السجين بمتعة التجول فى أوربا تعتبر منحة ثمينة . . ويداً بيضاء لا تقدمها أجهزة المخابرات كثيراً لعملائها .

وكما أقدم « موردخاى » على حماقة عبور الحدود من قبل ، ارتكب حماقة أكثر سخافة فى بداية ١٩٦٨ ؛ ولست أعرف على وجه اليقين . . إذا كان قد اتصل بالمخابرات الإسرائيلية فى روما ، أو أن الأخيرة هى التى بدأت الإتصال به . . ولكن المؤكد أن هذا الاتصال قد تم . . إذ ورد فى تقرير متابعة لأحد أوكار المخابرات الإسرائيلية فى المدينة الايطاليـة العريقة . . أن « موردخاى » شوهد بصحبة أحد الضباط الإسرائيليين ، وكان هذا الضابط يتخفى تحت ستار صاحب شركة لتجارة مواد الطلاء — ليلة ١٨/١٧ مارس ، وأنه قضى حوالى ساعتين ثم خرج وحيدا .

ولا شك أن اللعبة المزدوجة قد راقت فى عينى « موردخاى » لـكى يعمل وظهره إلى الحائط ، ولعله كان يأمل فى العودة مرة أخرى إلى إسرائيل . . بعـد انتهاء مهمتـه . . ولكن الحقيقـة التى فاته أن يدركها كانت مريرة وكثيراً ما تنتهى بعواقب ذميمة . . ألا وهى . . أن لعبة المخابرات ليست من الألعاب التى يستطيع الكل اتقانها بسهولة .

فبينما كان « موردخاى » يمارس لعبته المزدوجة بإطمئنان . . كان عميلا ثانياً يتلقى الأوامر من القاهرة ليمارس دوره هو الآخر . . وبين السياح الذين عقدوا أواصر الصـداقة مع المرشد اليهودى المرح كان عميلا ثانياً يؤدى دوره ، وراح العميـل الجديد يردد على مسامعه بعض المعلومات التى أعدت بطريقة خاصة — توحى بخطورتها — وحينما كان العميلان يتبادلان شيئا من الشراب فى حانة صـغيرة ، أفلت لسان السائح المخمور بأرقام وتفـاصيل تعتبر كنزاً ثمينـا بالنسبة لأى جاسوس .

وتدخل سوء الطالع بشكل سافر هذه المرة ، فلم يذكر « موردخاى » فى تقريره التالى أية إشارة إلى ذلك السائح الثرثار . . كما تجاهل المعلومات التى استقاها منه والتى كان يتحتم عليـه أن يحفظهـا عن ظهر قلب ، الأمر الذى أكد شكوك المخابرات المصرية ؛ وعلى أية حال ؛ أصبح « موردخاى » من وجهـــة نظر

فنية ، عميلا رديئا — إذا لم يكن خائنا — فتقرر أن يعاد إلى القاهرة بأقصى سرعة .. وفى سرية مطلقة .. ومن المؤكد أن استجوابا دقيقاً كان ينتظره .

وفى منتصف نوفمبر تلقى « موردخاى » أمراً بالتوجه إلى روما ، على أن ينتظر أمام كنيسة « ترينيتا دى مونتى » فى تمام الساعة العاشرة صباح الأربعاء التالى . . وفى الموعد المحدد . . وقف العميل الفنى يتطلع إلى روما التى تبدو من هذه البقعة فى أبهى مناظرها . . وفى نفس الوقت . . كان رجل غريب يرتدى حلة رياضية ويمسك فى يده بعصا من الأبنوس يقترب من مكانه .

وفجأة أخرج الرجل الغريب سيجارة ووضعها — بشكل معكوس — بين شفتيه .. ولمح « موردخاى » الرجل وهو يهم بإشعال « الفيلتر » فهتف محذراً . ولكن الرجل الغريب ابتسم بهدوء ثم قال :

— حسنا .. إننى أدخنها هكذا .

وبدلا من أن يشعل السيجارة استطرد :

— عليك أن تنتظرنى فى مقهى باريس الكائن فى شارع فينيسيا فى الرابعة بعد ظهر اليوم .. إن صديقك هو الذى قال لى ذلك . . ويجب أيضاً أن تضع أمامك حقيبة سوداء وقبعة من القش .. ربما حضر إنسان آخر ليلتقى بك .. هذه مسألة هامة ، الموعد من الرابعة حتى الرابعة والربع .

ولست فى وضع يسمح لى بتفسير هـــذه الإجراءات المعقدة التى اتبعها المصريون مع عميلهم .. ولعلهم أرادوا أن يستوثقوا من أن الإسرائيليـــين لا يجدون فى أثره . . وربما كان الهدف من هذا الطريق اللولبى إقناع «موردخاى» بأنه ما زال العميل الوفى الذى يحرصون على سلامته ، بإبقاء اتصاله بهم سراً.

ومهما كان الأمر . . فإن المرء لا يملك إلا أن يبدى عجبه لأن المخابرات المصرية تصرفت على هذا النحو ، وربما كان مرد ذلك كله إلى عوامل مجهولة . . طرأت على الموقف فجأة .

وفى تمام الساعة الرابعة .. دخل « موردخاى » بالفعل إلى مقهى باريس وكان المكان خالياً من الرواد باستثناء فتاة شقراء كانت تحتسى « الكابيتشينو » وتخير العميل ركنا منعزلا ثم جلس دون أن يثير الانتباه. وبعد أن ترك حقيبته وقبعته على المائدة أخرج جريدة سباق من جيب معطفه وراح يتظاهر بقراءة أسماء الخيل .

وفى الرابعة والربع بدأ « موردخاى » فى الاستعداد لمغادرة المكان. وكان قد تعلم أثناء تدريبه فى القاهرة ألا ينتظر أبداً تحت أية ظروف بعد انقضاء الموعد الذى يضرب له .. ومن المعروف أن هذه القاعدة تعد من القواعد الهامة واجبة الاحترام فى ميدان الجاسوسية .

وبمجرد أن طوى جريدته وتناول القبعة دخل إلى المقهى شاب أسمر ممتلىء الجسد .. يعلو فمه شارب دقيق .. وأتجه مباشرة إلى المائدة التى يحتلها « موردخاى » ثم جلس فى مواجهته دون دعوة .. وتبادل الرجلان حديثاً وديا وبطريقة عادية .. وكانا يختلسان النظر إلى ساق الحسناء التى فرغت من احتساء قهوتها ثم غادرت المكان .. وفى تلك اللحظة ، اقترح الشاب على « موردخاى » أن ينتقلا إلى مكان آخر ؛ لكى يصبح الحديث ملائما .. وخرجا فى أعقاب الفتاة وكأنهما يزمعان مطاردتها .

واقتيد العميل المنكود إلى شقة صغيرة تتكون من حجرتين فى شارع أنجلو .. وهناك شعر بجو من المودة والارتياح بعد رحلة طويلة .. وكان بادى الشوق لمعرفة ما ترغب المخابرات المصرية فى الافضاء إليه به .

ولم يكن فى الشقة أحد من الخدم .. فاقترح المضيف أن يقوم الضيف بإعداد شىء من الشراب الساخن لنفسه — إذا كان يود ذلك — فقام من مكانه واتجه إلى المطبخ ؛ حيث عثر على موقد صغير وابريق وصنع كوبا من الشاى .

وعند ما عاد وجد أن صديقه يخفى وجهه فى مجلة مصورة .. وأثناء تناول الشاى قال الشاب إن زائراً سوف يصل بعد قليل ومعه التعليمات .

وبعد أن رشف « موردخاى » قطرات قليلة من السائل الذهبى المنعش ..

أحس كما لو أن مقعده يدور بسرعة تتزايد باضطراد فى أرجاء الغرفة ، وحاول أن ينهض من مقعده .. إلا أنه عجز عن الحركة .. وخيل إليه أن صديقه قد ترك المجلة وانهمك فى الحديث بصوت خافت .. وبعد ذلك .. غاب عن الوعى . .

وعند ما أفاق وجد نفسه محشورا فى قبر مظلم وضجه عجيبة تنبعث من أعلى .

كانت القصة طريفة ومسلية بقدر ما كانت مزعجة .. فقد وضع «موردخاى» داخل صندوق مستطيل من الخشب المتين ..ثم نقل إلى مطار «فيمو شينو» وهو مطار روما الدولى. وكان المفروض أن يسلم الصندوق إلى طائرة كوميت ، تابعة لشركة مصر للطيران، وكانت فى روما للتزود بالوقود أثناء رحلة من فرانكفورت إلى القاهرة .

كانت جرعة المخدر التى ابتلعها «موردخاى» كافية للوقت المحسوب منذ كوب الشاى المشئوم إلى أن يستقر الصندوق فى مخزن البضائع أسفل الطائرة .. ولكن حدث أن تأخرت الطائرة بسبب عطل طارىء استغرق اصلاحه ساعتين إضافيتين .. وهكذا استيقظ العميل بينما الصندوق جاثم على الأرض وسط الحقائب والطرود .. ولأنه كان مقيداً بإحكام . أخذ فى الصراخ بالعبرية والإيطالية والعربية .. كما تمكن من تحريك مرفقيه بصعوبة ليدق على جدار الصندوق بأقصى ما يستطيع من قوة .

ولفتت الضجة المنبعثة من وسط البضائع ، نظر جاويش ضئيل الحجم من حرس المطار .. فاقترب من الصندوق وأنصت بدهشة .. وبعد أن تأكد من أن هذا الصندوق بالتحديد هو مصدر الضجة .. انحنى فوقه وألصق أذنه بغطائه فأيقن أن بداخله شحنة حية فعلا . . ووجد الجاويش أنه من الضرورى الاستعانة باثنين من موظفى المطار لفتح الغطاء السميك .

وفى نفس اللحظة اندفع شابان كانا يتظاهران بمراجعة مواعيد الطائرات وتمكنا من حمل الصندوق بينما أخذ الجاويش المذهول فى الصراخ بأعلى صوته ..

وفى أقل من أربعين ثانية كان الشابان قد ألقيا بالصندوق فى عربة خاصة ثم انطلقا بها وبسرعة فائقة بعيداً عن المطار .

وأسرع حرس المطار فى سيارة « ألفا روميو » خلفهما فى شوارع روما ، وكان واضحاً أن الشابين قد قررا الفرار بالشحنة مهما كانت المتاعب . . وكان صوت صرير العجلات كافياً لإيقاف المرور عند المنعطفات الحادة . . وأدرك «موردخاى» أنه مازال فى قبضة المصريين ، فكف عن إحداث الجلبة ولاذ بالصمت وكما يحدث عادة فى الأفلام السينمائية ، كسبت «الألفا روميو» السباق فى نهاية الشوط

ولم يجد البوليس الإيطالى مناصاً من فتح الصندوق . .

كان «موردخاى» راقداً وقد قيدت ساقاه بينما ثبتت رأسه فى خوذة مبطنة بالجلد لحمايته من الصدمات . وكان أشبه بآلة موسيقية تعزف لحناً قبيحاً . .

وحظى « موردخاى » بشهرة عالمية ، وتناقلت النبأ كل الإذاعات والصحف الكبرى . . وعرف بعد ذلك برجل الصندوق . . ولكن الصدمة العصبية التى تخلفت من الحوادث المتلاحقة التى تعرض لها ، والرحلة الفريدة التى قطعها دون أن يدرك نهايتها ، أثرت تأثيراً بالغاً على قدراته العقلية . . وقد طلب — فور خروجه من الصندوق — أن يتولى قنصل إسرائيل فى روما إعادته إلى تل أبيب .

وفى إسرائيل . حوكم « موردخاى لوك » بتهمة التعاون مع مخابرات معادية . . وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً ، وسلطت الأضواء عليه أثناء المحاكمة . وكان هدف الاسرائيليين من هذه المسرحية إقناع المصريين بأن « موردخاى » لم يتصل بالمخابرات الإسرائيلية أثناء وجوده فى إيطاليا ؛ ولكن مثل هذه الاجراءات الصورية ، لا تجد من يعول عليها كثيراً فى العالم السرى .

واقتنعت « الموساد » بأفكارها الخاصة اقتناعا راسخاً ، وأدرك ضباطها أن المصريين لن يغامروا بإيفاد عملائهم إلى إسرائيل مستقبلا ، بل سيلجأون إلى تكرار النمط الذى استخدموه فى حادثة « موردخاى » . ولم تغير « الموساد » من اقتناعها ، إلا بعد اكتشاف شبكة تجسس مصرية تتكون من ثلاثة أفراد ، بزعامة أحد ضباط المظلات الاسرائيليين ، وكان ذلك بعد حادثة « رجل الصندوق » بأربع سنوات كاملة .

٤

دانـا الأعـرج

قبل اكتشاف صندوق البريد فى مطار روما بحوالى ستة أشهر .. وصل إلى تل أبيب تاجر فرنسى على درجة كبيرة من الأناقة والثراء .. ويبدو أنه كان رجل أعمال ناجح .. إذ أخذ يستعلم بمجرد وصوله عن عناوين مكاتب الاستيراد والتصدير .. والشركات المعنية بصقل وتسويق الماس ، وكميات البوتاس التى تستخرج من البحر الميت ، ومراكز تجار الموالح ، وكانت بطاقته تشتمل على الكلمات التالية : اميل دروبيه — توكيلات تجارية — باريس .

كان السيد « دروبيه » شابا رقيقاً إلى أقصى حد .. ورغم أنه لم يتجاوز الثلاثين .. إلا أنه كان رزيناً ووقورا كأصحاب الملايين ، ذا جبهة عريضة .. ووجه أحمر وذقن مدببة وعنق مستطيل وقامة نحيلة .. وكان يقيم وزنا عظيما للمظاهر ويقدر تأثيرها على من يحترفون التجارة وعقد الصفقات .. لذلك اتخذ له مسكناً فاخراً بالقرب من مشرب « رولاو » أشهر مشارب تل أبيب وأكثرها بذخا .. كما استأجر عربة ركوب حديثة ، وزعم أنه لا يأمن جانب السائقين ،

ويفضل قيادة سيارته بنفسه ، وفى الأمسيات الرقيقة كان يمر على مشرب رولاو ليحتسى كوبين من نبيذ بوردو ، ثم ينطلق إلى سهرته ، وكانت عربة مسيو درويبه تشاهد خارج الحانات الراقية .. بينما يبعثر هو النقود بصحبة الفتيات الجميلات كأنما الدنيا قد خلقت من أجله فقط .

لكن هذا المظهر البراق كان ستارا لشخصية بالغة الغرابة ، فقد ولد «اميل» لأم فرنسية وأب مصرى من أسرة عريقة .. وعند ما بلغ السادسة عشرة من عمره توفى أبوه .. واتضح أنه كان متزوجا من سيدة مصرية أنجب منها ثلاثة أبناء قبل أن يتعرف بوالدة « إميل » واضطرت الزوجة الفرنسية إلى النزوح إلى القاهرة بصحبة ابنها للمطالبة بحقها فى تركة الزوج . واستمر النزاع معروضا أمام المحاكم لست سنوات ، وفى النهاية حصل « اميل » على نصيبه فى التركة ، وعاد أدراجه إلى باريس .. ويبدو أنه أتصل بطريقة ما بالمخابرات المصرية .. لأنه حصل أيضاً على الاسم الرمزى « بيير » .

عكف « اميل » بعد ان استقر به المقام فى تل أبيب .. على الاهتمام بشئون تجارته .. وكان شغله الشاغل أن يلتقى بكبار رجال الأعمال الذين يرغبون فى التعاقد معه .. ولأنه يملك قدرا مناسبا من النقود .. أصبح « اميل درويبه » نجما شهيرا فى دعوات العشاء وحفلات الكوكتيل ، والتف حوله عدد هائل من التجار ومدراء المبيعات والسماسرة والوسطاء ، وبعد شهرين من الدوران فى دوامة المال ، شرع « اميل » فى انجاز المهمة التى جاء من أجلها : انشاء شبكة من الجواسيس المهرة والحصول على أكبر قدر من المعلومات .

وليس ثمة شك فى أن الرجل كان موفقا فى عمله السرى بقدر ما كان محظوظا فى ميدان التجارة ، وكان أول صيد ثمين تمكن من اقتناصه . فتاة تدعى « ماجى بشلس » تعمل فى مصنع « بيديك » .

ولا ريب أن لعابه سال بمجرد أن وقع بصره على الفتاة ، حتى قبل أن يعرف أن مصنع « بيديك » متخصص فى صناعة الطائرات ، فقد كانت « ماجى »

نموذجا فريداً للجمال والفتنة. وجه ملائكى تنسدل حوله خصلات ناعمة من شعرها الكستنائى . وعينان جميلتان وانف مستقيم فوق شفتين ممتلئتين بالحيوية والخصوبة والسحر .. كذلك كان جسدها أشبه بجسد ملكة من ملكات الأساطير . . كتفين دقيقين وصدر ناهد ثم خصر نحيل وأرداف مرتعشة وساقين ناصعتين . . كانت فتاة جديرة بالاستحواذ على اعجاب رجل المال المولع بالنساء .

وعندما التقيا لأول مرة كانت الساعة تقترب من الثالثة بعد ظهر يوم من أيام الآحاد ؛ وكان « اميل » قابعا فى مقعد وثير داخل مطعم أسماك مطـــل على البحر وأمامه زجاجة من الجعة المثلجة وعدة أطباق مكتظة بالمشهيات .

وكان واضحا أن ذلك الشاب يحظى برعاية واحترام فائقين، وقد ضمت إلى مائدته مائدة أخرى حتى لا تتزاحم الأطباق أمام ناظريه.. وكان الخدم يهرعون إليه بمجرد أن يلتفت فى اتجاه أى منهم، ومن آن لآخر كان صاحب المطعم بشحمه ولحمه يقترب من مكانه ليتأكد من أن كل شىء على مائدة مسيو « دروبيه » فى أفضل حال . وفى هذا الوقت دخلت « ماجى » من الباب .

كانت ترتدى ثوبا أسود وخيصا ولكنه يكشف عن مفاتنها ، وكان يصحبتها رجل بدين أصلع يضع على عينه مونوكولا زعمت فيما بعد أنه عمها .. وقد القت نظرة عابرة على « اميل » ثم انصرفت إلى قراءة قائمة الأطعمة بعينين جائعتين . .وليس هناك ما يبعث على الظن بأن « اميل » لم يكن هدفا لها بقدر ما كانت هى هدفا له ، فقد تعمدت أن تجلس فى مواجهته .. وأخذت تختلس النظر إليه وتطلق الضحكات العالية عند ما تضبطه وهو يحملق فى محاسنها .

وما أن جاءتها أطباق الطعام حتى اختفت الضحكات وانهمكت فى التهام طعامها كأنها لم تأكل منذ أن ولدت .. وصبر « اميل » إلى أن فرغت من الأكل

ثم نادى على رئيس الخدم وأعلن بصوت مسموع أنه سوف يعود فى الثامنة مساء ليتناول عشاءه ، وأنه يود أن يجد على المائدة شيئا من المحار ، وبعد ذلك أمر بقائمة الحساب .

وفى الوقت الذى كان « اميل » يلقى على المائدة حفنة من الليرات ، كان صاحب المطعم واقفاً بأدب جم وهو يعلن عن عزمه على تجهيز المحار حتى لو اضطر إلى أن يغوص بنفسه فى أعماق البحر بحثاً عن أجود أنواعه وكان السيد « دروبيه » يبتسم بمودة وهو يوزع عطاياه السخية على كل من اشترك فى خدمته ، ولاحظ العجوز الذى يضع المونوكول أن فتاته تتفرس باعجاب وراء ظهره .. فألقى نظرة هو الآخر ثم تجشأ بصوت منفر .. وفى تلك اللحظة ابتسمت « ماجى » وأومأت ايماءة خفيفة برأسها .

وفى الثامنة مساء ، عاد « اميل » إلى المطعم ، ولكن الفتاة لم تكن هناك ، وبعد حوالى ربع ساعة وصلت وهى ترتدى نفس الثوب الذى جاءت به بعد الظهر .. وحاولت فى بداية الأمر أن تتجاهله .. ولكنه هب واقفا وهو يبتسم ، وعند ما جلسا معا .. كانا يضحكان بشدة للموعد الذى حصلا عليه دون أن ينتبه « عمها » لما يجرى من حوله .

وعرف « اميل » من حديثها أنها تقيم مع اسرتها فى « ناتانيا » وانها تعمل فى المصنع من السابعة صباحا حتى الواحدة بعد الظهر .. ومن الرابعة حتى السابعة مساء ، نظير أجر شهرى لا يتعدى سبعين ليرة تدفع منها أربعين ليرة لأسرتها فى مقابل الإقامة والمأكل ، وتتكلف عشرين ليرة للمواصلات لأن عربة المصنع لا تدخل إلى قلب « ناتانيا » ويتبقى لها بعد ذلك عشر ليرات للنفقات الشخصية ، وهو مبلغ يكفى لشراء ثلاث علب من السجائر الرديئة .

وكانت « ماجى » صريحة ، ربما بفضل المحار الشهى وربما بتأثير كؤوس البراندى الفاخر التى كانت تجرعها بنهم عجيب ، وقد اعترفت بأن الرجل الذى

كان يرافقها على الغذاء ليس عمها ولكنه عجوز مفتون يقدم لهـــا أحيانا وجبة طعام مع بعض الهدايا المتواضعة لكى تسمح له بأن يراها عارية .. وضحكت الفتاة االعوب حتى اغرورقت عيناها بالدموع وهى تصف صديقها العاجز عند ما ينغمس فى ممارسة متعتـه ، وضحك « اميل » بحدة ثم سألهـا عن سـبب إجادتها للفرنسية .. فأجابت بأنها ولدت فى الجزائر .

وبعد العشاء خرج «اميل» بصحبة فتاته الجديدة فى جولة على الشاطىء.. وعنـدما جلست إلى جـواره فى العربة كانت بادية السعادة ، وهتفت بلسـان أثقله الخمر :

ـــ لا شك أنك غنى جداً ..

ولـكنه لم يعر هذه الملاحظة التفاتا ، فقد كان يفكر بعمق .. وعثرا أثناء تجوالها على عربة تبيع القهوة ـــ الاكسبريس ـــ فسألها عما إذا كانت ترغب فى قدح من القهوة .. ولم تكن « ماجى » لترفض فأومات موافقة .

وأثناء تناول القهوة الساخنة مرقت بجانبهما عربة امريكية منطلقة بسرعة مخيفة ، ولاحظ «اميل» أن أربعة هوائيات عالية تتأرجح من فوقها .. وقالت « ماجى » :

ـــ هذة عربة « اهارون ياريف » ألا تعرفه انه رئيس مخابرات اسرائيل

ولم يكن الحديث مناسبا لذلك لزم «اميل» الصمت .

وعند منتصف الليل قالت الفتاة ، إن الجو رائع وأنها تود لو قضت الليـل فى العراء .

وسألها بدهشة :

ـــ وماذا عن اسرتك ؟

فضحكت بخلاعة وقالت إن اسرتها لا تهتم إلا بالليرات .

ثم صمتت للحظة وهتفت فجأة :

— هل تقيم فى فندق ؟

ولكنه لم ينطق بل اتجه بعربته مباشرة إلى منزله ، وهناك انطلقت ماجى فى أرجاء الشقة ، تفتح الأبواب وتضىء الانوار وهى تغنى .. وأبدت اعجابها بجمال الحمام وسألت :

— كم تتكلف الإقامة فى هذه التحفة ؟

وأجاب وهو يصب لنفسه كأساً :

— سبعمائة ليرة .

صفرت بفمها بطريقة غوغائية .. وعند ما وقع بصرها على جهاز للتسجيل سألت بوقاحة :

— هل تحتفظ بأغنية كرستين ؟

فأشار إلى علبة إلى جوار الجهاز .. واخذ فى خلع ثيابه بتؤده .

وأصرت « ماجى » على أن تحتسى مزيدا من الخمر ، ويبدو أنها كانت تعانى من جوع مزمن ، إذ غابت دقائق فى الحمام ، وعندما عادت سألت عما إذا كان فى الشقة شىء من الطعام .

قال « اميل » فى نفسه هذه الفتاة أشبه بدودة الأرض، يمر الأكل فى جوفها دون أن يتوقف فى معدتها ، وقال لها إن لديه بعض علب التونة .. واضافت هى كمية رهيبة من مسحوق الشطة إلى التونة وراحت تقضمها بلذة .. ولما وجدت أنه يتأمل كأسه همست :

— من أين حصلت على هذا الخبز ؟

فابتسم وقال إن ثمة امرأة تعتنى بمثل هذه الأمور ، وانها تأتى إلى الشقة فى الصباح وتنصرف عند الظهر .

وعندئذ قالت :

— أوه .. انى استطيع أن اعتنى بشقتك ، فلنبحث المسألة على هذا النحو

أحضر إليك فى الثانية ثم انصرف فى الثالثة .. وبعد انتهاء الفترة المسائية آتى إلى هنا .. هل يضايقك أن اقيم معك ؟

ولما أجاب بالنفى شعرت بالارتياح وأخذت تثرثر :

— تصور .. يبيعون لنا الخبز فى أكياس من النايلون ، هذا شىء رائع ، كأنه نظيف .. ولكنهم يسرقوننا .. يقولون إن الكيس يحتوى على نصف كيلو والحقيقة أنه لا يزيد على اربعمائة جرام وأحيانا اكتشف ان وزنه ثلاثمائة وخمسين ليس هذا كل شىء .. السكر .. كيف ينقص وزن السكر ؟ انه يمتص بخار الماء ! يا إلهى ! لماذا يحتفظ باريف بأربعة هوائيات ؟ إن عربته أشبه بمراكب الفضاء ولكن لماذا امتعضت فجأة ؟ اننى لا اجيد الحديث .. هكذا تقول امى دائماً .. ولكن لا شان لنا بأمى الآن .. سمعت أن الخبز يقدم مجانا فى الاتحاد السوفيتى . هل هذا صحيح يا اميل ؟ لاشك انك طفت بأرجاء العالم .. لو اننى اعيش فى موسكو لاشتريت عربة نقل وحصلت على كل الخبز لكى أبيعه للآخرين .

وقال «اميل» إن هذه مجرد خرافة . ثم سألها متى يجب أن تستيقظ فى الصباح فقالت أنها تود أن تقضى الليل ساهرة ، وفى النهاية تمددا على الفراش ، وفتحا النافذة .

وفى اليوم التالى انتظرها «اميل» بالقرب من المصنع . وطافا معا على محلات الملبوسات والمتاجر التى تبيع لوازم النساء ومستحضرات التجميل ، وكانت «ماجى» مبهورة وهما يكدسان اللفافات فى العربة بينما كان هو يبدى استخفافا غريبا بالنقود ، ولما أشار عليها أن تنتقى شيئا من عطور كرستيان ديور شهقت بعنف وهتفت على مسمع من عمال المتجر :

— ديور .. إن اللصوص الكبار فى «المراخ» هم وحدهم الذين يجرؤون على شرائها !

ولكن «اميل» أصر على أن تحصل عشيقته الجميلة على مجموعة باهرة من العطور .

وفى غضون أسبوع واحد كانت «ماجى» قد سقطت أسيرة « اميل» واعتقد بقوة انها احبته من كل قلبها . . كما أنها كانت أثيرة لديه لدرجة أنه انصرف إليها بكليته ، ولم يحاول خلال الفترات الطويلة التى قضاها فى إسرائيل بعد ذلك أن يقيم علاقة غرامية مع أى فتاة غيرها ، وحتى عندما تضطر إلى التغيب لبضعة أيام عند اسرتها ، كان يقضى وقته فى أندية الليل وحيدا، وأن كان يقبع بالقرب من الحسناوات – ربما بحكم العادة – ليتأمل من بعيد ، وليتصنت على الأحاديث العفوية أيضا .

وتخير « اميل» وقتا ملائما ليحدث فتاته عن متاعب تجارته ، وكان ذلك فى أعقاب يوم حافل بالمتعه والترف .

كان يوم عطلة ، فاصطحبها فى الصباح إلى الشاطىء وتناولا غداءهما فى المطعم الذى شهد لقاءهما الأول ، وبعد الغداء قضيا وقت القيلولة فى الشقة . . ثم صرفا الأمسية فى الطواف بالملاهى وعلب الليل ، وعندما عادا بعد منتصف الليل لبيا نداء الجسد ثم استلقيا تحت النافذة ، وكان القمر مكتملا ونسمات الفجر تتسلل برقة وتغمر المخدع المعطر ، وقد أشعل هو سيجارة وبدا شاردا، فسألته عما يشغل باله .

وانتهز الجاسوس الفطن الفرصة فقال إن بعض صفقاته كانت خاسره . . عندئذ شعرت الفتاة بقلق مفاجىء فازاحت وسادة كانت تضعها على صدرها . . وشدت نفسها إلى أعلى واقتربت منه بشفتيها ثم همست:

– يبدو انى اجلب سوء الحظ معى يا اميل .

ولكنه ابتسم بتعاسة وأضاف انه يفكر فى مشروع ربما حقق أرباحا هائلة . وشرح الرجل أفكاره بصوت خفيض:

– لاشىء فى هذا العالم يحقق ربحا مجزيا كتجارة الأسلحة . . لو انى تمكنت من التعاقد مع الحكومة الإسرائيلية على توريد لوازم التسليح لفاض المال بين يدينا كنهر سريع الجريان . . ولكن هذه العقود لا تتم إلا بدفع



في الجو

مجندتين في سلاح الطيران الإسرائيلي و « اميل درو بيه » ينصت باهتمام

مبالغ كبيرة وعن طريق وسطاء يمكن الثقة بهم . . هناك وسيلة واحدة للوصول إلى الهدف . . أن نعرف الاحتياجات الناقصة ثم نتقدم بعرض مغر . . ماجى ؟ لا شك انك تستطيعين مساعدتى . . أليس كذلك يا حبيبتى ؟

كان السؤال داعياً للدهشة ، ولم تكن ماجى تتصور انها يمكن أن تكون فى موقف من يرغب الآخرين فى مساعدته بأى حال ، كان الرجال يشتهونها، ولكن الاشتهاء شيء مختلف عن طلب المساعدة . وفغرت فاها ثم أكدت أنها لا تبخل على حبيبها بأى نوع من العون وبدأ « اميل » فى شرح مشكلته :

ــ تعرفين موقف بلادى يا « ماجى» . . هؤلاء الذين يمسكون بالدفة فى فرنسا يتخذون منكم موقفاً سلبياً للغاية . . ان هذا الحظر على الطائرات يبدو فى نظرى سخيفاً . . ولكن ما ذنبى انى فرنسى وسوف أظل فرنسياً . . ولهذا السبب لن يقبل أحد معاونتى بشأن . . أعنى بشأن الطائرات . . ولكن لو أننا حصلنا على قائمة بالمصاعب التى تعترض صناعة الطائرات . . ان المسألة حساسة للغاية . . واعتقد أنى استطيع التقدم بعرض مناسب .

أخذ «اميل» فى مراقبة الفتاة بطرف عينه ، كانت عملية التجسس فى ذروة تتابعها الدرامى، وعند هذه النقطة يتحدد مصير الجواسيس ، وفى هذه اللحظات لا ينصب اهتمام الجاسوس الحاذق على موافقة الطرف الآخر أو نكوصه ، ولكنه يبذل أقصى ما لديه من قدرات ليقرأ رد الفعل الصادق لمقترحاته ، وفى أحوال كثيرة يحصل الجاسوس على موافقة ظاهرية تمثل أول خطوة نحو النهاية، ولكن ماجى كانت فى لجة مضطربة من المشاعر والأحاسيس . . الحب ممزوجاً بالعطف والقلق . . الأمل فى حياة مفعمة بالترف والمتعة مع واقع تكتنفه مصاعب الارتباط بمجتمع جشع ووظيفة حقيرة لا تكاد تفى بحاجياتها اليومية .

كانت تود لو أن اميل اصبح فى وضع يمكنها من ان تطلب منه ما هو أجدى من الطعام والهدايا والعطور . . ان يصحبها معه إلى فرنسا، وهناك تستطيع أن تمضى خطوة ابعد فى علاقتها به .

ـــ كيف اساعدك يا إميل ؟

هكذا سألت الصبية العاشقة بصوت ينم عن الحيرة والصدق .

وفكر هو برهة وراح يداعب شفتيها بإصبعه ثم أجاب :

ـــ أوه . . انني امزح بلا شك . . عليها اللعنة هذه الخر . . لقد صورت لى خيالات بعيدة حقاً . . تساعدينني . . هذه مسألة مضحكة للغاية . . يا إلهى . . لقد كنت اهذى يا ماجى !

ـــ هل تظنني غبية ؟ حسنا ! إن امى تتهمنى بالغباء فى معظم الأحيان ، وكان ابى يدعى انى تافهة . . ولكنه قضى على نفسه بيديه بعد ان غرق فى الديون حتى اذنيه . . احترس ان تهزأ بى انت الآخر يا إميل . . لأننى احبك . . وانت تدرك ذلك جيداً . . والآن يجب أن نفكر معاً فى مشكلة الطائرات . . لقد سمعت ان ثمة سبائك معينة يؤدى نقصها إلى توقف العمل . . انني لست خبيرة يا إميل تكلم . . لا يطيب لى شرودك ونحن متلاصقان !

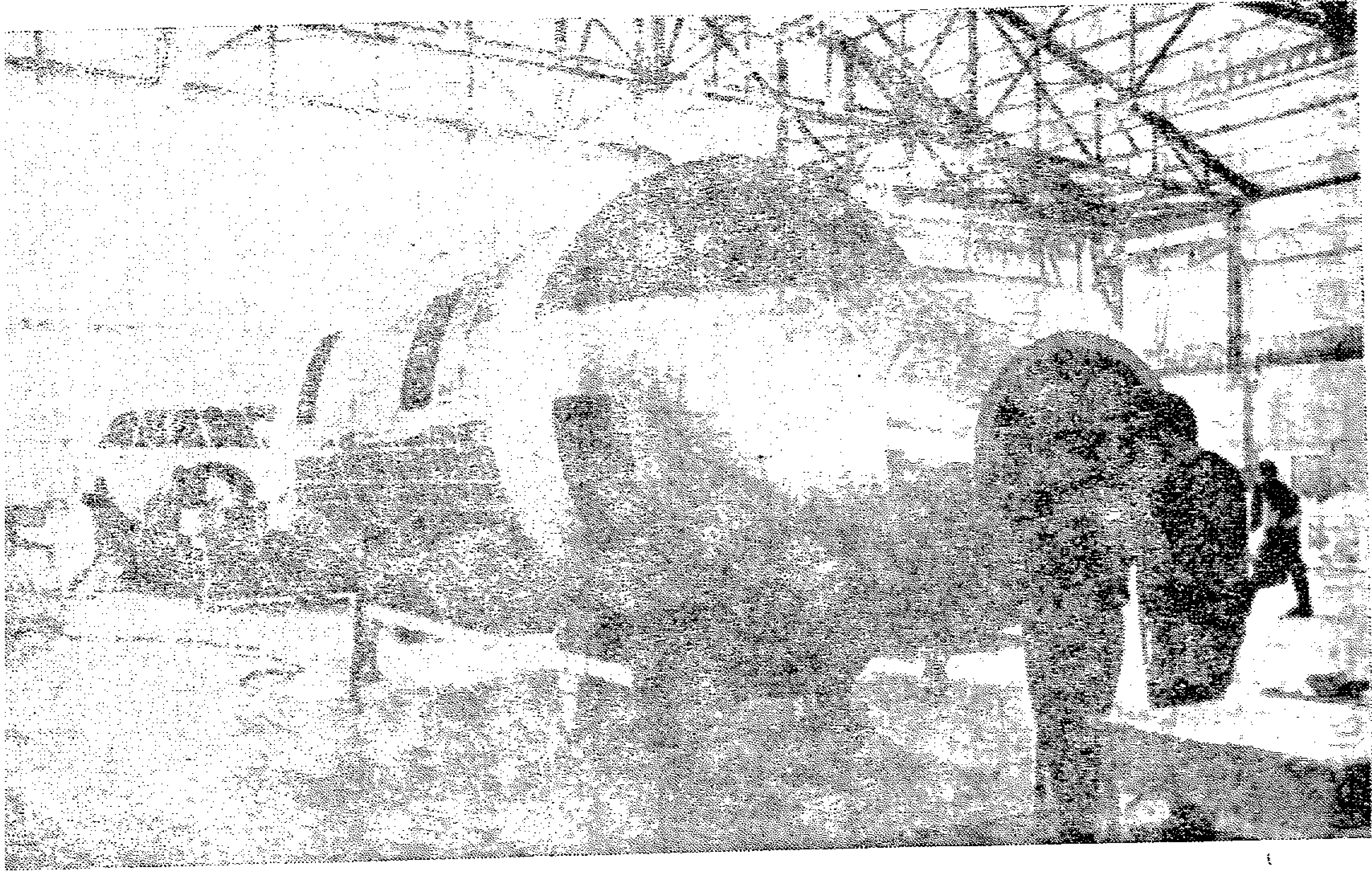
وفى النهاية اتفق العاشقان على ان افضل طريقة تمكنهم من الوصول إلى الهدف . . لا بد وان تبدأ بخطوة جوهرية . . ان يطلع إميل على مراسلات المصنع لكى يتفهم احتياجاته الضرورية . . وليتبين أوجه النقص فى الخامات.

وتطوعت ماجى بأن تحمل معها كل يوم وبصفة سرية تماما أية اوراق ترى انها هامة ولكنها كانت عاشقة جيدة فحسب . . إذ صارحها إميل بعد كمية مناسبة من الرسوم والصور والقوائم بأن كل ما جاءت به لا يصلح إلا لتنظيف الموقد . . واقترح وسيلة نافعة لزيادة المحصول ، ولم تكن هذه الوسيلة سوى آلة تصوير دقيقة ثبتها بعناية فى مقبض حقيبة يدها .

ولما وجدت الفتاة ان الأمور بدأت تتخذ شكلا خطرا ، ألمحت بأنها على استعداد لأن ترتكب أية حماقات من أى نوع ، خصوصا إذا تحققت رغبتها فى الاستقرار وإقامة عش سعيد وجميل . . وكان هو ذكيا . . فعرض أن يتجها فى الصباح الباكر إلى اقرب مكتب توثيق لكى يتزوجا ، وعلى الفور اعترضت



تجميع الطائرات .. مصنع بيديك



صورة ملتقطة عن قرب لطائرة فى المرحلة النهائية

بشدة لأن الزواج فى إسرائيل سوف يثير مشاكل مؤكدة . . إذ ان الأولاد — ثمرة الزواج الطبيعية — لن يحصلوا على أية حقوق كمواطنين نظرا لأن الأب غير يهودى . .

ووافق إميل على ان يصحبها معه إلى فرنسا وهناك يتزوجها . وأصبح لزاما عليها بعد هذا الاتفاق الوردى ان تثبت جدارتها بزوج على هذا القدر من الذكاء والجاه ، وان تساعد فى نجاح المشروعات التى لا يتحقق العش السعيد إلا بنجاحها . . وكان لا بد ان تعجل بلحظة سعادتها المنشودة .

وتحولت « ماجى بشنس » إلى جاسوسة مدربة ، وزودت المخابرات المصرية فى القاهرة طوال ثلاث سنوات كاملة بأهم البيانات والقوائم والرسوم التفصيلية وخطط الإنتاج الخاصة بصناعة الطائرات فى إسرائيل . .

وبفضل هذه المرأة المخلصة ادركت القاهرة — التى لا بد من الاعتراف بأنها كانت تتبنى فكرة خاطئة ومتسمة بالمغالاة عن قدرات الإسرائيليين — ادركت ان إسرائيل لم تتمكن من تحقيق أى تقدم ذا قيمة فى مجال صنع الطائرات كما ان محاولات تجميع اجزاء الطائرات التى يتم استيرادها قد وقفت عاجزة حتى عن مجرد إقامة قاعدة فنية لصناعة متكاملة تقام فى المستقبل البعيد .

كان الإنتاج الإسرائيلى لا يتجاوز عدة نماذج متواضعة من طائرات « ارافا » . وهى نوع صغير الحجم من الطائرة « اطلس » ولا يصلح إلا لنقل عشرين شخصا أو طنين من البضائع . كما أن مخاطرة الطيران بهذه « الآرافا » كانت تنطوى على اعتماد كامل على الحظ المطلق وحده . كذلك قامت صناعة الطائرات الإسرائيلية بتجديد عدد من طائرات « كومودور » الامريكية المستغنى عنها . .

واتضح ان المسئول الأول عن هذه الصناعة الطموحة ، رجل يدعى « اولشى فيمر » وهو إنسان عبقرى يتمتع بمقدرة علمية فذة وعقلية خلاقة . . طبقا للوصف الذى يطلقه هو شخصيا على نفسه ، وقد ادت هذه الصفات إلى ابتكار خيالى عظيم ، طائرة مقاتلة نفاثة اطلق هو ايضا عليها اسم « سوبر

ميراج» وقد اشترط لتنفيذ ابتكاره ان تحصل المخابرات الإسرائيلية على أسرار إنتاج الميراج الفرنسية وأن تسلم هذه الأسرار له وبعد ذلك يقوم بإخراج اختراعه الرائع السوبر ميراج البراقة إلى حيز الوجود .

ولسبب أو لآخر اقتنعت المخابرات الإسرائيلية بفكرة السيد «فيمر» وتقتضى الأمانة منا أن نعترف بأنها بذلت جهودا ضخمة ، وأموالا أكثر ضخامة من الجهود لكى ترضى عزيزها العبقرى «فيمر» ولكنها فشلت فشلاذريعا فى النفاذ إلى المصانع الفرنسية التى تتولى إنتاج طرز الميراج المختلفة، فاضطرت إلى البحث عن هدفها لدى المصانع التى تنتج أجزاء صغيرة من المحركات لحساب شركات صناعة الطائرات . . وعثرت على ضالتها فى شخص مهندس مدنى يدعى «الفرد فرانكنشت» فالقت شباكها حوله .

كان «فرانكنشت» هدفا سهلا ، واستجاب بسرعة ورغم أنه رجل قاسى النظرات قوى الفكين ذا مظهر ينم عن قوة المراس إلا انه كان يتصبب عرقا لأتفه الأسباب .وكان منصبه كرئيس لقسم المحركات فى مؤسسة «سولزر»السويسرية يتيح له سلطة واسعة ودراية كبيرة بأعمال هندسة المحركات ، ولما كانت مؤسسة سولزر تقوم بإنتاج المحرك النفاث طراز «اوتار ٣ س» وتقوم بتوريدها للجيش السويسرى ؛ اعتقد الإسرائيليون ان بمكنتهم الحصول على التصميمات الضرورية عن طريق رشوة «فرانكنشت» ورضى هو ان يقوم بالمهمة مقابل مليون فرنك سويسرى لاغير

وللحق كانت العملية محكمة غاية الاحكام .. كما أن جانب المخاطرة كان شبه معدوم ، فشركة «سولزر» تتسلم تصميمات المحركات النفاثة من شركة «سيلكا» الفرنسية .. ثم توزع هذه التصميمات على ما يقرب من عشرين شركة صناعية تنتج كل منها جزءا من المحرك، وبعدذلك تستعيد شركة سولزر هذه التصميمات.

وكان واجب «فرانكنشت» يتلخص فى إعدام التصميمات المعادة فى مخزن

تابع للمؤسسة بالقرب من الحدود السويسرية الألمانية . ولم يكن السيد « فرانكنشت » فى وضع يسمح له بأن يرفض المليون فرنك .. ولعله اقتنع بأن المخابرات الإسرائيلية سوف تتولى احراق التصميمات نيابة عنه بدلا من تعريض شخصه الموقر لرائحة الحريق الكهربية .

ويبدو ان الإسرائيليين صدموا عندما سلمهم « فرانكنشت » أول شحنة من التصميمات .. إذ اتضح أنها لا تتعدى بضع أوراق عادية ولا تتضمن أية فائدة هندسية ، ولأنهم كانوا قد دفعوا الفرنكات مقدما ، طالبوا عميلهم بأن يسلمهم جميع الأوراق التى يكلف بإعدامها لكى ينتقوا منها ما يحلو لهم .

وهنا اسقط فى يده ، إذ أن حجم الأوراق كان ضخما .. وعبثاً حاول اقناع أصدقائه الإسرائيليين بأنه يستطيع القيام بعملية الانتقاء بنفسه ، وعندئذ أعلن أنه لا يجرؤ على نقل الأوراق المطلوبة لياردة واحدة بعد باب المخزن ، وكان على الإسرائيليين أن يدبروا وسيلة النقل .

ومرة أخرى لجأت المخابرات الاسرائيلية إلى النقود ، فدفعت ثمانمائة وستين ألفاً من الفرنكات لرجل ألمانى يدعى « شتويكر » لكى ينقل الأوراق من المخزن إلى ألمانيا عبر الحدود . ولأنه كان سائقا محترفاوله صلات مع رجال الحدود على الجانبين .. قرر « شتويكر » ان بمقدوره انجاز العملية دفعة واحدة على ان تزوده المخابرات بسيارة مرسيدس لكى تتسع للشحنة .

وهكذا حصل ذلك العميل المبتدىء على رزم الفرنكات ومعها سيارة جديدة وفاخرة .. ولم تكن هناك ادنى حاجة للتعقيدات المعتادة فى عمل المخابرات إذ كان عليه أن يقود سيارته إلى باب المخزن وهناك يمده « فرانكنشت » بصناديق التصميمات ثم ينطلق بها مسافة لا تتجاوز عشرين كيلو مترا . حيث يتخلص منها وبعد ذلك يصبح حراً .

وكان من السهل اتمام العملية دون أية عقبات ، وينتهى الهدوء ،لو لم يثرثر السيد « اولشى فيمر » ببضع كلمات قليلة عن قرب إنتاج السوبر ميراج التى كان يحلم بها ، ولو لم تقم إدارة مصنع بيديك بإخلاء مكتب فى مبنى الادارة دون إبداء الأسباب .. كذلك كان هناك نذير سخيف - ينم عن اهمال متعمد - إذ عين « فيمر » ثلاثة من الأخصائيين فى هندسة الطائرات، واشترط عند تعيينهم ان يكونوا على دراية كبيرة باللغة الفرنسية ..

ومع تتابع هذه المعلومات غير المشجعة انتهت إقامة « اميل دروبيه » فى إسرائيل .

إدعى « اميل » ان لديه بعض الأعمال العاجلة تتطلب سفره إلى باريس .. واقترحت « ماجى » ان يحتفظا بشقتهما الجميلة على ان تقوم هى بدفع ايجارها أثناء غيابه .. إلا أنه رفض بحزم ، ولم يفصح عن سبب هذا الرفض .

وفى منتصف اغسطس بدأ رحلته إلى باريس بالباخرة . وكانت مارسيليا هى هدفه النهائى ، وهناك التقى برجلين يبدو انهما من رجال البحر.

كان احدهما شابا متوسط الطول ، اسمر البشرة ممتلىء القسمات ، أما الآخر فكان عملاقا يتدفق صحة ونشاطا ، ذا هيئة توحى بأنه الربان .. وبعد أن تحدث الرجال الثلاثة فى مشرب قريب من الميناء عن الشحنات التى ينوى السيد « دروبيه » تكليف زميليه بنقلها على سفينتهما انتقلا إلى شقة هادئة حيث تحول الحديث تحولا خطيراً .. فقد كان الرجلين ابعد ما يكونا عن البحارة والسفن .. وانما ضابطين قادمين من القاهرة اما مهنتهما فلم تكن سوى الجاسوسية .

وكان الرجل الذى يشبه الربان مبتهجا،وهنأ « اميل » بحرارة ثم أخذ فى شرح بعض الملاحظات البسيطة عن المخالفات التى ارتكبها عميله وكان من المحتمل أن تعرضه للاكتشاف ، واقترح ان يمتنع « اميل » فى المستقبل عن تجنيد أى فرد إلا بعد أن يرسل تقريراً وافيا عنه الى القاهرة لتبحث الأمر ثم تقرر

ما إذا كان الصواب يقتضى تجنيده أو استبعاده بسرعة ، وتركت «لإميل» حرية تنظيم الاتصال ووضع قواعد المقابلات وتحديد الشفرات بعد أن يكون شبكته وفق القاعدة المتعلقة بالتجنيد .

وقال « اميل » انه لم يخطىء فى اختيار « ماجى» وان ذلك يعد دليـــلا على قدرته الحكيمة فى تقييم من يتعاونون معه . ولـكن الربان اصر عـلى آن يخطر بمواصفات أى عميل جديد قبل مفاتحته بحرف وقبل أن يطلع على ما يثير الشكوك .

وحدثت واقعة أخرى تتسم بالإثارة ، يوم السبت ٢٠ سبتمبر بعد المقابلة المحفوفة بالسرية ، بواحد وعشرين يوماً ، إذ قام السيد «هانز روتسيتنجر» عضو مجلس مقاطعة بازل .. بجولة على الأقدام بالقرب من مخزن مؤسسـة سولزر .. ولأن الوقت كان مبكراً ، اخذالسيد « هانز» فى التمتع بنسمات الصباح وهو ينقل قدميه بتؤده دون حدوث ما يعكر الصفو .

وعندما اقترب من باب المخزن لاحظ وجود عربه مرسيدس ٢٢٠ حديثة وسوداء تقف ومؤخرتها الرياضية على مسافة سنتيمترات من الباب . . فقرر أن يدور أمام مقدمتها مواصلا نزهته.. وفى تلك اللحظة فتح باب العربة واندفع منها شخص طائش وأسرع بالفرار كأن النـار اشتعلت فى ثيابه الداخلية . .

ولم يكن هذا الطائش سوى « شتويكر » ..

وكان طبيعياً ان يستطلع السيد « هانز » جلية الأمر . . ولفت نظره صندوقان كبيران يبدو أن «شتويكر» كان ينوى نقلهما إلى عربته .. وفى أرضية المقعد الخلفى .. كان هناك صندوق ثالث وعلى جانب كل صندوق كانت ثمة ورقة بيضاء كبيرة مكتوب عليها « أسرار عسكرية ، سرى – مخططات وتصميمات ورسومات » .

وعلى الفور ابلغ السيد «هانز» روتسيتنجر – بوصفه مواطنا صالحا – سلطات الأمن السويسرية .

وقد قبض على « شتوبكر » واعترف بالعملية كلها.. وسقط « فرانكنشت » في نهاية المطاف ، وحرمت المخابرات الإسرائيلية من قطف ثمار جهودها .

أما « أولشي فيمر » فقنع بأعمال السباكة ، التي يجريها حتى الآن لتجديد بضع طائرات قديمة أو صنع نماذج هزيلة من طائرات النقل ، وإن كان ما زال يحلم بطائرته الخيالية .

وبعد حادث سرقة الطائرات باسبوع عاد اميل مرة اخرى الى اسرائيل ، واكتشف عند وصوله ان شقته شغلت بساكن آخر .. ولكنه عثر على شقة في مواجهة مشرب « رولاو » ثم أقدم على خطوة بالغة الجرأة .. فبعد ان استأجر عربة جديدة اتجه الى مصنع « بيديك » وقت انصراف الموظفين ، وجثم عند الباب في انتظار ماجي

وقد ألجمت المفاجأة لسان الفتاة التي كانت تتأبط ذراع احد زملائها ، وكانت عربة الاتوبيس المخصصة للعمال والموظفين مزدحمة بالركاب . . ولا شك أنهم بهتوا لمشهد زميلتهم الحسناء وهي تحتضن ذلك الفرنسي الأنيق وتغمره بقبلاتها . . وعند ما ضمتهما العربة ، اخبرها « إميل » بنبأ الشقة فاكتأبت قليلا وقالت إن ذلك ليس ذنبها .

وكما توقع ضباط المخابرات ، ارسل « اميل » بعد شهر واحد تقرير آطلب فيه اذناً بتجنيد عضو جديد لشبكته . وكان العضو الذي وقع اختيار « إميل » عليه نقيب احتياطي في جيش الدفاع يدعى « دان افرايم » .

وجاء في التقرير أنه متزوج من سيدة بولونية تدعى « ميراشيمن » ولكنه ليس على وفاق معها بسببه نوع من الشذوذ في ممارسته علاقته الزوجية معها ، وأنه على علاقة بفتاة تدعى « ديبورا مايزل » صديقة لماجي وفيما يتعلق بسلوكه ، قال التقرير إنه مقامر سيء الحظ لا يكف عن اقتراض النقود ، وانه ناقم على كل ما هو إسرائيلي ، فقد أصيب في معركة ١٩٥٦ برصاصة في فخذه اليسرى اثناء هجوم المقاتلات المصرية على ممر متلا أول أيام المعركة ، وأدت اصابته الى شلل جزئي في حركة الساق.. ومع ذلك لم يحصل على أية اوسمة

أو مكافآت ، بل أعيد الى الخدمة المدنية فى فبراير ١٩٥٧ ، كمساعد للعمل فى معهد التقنية الاسرائيلى « تكنيون » ومقره حيفا ، وبعد عديد من الالتماسات والشكاوى عين كمدرب للرماية فى معسكر « اللنبى » .

وقبل ان يصل رد القاهرة — ارسل إميل يطلب الموافقة على تجنيد «ديبورا» شقيقة دان هى الأخرى ، ولم توافق القاهرة على الاقتراحين إلا فى منتصف ديسمبر .. وكانت فترة اقامة إميل قد قاربت على الانتهاء ، ولكنه عكف على انجاز المهمة بسرعة فائقة ، ولظروف العميلين لم يصادف « إميل» أية صعوبة بل اتضح ان دان كان يتوقع نوعا من العمل غير المشروع .

وفى السابع والعشرين من ديسمبر غادر إميل تل ابيب الى قبرص ، وبعد قضاء ليلة واحدة فى الجزيرة الخلابة ، عاد ادراجه الى إسرائيل ، وحصل على فترة اقامة ثالثة .

وقام «إميل» بتقسيم العمل داخل شبكته بطريقة فذة ، فاختص دان بالموضوعات العسكرية والتصوير ، أما « ديبورا » فكان عملها ينحصر فى جمع المعلومات عن المنظمات النسائية وكتابة التقارير عن مشاكل اليهود المعارضين للحكومة .. واختصت ماجى علاوة على مصنع الطائرات بدراسة الجانب الاقتصادى وبيان السلع التى تتعرض أسعارها للارتفاع فى السوق المحلى ، واحتفظ إميل لنفسه بمسئولية التقارير السياسية وتصنيف المعلومات التى يقدمها أعضاء الشبكة الثلاثة .. وحظر على أى منهم الاتصال تليفونيا بالآخرين مهما كانت الظروف ، كذلك نبه عليهم بعدم كتابة أية معلومات والا كتفاء بالاختزان .

وفى فبراير ١٩٦٩ أبدى «دان» نشاطا غير عادى .. إذ قدم لإميل اثنين من صف الضباط ورشحهما للعمل . وكان احدهما جاويشاً فى السلاح البحرى ، يدعى « اودى بيدلسون » اما الصف ضابط الثانى فكان جاويشا أيضاً ، إلا انه كان حسناء تدعى « استير تالمى » وتعمل فى سجن «رانون نيرزا » النسائى .

وقد اقرت المخابرات المصرية تجنيد «أودى» ورفضت « استير» ولا شك أن مثل هذه القرارات تتخذ بعد دراسة كافة المعلومات التى تجمع على وجه

السرعة ومن مصادر متعددة ، وبعد تقصى « طرق اقتراب » العملاء المرشحين من الشخص الذى تولى ترشيحهم .

وكانت حصيلة جهود «دان» صورة وافية لطرق اعداد وتدريب الشبيبة الإسرائيلية والتى تعرف باسم « الجدناع » أو « الجادنا » واتضح ان السلطات الاسرائيلية تنفذ مخططاً دقيقا لتدريب الشباب من الجنسين ، الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة تدريباً عسكرياً لمدة ساعة فى المدارس والمعاهد ، ولمدة نصف يوم كل اسبوع فى المعسكرات ، ثم لمدة يوم كامل كل شهر فى معسكر «اللنى» وهناك يدربون علـى اطلاق النـار بواسطة بندقية صغيرة العيار ـ خمس طلقات لكل طالب ـ وتسجل النتائج بصفة مستمرة ونظام محكم ، وقدم « دان » صورا دقيقة لمراحل التدريب المختلفة والمعدات المستخدمة ، وكذلك عملية اطلاق النار .

وبعد ان استقرت الشبكة فى شكل متين زودت بجهاز لاسلكى وانيطت مهمة الارسال بديبورا بعد تدريب قصير ومناسب .. وكانت الشفرة معقدة ، ولكنها كانت مؤمنة لا يمكن حلها بأية وسيلة .. فبعد أن يتم استبدال الأرقام بحروف الرسالة كان على «ديبورا» ان تطرح من كل مقطع رقم ١٣٤ فى أيام السبت والاثنين والاربعاء . أما فى بقية أيام الأسبوع فكانت تضيف ٤٣١ . وفى القاهرة كانت تجرى عملية معاكسة بالضبط قبل اجراء الحل .

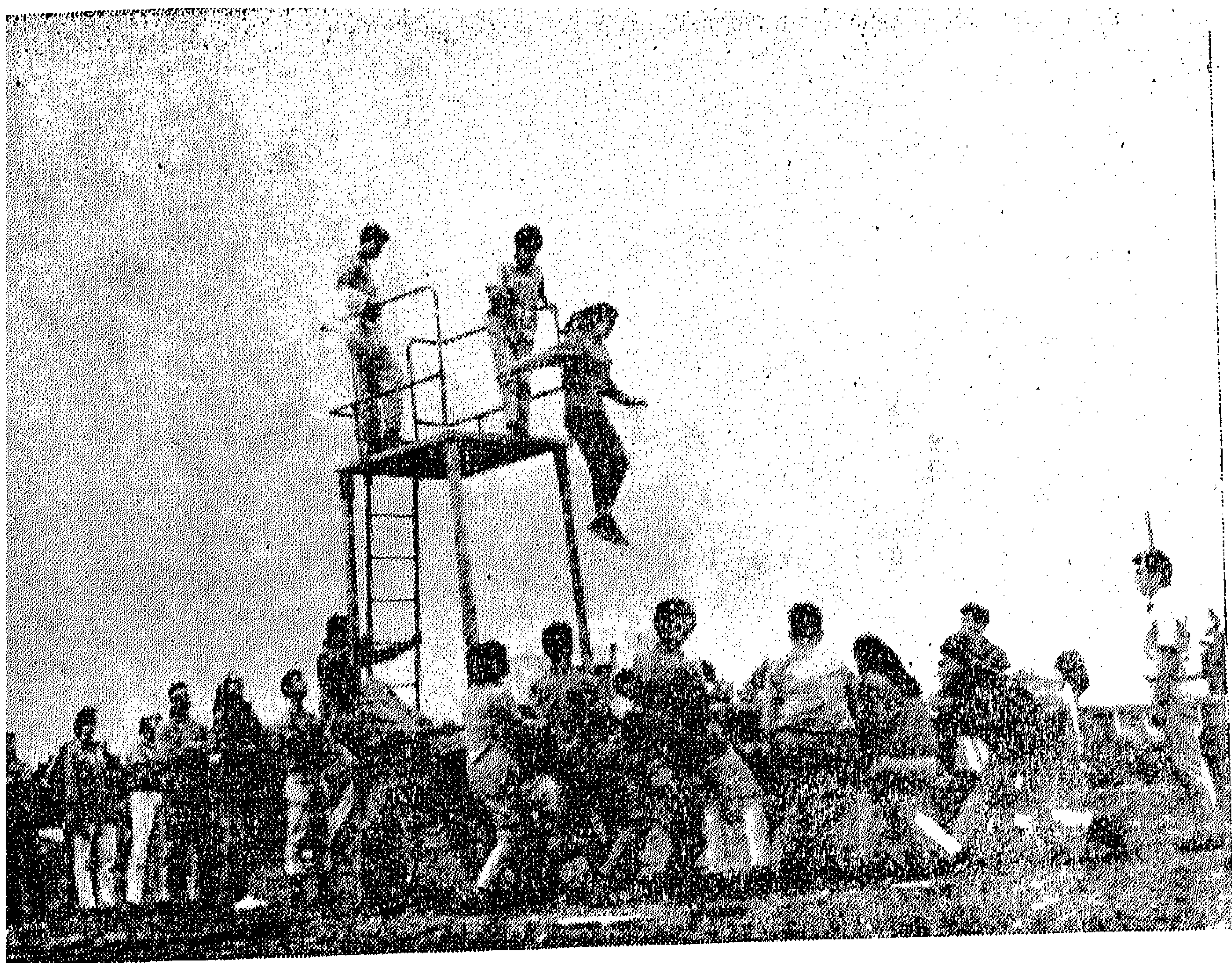
وكانت أوامر إميل صارمة بألا ترسل «ديبورا» رسالتين متتاليتين من مكان واحد .. وكانت الرسالة التى يقرر بثها تصاغ بإسلوب موجز ثم تسلم لهالكى تقوم بتشفيرها فى مكان بعيد عن مكان الجهاز .. وبلغ من حصافة اميل وتقديره لأهمية عاملة اللاسلكى فى شبكته أنه شرح لها الوسيلة التى تستخدمها أجهزة مكافحة التجسس الإسرائيلية فى تتبع الارسال اللاسلكى وهى وسيلة حديثة تعتمد على قياس الزوايا الاشعاعية ، ولم يحدث أن خالفت ديبورا اوامر تأمين الارسال بأية صورة من الصور وتحت أى ظرف من الظروف .

وما أن حل شهر مارس حتى أسدرت المخابرات أوامرها الى «إميل»



معسكر جادنا . من لحظة « الصحيان »





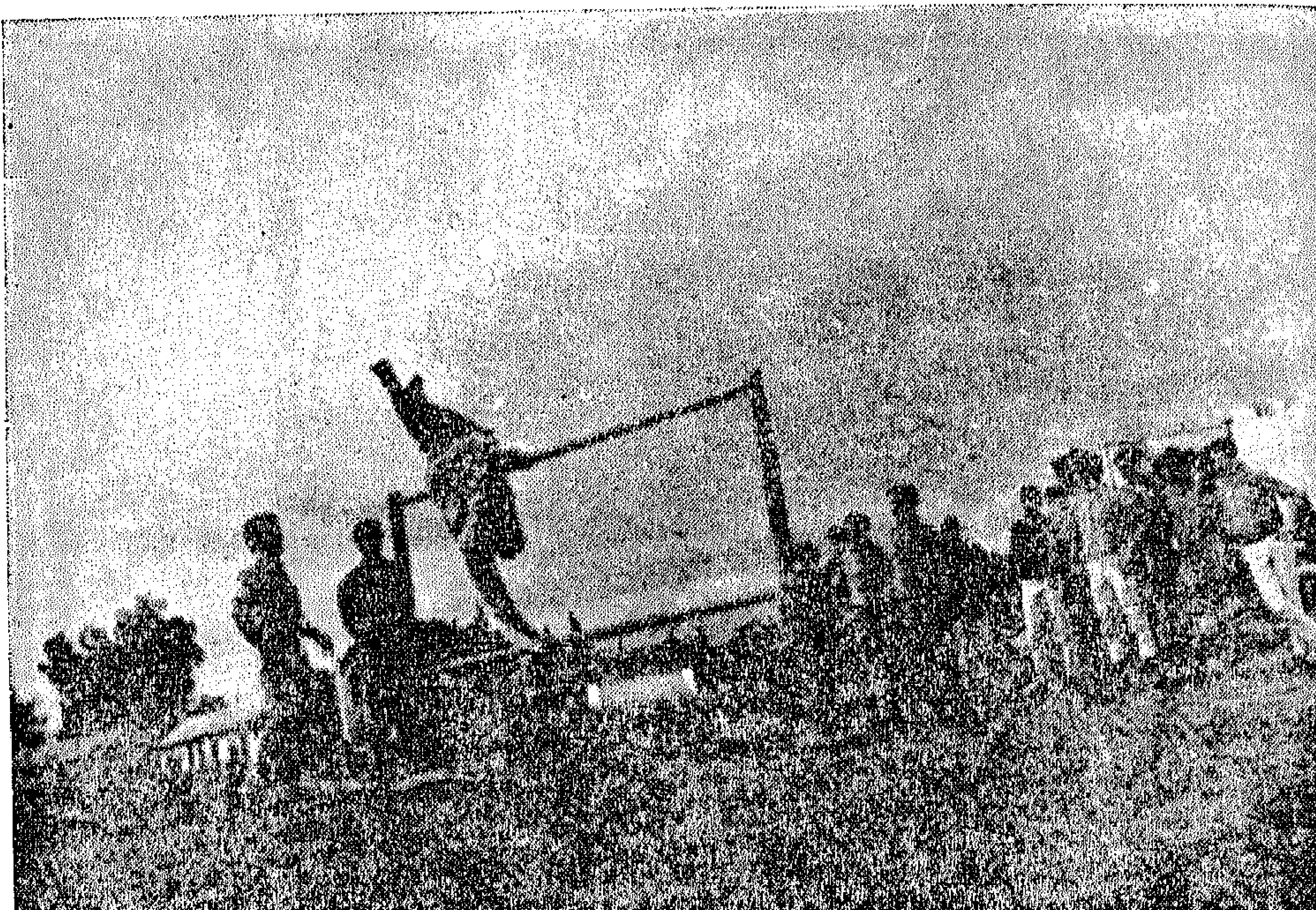
تمارين اللياقة





التدريب على تخطى الموانع





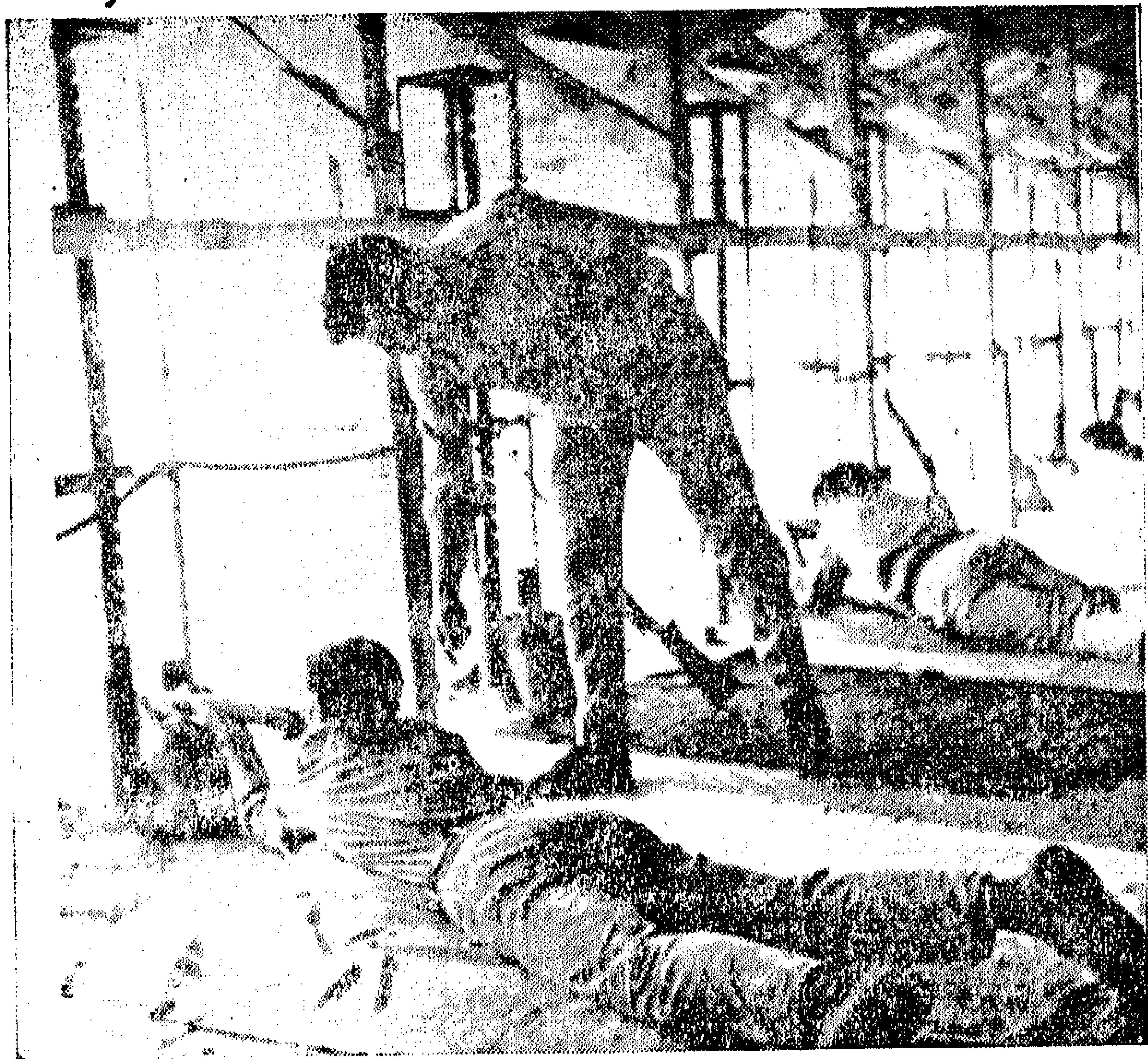


التكتيك
العنيف



وقت الراحة

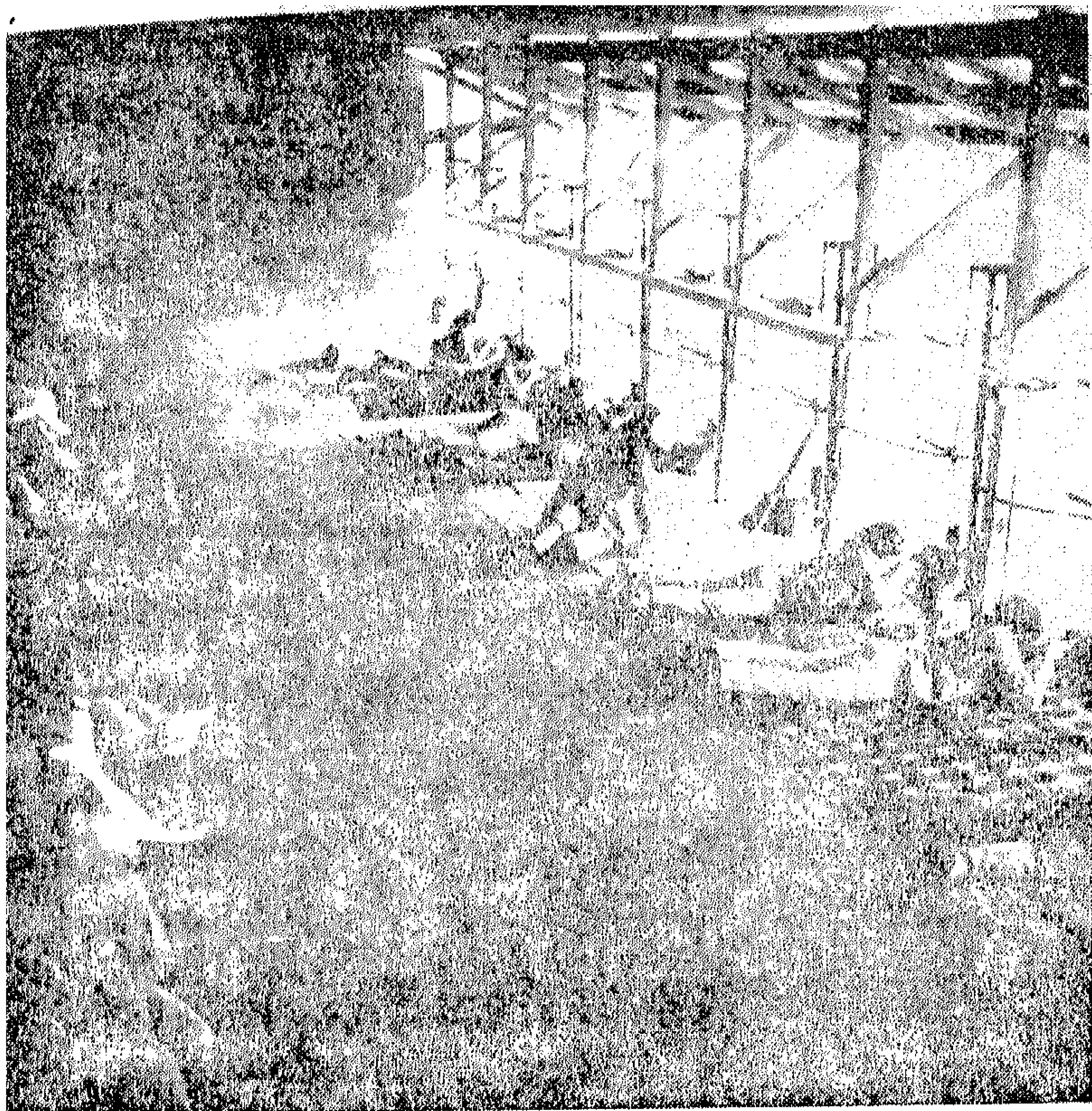




التدريب



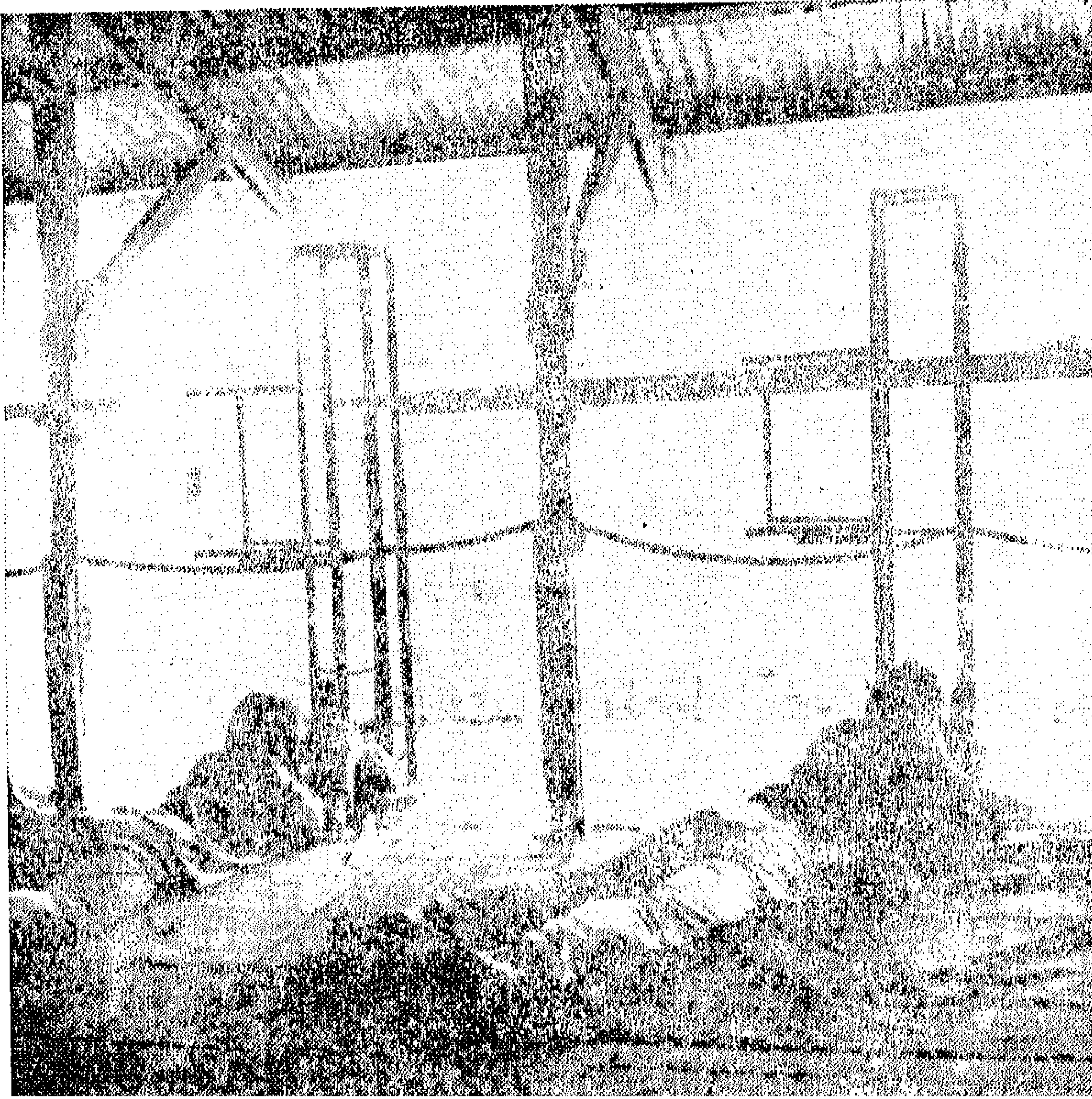
على الرماية



نقطة
الضرب

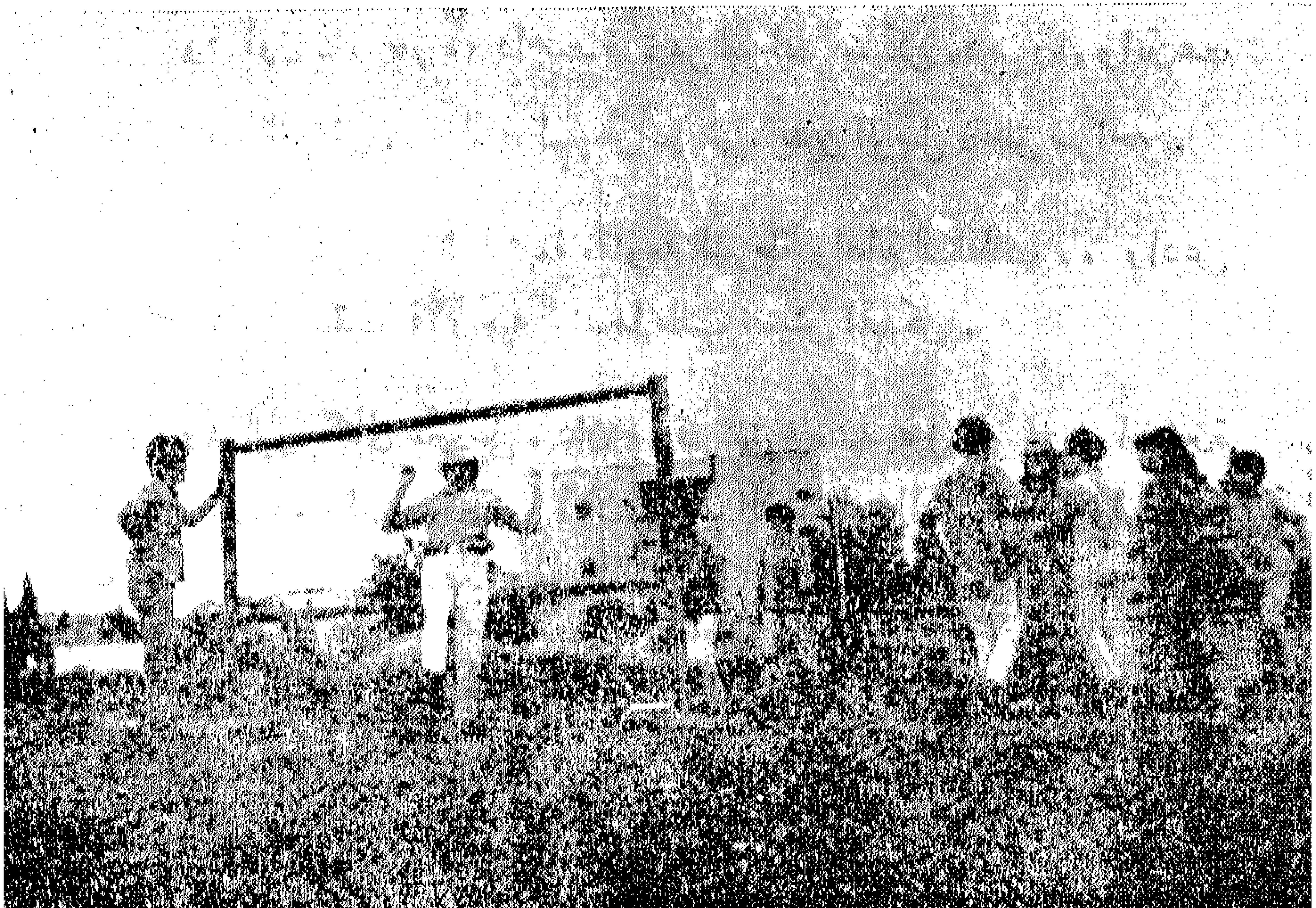


التدمير



إطلاق
النـار

لحظة الإنصراف



بمغادرة إسرائيل على أن يتولى «دان» رئاسة الشبكة . . ومع رحيل اميل، غدت عملية تمويل المجموعة مشكلة قائمة بذاتها . . فقد كان من الخطأ وضع الأموال اللازمة تحت تصرف «دان» نظراً لأنه كان مواظباً على سهرات المقامرة ، فإذا ما اجبرته الخسائر على اظهار مزيد من النقود تعرض أمن الشبكة للدمار . . . لذلك كلفت ماجى بامانة الصندوق . . وكان عليها ان تقدم قائمة بالمصروفات الشهرية عن طريق اللاسلكى . . وفيما يتعلق بمرتبها هى شخصياً . . طلبت أن يودع فى حساب اميل فى باريس ، لكى تنتفع بالرصيد عندما تنتهى المهمة . . ويبدو أنها كانت تأمل فى اتمام زواجها منه .

واستمرت الشبكة فى تأدية واجبها على خير وجه حتى ديسمبر ١٩٧١ ، وكانت هناك شخصية منسية لم يحسب حسابها احد . . فقد لاحظت « ميرا » أن «دان» قد اقلع عن طلب نقودها ، كما أنه لزم مسكن « ديبورا » فتقصت حقيقة الأمر . . ورغم انها كانت تشعر بالراحة لأنه ابتعد عنها وتخلصت من أسلوبه المنكر فى ممارسة علاقته الزوجية معها . . إلا أنها احست بافتقاده ودفعتها الغيرة الى مطاردته .

وفى النهاية قدمت ضده شكوى زعمت فيها انه يبيع الذخيرة المخصصة لتدريب الشبان .

وفى أول يناير ١٩٧٢ داهمت قوة من البوليس مسكن «ديبورا» وانتزعت العاشقين من الفراش . . ولكن لم يعثر على شىء يدين الرجل فاطلق سراحه .

أما الفتاة فوجهت اليها تهمة مقاومة الشرطة واهانة السلطات . . وادعى قائد القوة انها بصقت فى وجهه عندما طلب تفتيش المسكن .

وفى اليوم التالى عثر على « دان » وقد شنق نفسه بحبل فى مخزن الذخيرة بمعسكر اللنبى . . ولم يعرف حتى الآن السبب الذى دفعه الى الانتحار ، والأرجح أنه خشى من أن تضعف «ديبورا» وتعترف بكل شىء .

وعلى الفور أتلفت ماجى جهاز اللاسلكى واحرقت كل اوراقها . . ورغم

ذلك سقطت قتيلة هي الأخرى إذ اختل توازنها وهي تعبر الطريق أمام مصنع بيديك فدهمتها عربة مسرعة ، وحولت «ديبورا» الى قاضى التحقيق فى منتصف يناير فأمر بالافراج عنها .. ولم يكن هناك متسع من الوقت ... فغادرت إسرائيل على عجل ولا يعرف مقرها الآن على وجه التحديد .

أما «بيدلسون» فتملكه الفزع وحمل المفكرة التى تحوى الشفرة وكانت ديبورا قد سلمتها له قبل حلول عيد الميلاد واستقل عربة « شيرات » — نوع من التاكسى اشبه بالسرفيس الذى يستخدم فى لبنان — واتجه الى محطة الاتوبيس الرئيسية لكى يسافر الى « ايلات » وفى غمرة العجلة والارتباك نسى المفكرة على المقعد الخلفى فى الشيرات ولم يتذكرها إلا بعد نصف ساعة .. فأصيب بالذعر. ولكنه آثر المضى قدماً .

ولم تكن لديه خطة محددة للفرار .. وعجز عن التسلل الى أية سفينة من السفن الأجنبية التى وجدها فى الميناء .. ولكنه أسر برغبته فى مغادرة اسرائيل الى رجل بدوى من العرب .. فاقتاده الأخير الى حيث سلمه الى احد الفلسطينيين الذى أخفاه لمدة شهر .. ثم زوده بتصريح مرور زائف واصطحبه الى الحدود الأردنية ومن الأردن . استقل « اودى بيدلسون » الطائرة إلى القاهرة باسم مستعار ،

ورغم كل هذه النكبات .. حققت هذه الشبكة البارعة أهدافها ..

٥

مطاردة الجواسيس

تعاظمت الحرب السرية واشتدت حدتها بشكل لم يسبق له مثيل ، وكما عمد المصريون إلى دفع عملائهم فى كل مكان لجمع المعلومات ، بذل الإسرائيليون فى نفس الميدان،جهوداً دائبة اتسمت بالمغامرة وأحيانا بالتضحية بأشخاص عملائهم على خط يمتد من أديس أبابا جنوبا ، إلى فرانكفورت وباريس ولندن شمالا ، مروراً بالقاهرة .

ولكن أى نوع من المعلومات هذا الذى كان يتدفق على تل أبيب ؟

فعلى مدى تسع عشرة سنة، وهى المدة التى انقضت منذ ليلة اعتقال «ماكس بنيت » وحتى الليلة السابقة على حرب أكتوبر ، قامت إدارة مكافحة الجاسوسية فى القاهرة ، بتوجيه ما يقرب من تسعة وثمانين فى المائة ، من كل ما وصل إلى إسرائيل من معلومات ، سواء كانت عسكرية أو سياسية أو اقتصادية ، وكانت إدارة المعلومات فى المخابرات المصريه ، تزود ضباط إدارة مكافحة الجاسوسية ،

بتقارير محبوكة تشتمل على بيانات أعدت بعناية ، ليتولى العملاء الموضوعين تحت السيطرة؛ إرسالها إلى الرؤساء فى تل أبيب ، كما كانت مثل هذه المعلومات توضع فى طريق الجواسيس الفاشلين ، دون أن يتعرضوا لأى أذى ، وكان هؤلاء يفركون ايديهم مسرورين ، وهم يتلقفون موادا سهلة لعملهم ، من غير بذل أية جهود قد تؤدى إلى كشفهم .

وفى الحقيقة كانت إدارة مكافحة الجاسوسية تدبر مطاردة قاسية لا هوادة فيها ، لذلك العدد الوفير من العملاء الذين كانوا يعملون لحساب مخابرات إسرائيل ، كما كانت العملية كلها متسمة بالقدر المناسب من الحزم ، أما هؤلاء الذين تقدموا طواعية ، بدوافع وطنية ، ليكشفوا عن تفاصيل الاتفاق الذى عقدته معهم مخابرات العدو ، فكانوا يستقبلون بترحاب يوازى أهمية الدور المزدوج الذى كان يطلب منهم القيام به ، إذا رغبوا فى ممارسة اللعبة ، وفى بعض الأحيان تقدم بعض المواطنين بما لديهم من معلومات ، ولكنهم أبدوا مخاوفهم من الاستمرار فى اللعبة ، لعدم مقدرتهم على أداء هذا الدور بمهارة ، أو لعزوفهم عن العمل السرى أصلا ، وفى هذه الحالة ، كانت إدارة مكافحة الجاسوسية تنهى العملية على الفور .

ولا شك أن جهود مكافحة التجسس ، مدينة بفضل كبير لهؤلاء الوطنيين ، ولكن فضلا مماثلا يعود إلى رجال محطات الاعتراض اللاسلكية، والقائمين بالعمل فى مكاتب حل الشفرة ، الذين عكفوا على عملهم بجدارة وشغف، مما أدى فى النهاية إلى كشف مجموعة كبيرة من الجواسيس الذين آثروا العمل لحساب المخابرات الإسرائيلية، وإن كانت هذه الجهود قد بقيت فى طى الكتمان ، كأنها لم تبذل مطلقا .

فمثلا ، تمكنت احدى محطات الاعتراض اللاسلكية ، فى الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٦١ من التقاط رسالة لاسلكية صادرة من احد مراكز البث الإسرائيلية، وموجهة إلى عميل يمارس نشاطه داخل الأراضى المصرية واحيلت الرسالة إلى مكتب حل الشفرة ، ولكن أحدا لم يتمكن من جلاء غموض الرسالة ، وفك رموزها ، إلا فى صباح اليوم التالى .

ونقلت الرسالة داخل مظروف أحمر إلى إدارة مكافحة التجسس ، وأرفق

بها بيان بوقت استقبالها ورقم موجة الإرساله وبعض المعلومات الفنية الأخرى، وعند الظهر نشطت العربات المزودة بأجهزة الكشف اللاسلكية فى البحث عن جهاز العميل ، وفى ذلك الوقت، كانت هذه الأجهزة بدائية ولكنها حسنة الحظ، فرغم أنها كانت تعتمد على الرصد عن طريق ضبط زاوية الاتجاه فقط، إلا أنها وفقت فى الكشف عن عدد من العملاء يكفى لإصابة أى رئيس للجواسيس بالقشعريرة .

وربما كان اسوأ ما فى هذه المهام، ما كانت تصادفه عربة الكشف اللاسلكية فى المناطق التى تزدحم بالسفارات الأجنبية ، والمناطق التى تقوم فيها مراكز البث المصرية نفسها ، فهناك تختلط الاشارات اللاسلكية بعضها ببعض ويكثر الصفير والشوشرة بطريقة فوضوية تثير اليأس، ومع أن الوسائل الحديثة تبدو أكثر يسرا ، إلا أن عربة الكشف التقليدية ، بوجهها الذى يشبه وجه الغراب الأسود ، ما زالت تحتفظ بمكانة رفيعه لا سيما فى قلوب رجالها القدامى . .

وبعد ثمان واربعين ساعة من البحث المتواصل ، ابلغت عربة القيادة نبأ عثورها على الجهاز التعس ، وسجلت البيانات الخاصة بالاكتشاف الدسم على بطاقة سريعة ، وسلمت ارقام الموجات التى يبعث العميل رسائله عليها إلى القائمين بالعمل فى قسم الاستماع ، لمتابعة الاستماع إلى الرسائل وتسجيلها اتوماتيكياً وتستخدم هذه التسجيلات لإنعاش ذاكرة العميل فيما بعد، كما أنها ذات فائدة عظيمة، لاقناع القضاة عند ما يتقرر تقديمه إلى المحاكمة .



على الفارحى

وقد اتضح أن العميل شاب من مواليد مصوع يدعى على احمد الفارحى ، فى التاسعة والعشرين من عمره بادى الفاقة بارز العظام ، يدخن بشراهة ، وعلاوة على هذه الصفات كانت عيناه تدوران بسرعة كما لو كان لصاً تجد

الشرطة فى أثره ، وقد حصلت إدارة مكافحة التجسس على صورة واضحة له مع بيانات شاملة عنه ، من إدارة الجوازات والجنسية ، التى أفادت أنه وصل الى مصر فى أغسطس ١٩٦١ .

وظلت الرسائل المتبادلة بينه وبين تل أبيب تتردد فى أجهزة الاعتراض المختصة دون أن تفلت منها رسالة واحدة، كذلك أصبح هو شخصيا وكل من يتصل به ، هدفا لعيون المخابرات المصرية التى لا يغمض لها جفن ، وكان ضابط المخابرات الإسرائيلية القائم بتوجيهه يوقع رسائله بالاسم الحركى « أوليفر » ومن الغريب ان «أوليفر» هـذا لم يحاول تغيير الشفرة المستعملة فى الاتصال بعميله ، الأمر الذى يشكل انتهاكا صارخا لمبادىء الجاسوسية ، كما يعد غير مقبول على الاطلاق من وجهة النظر العلمية .

وقد ارتكب «أوليفر» حماقة مرذولة أخرى، إذ أرسل إلى عميله رسالة يكلفه فيها بالبحث عن أى مصور أجنبى بشرط أن يكون على صلة بشركة « كوداك » وتجنيده لقاء مرتب شهرى ، حتى يمكن ارسال الأفلام عن طريقه، وبعد وصول هذه الرسالة ، أفادت عيون المخابرات التى كانت تجد فى أثر العميل، أنه يبحث عن أحد المصورين مما أثلج صدور القائمين بحل الشفرة، إذ كان ذلك دليلا لا يتطرق إليه الشك ، على مهارتهم .

وكانت الضحية الجديدة سهلة المنال فعلا ، رجل إيطالى يعمل فى محل موريس للتصوير بالإسكندرية ، وتم الاتفاق بين العميلين على تهريب الأفلام ضمن الأفلام الملونة التى كانت ترسل إلى ألمانيا لتحميضها ، وكانت هـذه الأفلام تعفى من فتحها فى الجمارك حتى لا تتلف ، وأبلغ «أوليفر» بفحوى الاتفاق فعاد إلى ارتكاب حماقاته ، إذ رد على الرسالة بأنه قرر منح المصور راتبا قدره مائة وخمسين دولارا شهريا ، على أن يعمل تحت الاسم الرمزى «ماريو» .

ومن الرسائل المتبادلة عرفت المخابرات المصرية أن الايطالى الذى وقع عليه الاختيار يدعى «ريموند قسطنطين» فوضع تحت المراقبة .

وذات يوم شعر «أوليفر» بشوق مفاجىء تجاه الغواصات ، فأرسل

يطلب بعض المعلومات عنها، وأفادت المراقبة بأن «على الفارحى» قد وجد سبيله إلى ميناء الاسكندرية ولكنه لم يعثر على وسيلة تمكنه من دخول الميناء ، فاكتفى بالتسكع فى المنطقة القريبة ، وفى أمسية رقيقة النسمات ، عثر على بغيته ، التى لم تكن سوى بحار ثمل يحب أن يتحدث كثيرا عن نفسه ، وبسرعة ربطت الصداقة الحميمة بين الرجلين .

ومن المؤكد أنها كانت صدفة سعيدة تلك التى ساقت البحار الأبله إلى طريق العميل ، وبدلا من مخاطر التوغل فى الميناء ، قنع باللهو مع صديقه فى الحانات الرديئة الإضاءة ، وبالكرم الذى فطر عليه العملاء راح يغرق البحار النهم بالخمر الجيدة ، وكان الأخير ذواقاً للخمر تستهويه إلى أقصى حد مجالس الشراب ، كما كانت المعلومات الثمينة تنساب من بين شفتيه بصفة دائمة .

ولست فى حاجة إلى أن اذكر أن البحار السكير كان من ضباط المخابرات . وهكذا ، كانت المخابرات المصرية تقدم المعلومات مباشرة إلى العميل ، ثم تستمع اليه وهو يجترها بنفسه على الهواء ، وبعـــد ذلك تستمع إلى الرد الذى يبعث به «أوليفر» الغارق فى أحلام السعادة الوردية ،

واستمرت اللعبة الشيقة إلى أن اكتشفت إدارة مكافحة التجسس أن «على الفارحى» شرع فى ممارسة مهامه بطريقة خطرة وأن معلوماته تتجاوز حد الأمان، وهذا أمر لا يسمح به أى جهاز للمخابرات ، فصدرت الأوامر بالقبض عليه ، وفوجىء الرجل ذات يوم برجال مكافحة التجسس يطرقون الباب، ولم تكن هناك أية فرصة للمراوغة ، أو أى محاولة للانكار .

وقد اتضح أنه جند بوسيلة مبتكرة إلى حد مذهل ، وكانت هذه الوسيلة اعلان نشر فى جريدة الزمان الحبشية ، مجرد اعلان عادى عن طلب موظفين لشركة تأمين مقابل اجر عال ، بالاضافة إلى مصروفات نثرية وبعض المكافآت ، وتقدم عدد من الذين يبحثون عن عمل والذين يبحثون عن عمل أفضل ، فى الموعد والمكان المحددين فى الاعلان ، وتعرض هؤلاء لاختبارات متعددة تبدو

وكأنها روتينية ، وبعد دراسة كل حالة على حدة مع الاستفسار عن الظروف الإجتماعية والمالية واستقصاء الحالة النفسة وقع الاختيار عليه .

وفى مقابلة مع « المدير » المسئول ، فهم الشاب المتعطل أنه سوف يكلف بالسفر الى البلاد العربية ليؤدى عملا لحساب إسرائيل ، نظير أجر سخى ، وقد رحب بالفكرة على الفور ، وأبدى استعداده للسفر دون ابطاء ، ولا شك أنه كان يتضور جوعا لأن الأجر السخى الذى ارتضاه ، لم يتجاوز مائتى دولار أثيوبى شهريا ، أى ما يعادل ثلاثين جنيها مصريا .

وبصرف النظر عن الابتكار ، كانت هذه أول حادثة من نوعها ، فلم يسبق لجهاز مخابرات أن أعلن فى جريدة يومية عن حاجته إلى جواسيس ، ولكن الفكرة الرائعة إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن صاحبها كان شخصا ذا خيال عقيم .

ويبدو أن العميل لم يكن فى مستوى لائق أيضا ، فقد استمر تدريبه من يوليو ١٩٥٩ حتى يونيو ١٩٦٠ رغم أنه لم يتعلم سوى استخدام جهاز لاسلكى واحد بالاضافة إلى التصوير ، ولم يدرب على استخدام شفرات متعددة كما أن الشفرة التى درب عليها كانت من النوع البسيط غير المعقد ، ولم يتلق أى تدريب لاكتشاف المراقبة أو الافلات منها ، وأسفر هذا التدريب الضحل عن الطريقة البلهاء التى كان يمارس بها مهنته فلم يحاول مطلقا وفى أى وقت أن يتبع وسائل التضليل المعتادة ، فقد كان الرجل البائس جاهلا بهذه الوسائل جهلا تاما .

وكان لا بد أن تشتمل مهنة الجاسوسية ، إذا امتهنت فى ظل مثل هذا الضعف ، وفى مواجهة جهاز قوى مضاد ، كان لابد أن تنطوى على مواقف كئيبة وليست هذه المواقف إلا الاستماع الممل إلى مرافعة محام متحمس يستعرض بلاغته أمام القضاة ، ثم الاستماع الى الاجراءات الرسمية التى تتوالى فى قاعة المحكمة بشكل يثير الملل ، بعد ذلك يأتى دور رجل الدين المهذب الذى يتولى تبصير

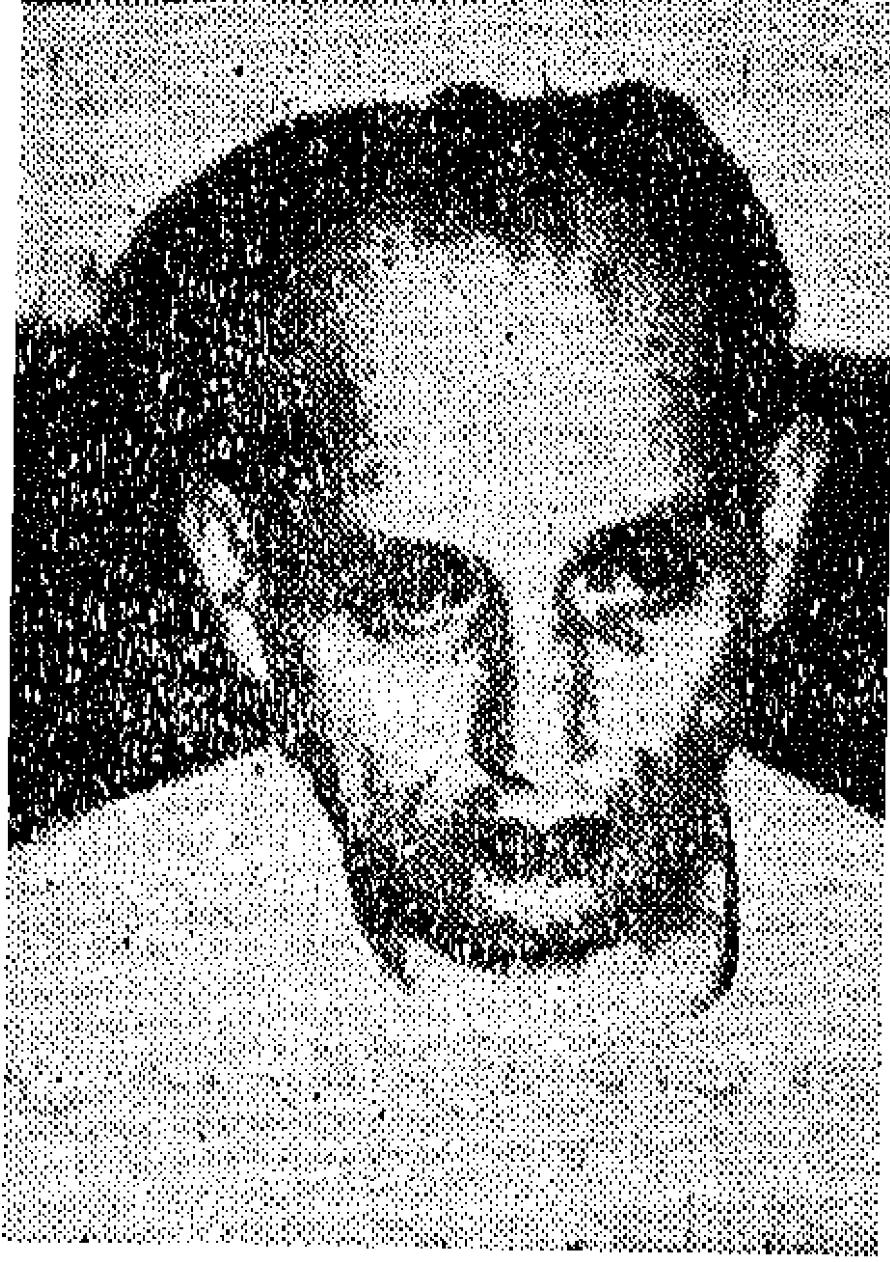
الضحية التى سقطت بالفوائد الجمة التى تعود عليه لو أنه اتجه الى السماء ، وأثناء الموعظة القصيرة يتململ اللحاد القابع فى أقصى أركان القاعة، ثم يتطلع إلى الساعة بضجر ، وقد يتثاءب ثم يتخذ مظهرا جادا ، وينهمك الرجل الموكل بالشنق فى اعداد الحبل والتأكد من متانته ، ولا شك أن الحبل نفسه يستحق قدرا كبيرا من التأمل ، شيء بجدول أصفر كما لو كان حزمة ثعابين يتأرجح ببطء فى انتظار رقبة اضافية ، بينما يبدو ظله على الجدار رهيبا ، ذلك إذا كنت تتأمل من مكان الضيوف، أما إذا كنت الشخص المراد شنقه ، فإن المسألة تتخذ أبعادا مأساوية لا يمكن تصويرها وقد كانت هذه اللحظات المروعة ، هى التى عاشها ذلك الرجل المدعو « على الفارحى » قبل اعدامه .

كذلك نجحت محطات الاعتراض اللاسلكية فى إمداد المشنقة بجواسيس آخرين ، جواسيس لم يكن من السهل اكتشافهم لولا الأصابع الخبيرة التى لا تكف عن إدارة مؤشرات أجهزة الاستماع ليل نهار ، والآذان المرهفة التى تنصت بإستغراق كامل بمجرد ضبط « أحدهم » وبعد ذلك تصبح العملية بسيطة — وربما روتينية — لا تحتاج الى أى مشقة .

ولكن المخابرات الاسرائيلية — ولا بد من الاعتراف بالحقيقة — تتمتع بقسط وافر من المرونة والتبصر ، فسرعان ما أدركت أن المصريين قد طوروا وسائل الكشف اللاسلكية ، وانهم يستخدمونها ببراعة ، لذلك لجأت إلى أسلوب يكتنفه التعقيد ، إذ كانت تدرب عملاءها على تلقى الرسائل ، عن طريق أجهزة الراديو العادية ، ثم يقوم هؤلاء بإرسال الردود كتابة ، مع استخدام وسائل الكتابة السرية ، وبالبريد العادى ، وكان هدف هذا الازدواج ، تجنب مخاطر الارسال اللاسلكى الذى أوضحت التجارب أنه يعرض العميل للاكتشاف .

اتبع هذا الأسلوب مع نموذج آخر من النماذج غير السارة ، وكان هذه المرة موظفا مرموقا من موظفى الحكومة المصرية ، يدعى عطية فهمى اسكندر، وكان

عطية هذا يؤدى عمله فى مدينة العريش عندما نشبت حرب ١٩٦٧ ، وأوقعه الحظ العاثر فى براثن الجيش الاسرائيلى ، ورغم أنه رجل مدنى كبير السن، إلا أن الاسرائيليين اعتبروه أسير حرب واقتادوه الى اسرائيل وهناك كانت الضحية ساذجة الى حد أن الاتفاق لم يستغرق وقتا طويلا ، ونصحه ضباط المخابرات الاسرائيلية بأن يلزم الصمت بعد أن يعود الى مصر ، ثم يتحين فرصة مناسبة ليسافر إلى باريس لوضع خطة العمل ، وابتكرت شفرة بسيطة لتحقيق التعارف مع من يلتقى به فى باريس .



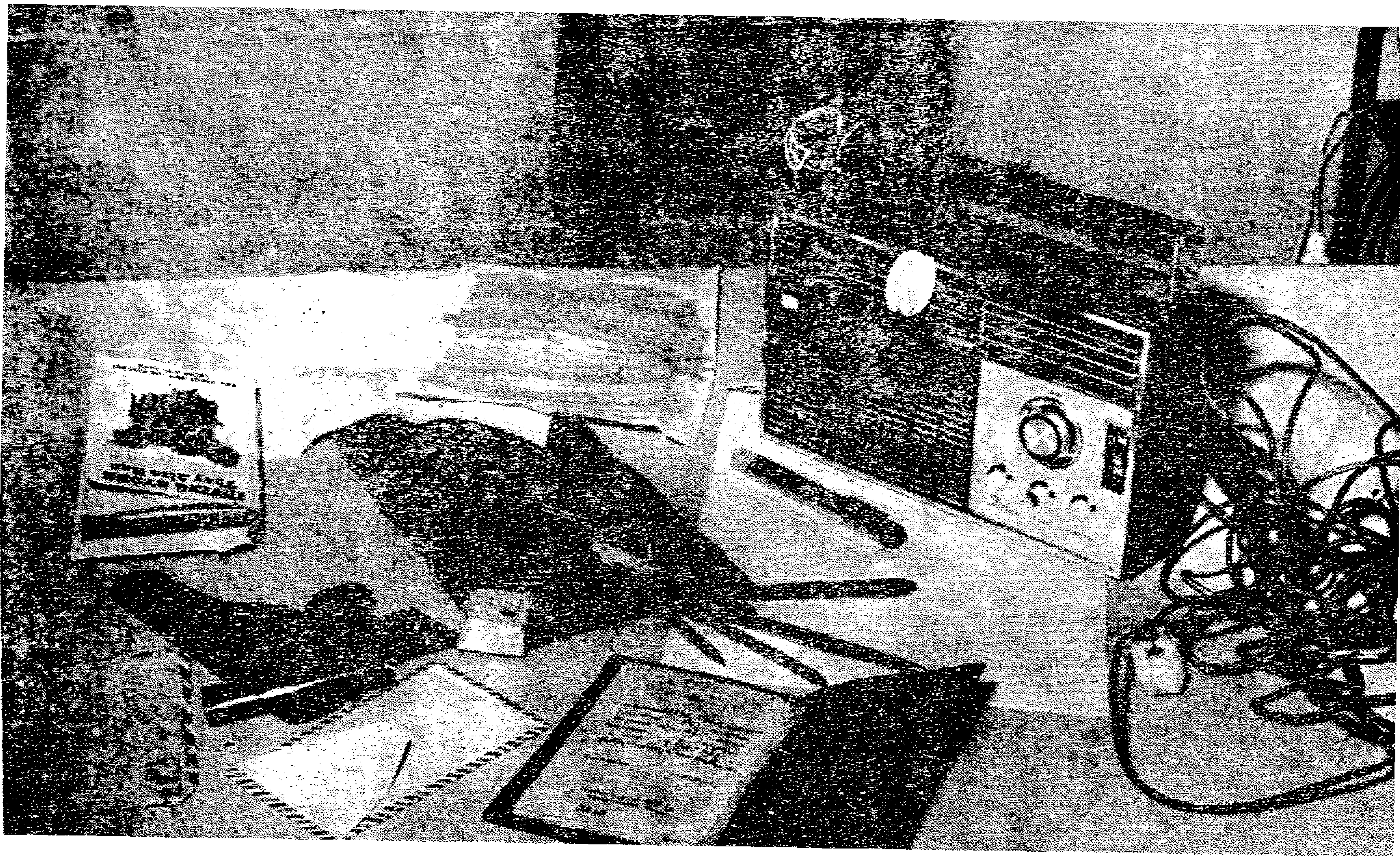
عطية اسكندر

حافظ العميل الذى تخطى الخمسين من عمره على كلمته ، وزعم أنه تمكن من الافلات ببساطة من الجيش المهاجم وقطع الصحراء شرقا الى الأردن ، ومن عمان استقل الطائرة إلى القاهرة ، قصة عادية كما أنها تبدو منطقية ولم تستوقف انتباه أحد ، وبقى الرجل خاملا حتى يوليو ١٩٧٠ ، وعندئذ سنحت الفرصة المرتقبة ، إذ سافر إلى باريس فى رحلة نظمتها جمعية الصداقة العربية ـ الفرنسية . وفى باريس تلقى تدريبا قصيرا ومركزا على تمييز الأسلحة وأدوات العبور ـــ وكانت هذه أول بادرة لاهتمام الاسرائيليين بأدوات العبور ـــ وكلف بأن يتلقى الرسائل عن طريق الراديو ، فى تمام العاشرة والنصف مساء أيام الجمع والآحاد ، وأن يرسل الردود على عناوين بأوروبا .

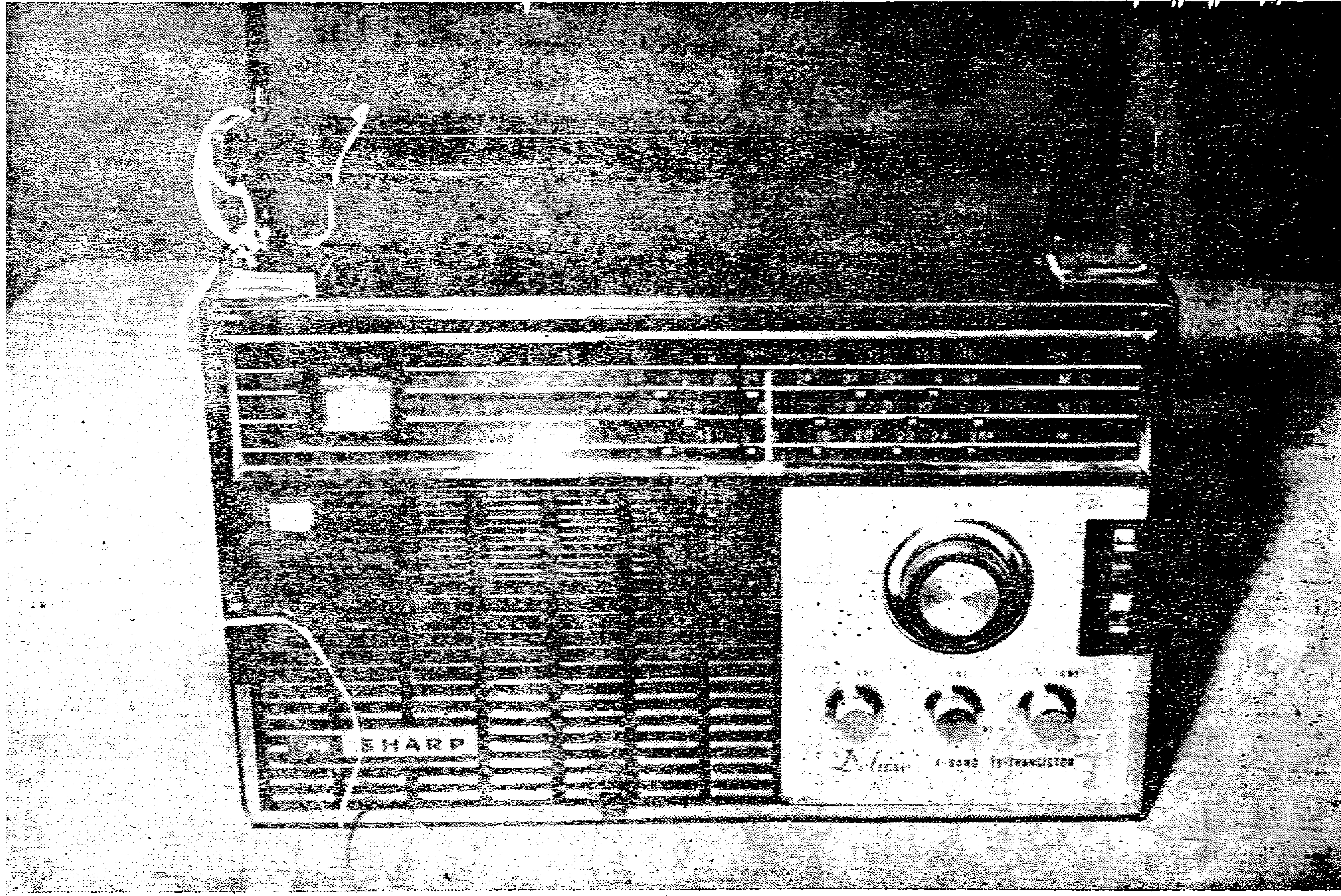
كان أول نبأ عن وجود « رسالة ما » فى الساعة الحادية عشرة من مساء ليلة الجمعة الأولى من مارس ١٩٧١ ، عندما أسرع شاب لامع من العاملين فى قسم الاستماع إلى مكتب الضابط المختص وفى يده ورقة خط عليها عددا من



عطيه فهمى اسكندر . أثناء الاستجواب



معدات الاستقبال والكتابة بالحبر السرى والطبنجة الألمانية التى ضبطت فى حوزة عطية اسكندر



جهاز راديو شارب موديف فائق الحساسية

الرموز التى تبدو وكأنها كتبت كيفما اتفق ، وأسفرت ملاحظة الرسائل الغامضة وتسجيلها بحرص بالغ لفترة تربو على ثلاثة أسابيع مع مقارنة مقاطعها عن جلاء غموضها ، وكان واضحاً أنها موجهة الى القاهرة .

وفى الأسبوع الاول من أبريل نشط رجال المخابرات فى اجراء تحرياتهم وأبحاثهم . فطافوا بجميع المحال التى تبيع أجهزة الراديو الحساسة .. وبعد اجراء عدد من المقابلات ، مع أصحاب هذه المتاجر المتناثرة ، أمكن العثور علـى صاحب متجر تذكر أنه باع جهازا من طراز «شارب موديف» 83 / 2 / 13 وقال الرجل ان المشترى كان يرغب فى شراء هذا النوع من الأجهزة الدقيقة بالتحديد ، ولكنه لم يتمكن من تذكر اسم المشترى وعجز عن تقديم وصف شامل لمظهره الخارجى كما أن تاريخ الصفقة كان مجهولا .

كان الرجل كهلا فى العقد السابع من عمره ، وقد اعتراه الارتباك عندما وجد ثلاثة من رجال المخابرات يحيطون بمكتبه ، ولكن ذلك كان حافزا لإنعاش قريحته ، فاقترح أن يقوم بمراجعة دفاتره ورقة ورقة ، ولحسن الحظ استطاع أن يعثر بعد جهد مشكور على صورة الفاتورة التى حررها وقت البيع وكانت الكلمات باهتة ولكنها مقروءة ، وبعد أن نقلت بيانات الفاتورة بدقة ، غادر الرجال الثلاثة المكان مودعين بعبارات التحية ، وما أن وصلوا الى عنوان المشترى حتى حدث أمر غاية فى الغرابة ، إذ اتضح أنه قد سجل اسمه وعنوانه الحقيقيين .

حتى هذا الاجراء كانت المسألة ما زالت فى طور الحدس والتخمين ، فليس كل من يشترى جهازا حساسا للاستقبال ينوى التجسس ، ولكن المتابعة القريبة ــ جدا ــ أثبتت أن الجهاز لا يستقبل الاغانى المرحة وحدها ، ورابط أحد رجال المخابرات بطريقة خفية أمام البيت ، حتى إذا ما شاهد العميل خارجا الى الطريق اقتفى أثره .. وكشفت المطاردة أن الرجل لاتساوره الظنون فى أن أمره افتضح ، واتخذت اللعبة بعد ذلك مسارها المعهود .

وطوال اثنى عشر شهرا كانت ادارة مكافحة الجواسيس تدس المعلومات التى تراها مناسبة الى تل أبيب ، بينما الجاسوس الأحمق يواظب على وضع رسائله بعناية فى صناديق البريد . وبعد أن استنفدت هذه الادارة أغراضها ، داهمت بيته ذات ليلة . وانتهت قصته أيضا تحت ظلال ذلك الحبل الذى ذكرناه آنفاً .

وفى هذه اللجة المضطربة من الحيل والأساليب الملتوية، لجأ الاسرائيليون الى إستخدام حيلة ذكية تنطوى على قدر كبير من الدهاء والفطنة ، وكان عميلهم فى هذه الارة مصورا صحفيا دائم السفر وقد انتهجت المخابرات الاسرائيلية فى الاتصال به خطة لا تعتمد على أى نظام من نظم التراسل المعروفة فى دهاليز الجاسوسية المضادة ، بل كلفوا عميلهم بأن يلتقط الصور التى يحددونها ، ثم يضع الأفلام دون تحميض فى مظروف معتم ويدسها فى جيبه.

وكانت براعة هذه الوسيلة . تكن فى أن الأفلام تفســـد بمجرد تعرضها للضوء العادى ، فإذا ما حدث أن قبض على العميل فإن أول اجراء يتخذ.. وهو فحص الأفلام بالعين المجردة ..سوف يؤدى الى ضياع الدليل على ادانته حتما.

وقام العميل وهو يدعى منير عبد الغنى بتنفيذ مهمته على خير وجه. وفى الساعة الثانية بعد ظهر الثامن والعشرين من نوفمبر ١٩٦٨ دخل كمسافر عادى الى صالة المسافرين فى مطار القاهرة ،وبعد أن أنهى اجراءات التفتيش الجمركى اتخذ مكانه فى هدوء على مقعد وثير فى انتظار طائرته.



منير عبد الغنى

كان المكان يعج بالمسافرين وعمال المشرب وموظفى شركات الطيران ، كما كان هناك رجلا يرتدى سترة من الجلد جالسا فى أقصى مكان من القاعة ويبدو غارقاً فى أفكاره الخاصة . وبعد دقيقة من الهدوء نظر الى الناحية الأخرى حيث كان رجل آخر يرتدى معطفا دس يديه فى جيوبه . وبخطوات رتيبة بدأ الإثنان فى الحركة معا فى اتجاه الصحفى الذى كان يهم بإشعال سيجارة .. وفجأة لمس ذلك الذى يرتدى سترة من الجلد كتف الصحفى وأشار اليه أن يتبعه .

ودون أية ضجة ، اقتاد الرجلان ضيفهما الى حجرة جانبية من غرف حرس المطار ، وهناك أعربا له عن أسفهما لأنهما ينويان اتخاذ اجراء غير مستحب بناء على بلاغ تليفونى ، وظن الجاسوس المبتدىء أنه أمام رجال مكافحة التهريب فقلب جيوبه عن طيب خاطر ، وفى نفس الوقت أخذ فى إلقاء موعظة بليغة عن مكانته الصحفية وكرم خلقه، إلا أن أحد الرجلين قطع الموعظة وسأله عن المظروف وهو يقلبه بين أصابعه . وعلى الفور زعم الجاسوس أن المظروف لا يحتوى الا على بعض الصور السياحية ، وأبدى استعداده لفتح المظروف وعرض محتوياته أمام أعين الرجلين.

ولكن الرجل الذى كان يرتدى المعطف كان فظا قاسى القلب إذ رفض أن يفتح المظروف واكتفى بأن صحب الضيف الى خارج المطار ، وهناك كانت تقف عربة صغيرة بينما جلس فى مقعد القيادة رجل تنذر ملامحه بشر مستطير .

وفى مبنى المخابرات تم فتح المظروف داخل غرفة مجهزة لفحص الأفلام وهناك اتضح ان الصور السياحية تشتمل على عدد من المناظر الطبيعية الخلابة . ولسوء الحظ تصادف وجود بعض المعدات العسكرية أثناء التصوير فظهرت فى الصورة ، وكان الرجل ماهراً فى التقاط الصور الى درجة أقنعت القضاة بأن هذا المصور الصحفى البارع، يستحق منحه فرصة نادرة لكى يمارس هواية التصوير بحرية تامة فى العالم الآخر ..

وليس ثمة شك فى أن هذه النماذج من العملاء ، توضح الى أى مدى كانت المخابرات الإسرائيلية تمضى فى محاولة الحصول على المعلومات، وبرغم أن جواسيسها كانوا يتخذون أبرع وسائل التغطية لممارسة مهمتهم إلا أنهم . . ظلوا يتساقطون باضطراد واحدا بعد الآخر، وكان المصريون يعلنون أحيانا عن سقوط أحدهم ويتكتمون فى معظم الأحيان ضرباتهم الناجحة . . وأدى هذا الأسلوب الى التخبط الذى ساد أروقة ادارات الخدمة السرية فى تل أبيب . ذلك التخبط الذى بدا فى أوضح صوره فى الأيام التى سبقت حرب اكتوبر مباشرة .

لم يكن الإسرائيليون على ثقة من بقاء أى من جواسيسهم على قيد الحياة، كما أن الإشارات التى كانوا يستقبلونها حملت معها دائما مظنة أن تكون المخابرات المصرية هى التى تتولى ارسالها ، وكانت التجارب التى أظهرتها «معارك الجواسيس» تثبت يقينا أن المصريين لا يتبعون أسلوبا محددا ، بالاضافة الى مقدرتهم الهائلة على تصيد الجواسيس حتى لو كانوا فى حماية المخابرات الإسرائيلية ذاتها ، وكانت هناك حادثة تؤكد الحقيقة الأخيرة بشكل لا يقبل النقاش أبداً .

ففى يوليو ١٩٦٧ ، قرر الفرع الخاص بأعمال التخريب ، وهو ما يعرف بالفرع الرابع ، انشاء منظمة سرية وقوية ، يكون واجبها الأساسى إلحاق أكبر قدر من الدمار بالمنشآت الدفاعية الإسرائيليـــة فى الأرض المحتلة مع توجيه الضربات القاصمه الى طرق ووسائل المواصلات، على أن يأتى جمع المعلومات فى مرتبة ثانوية ، وقد عرفت هذه المنظمة علناً باسم منظمة سيناء العربية .

وفى منظمة تضطلع بالخدمات السرية ، كان لا بد من اخفاء اسم الرئيس . وقد مضت خمس سنوات قبل ألتقى بذلك الرجل الذى حمل فوق كاهلة مسئولية قيادة وتوجيه جيش هائل من العملاء ، يعمل خلف خطوط العدو، كما كان يتحمل مسئولية امداد جيشه بالأسلحة والمفرقعات والذخائر، وأجهزة الاتصال اللاسلكى وكانت المهمة الشاقة متعددة النواحى إلا أن الرجل كان جديرا بها

وفى البداية كانت العقبات تتوالى بشكل يدعو الى النكوص ، فلم يكن فى الفرع الرابع أية أجهزة لاسلكية إضافية . كما أن الأسلحة كانت غير كافية . وكان كبار الضباط يضيقون ذرعا بالمطالب التى بدت خيالية ، ولكن الجهود الحماسية تضافرت مع القدر المناسب من الاصرار ، وأمكن فى النهاية تدبير الاحتياجات عن طريق استعارتها من بقية الأفرع . وحتى هذه اللحظة مازالت بعض الأدوات التى تستخدمها المنظمة تنتمى إلى أفرع وأقسام ذات مهام مغايرة .

حتى إذا جاء شهر سبتمبر كانت المنظمة قد أستقرت فى شكل متين وصلب وأصبح لرئيسها إثنان من النواب . وكان كل منهما يقيم لفترة ما فى مقر قيادة المنظمة فى سيناء ، أما فى القاهرة ، فكان مقر الرئيس مكتباً متواضعا من الخشب وسط حديقة متهدمة فى ضاحية نائية . وجاء المتطوعون من كل أنحاء الأرض المحتلة . ومن كل نواحى الحياة : مدرسون وقصابون ومهندس وإسكافى كذلك جاء عدد كبير من الطلاب ملتهبي المشاعر ، وما أن حل شهر نوفمبر حتى تبدلت الامور بحدة ، ولم تعد الجبهة مقصورة على تلك الخطوط الملونة الموضحة على خرائط الأركانحرب ، بل غدت منتشرة فى كل مكان تقريبا .

وفى أول مقابلة للرئيس مع طلائع منظمته أوضح الرجل لجنوده المهمة الشاقة التى كان يصبو إلى تحقيقها ، يجب أن تنتشروا فى المناطق التى يحتلها العدو ، ويجب أن تنسفوا الطرق والجسور والمواصلات التليفونية والبرقية .. وسوف نشعل الحرائق فى المستودعات وقطارات السكك الحديدية ، ولأنى أعرف أنكم تؤيدونى فى خلق ظروف لا يطيقها العدو ، أطلب منكم أن تطاردوه وأن تقضوا عليه .

كان الرجل يتحدث إلى جماعة من المدنيين فى ملابس مدنية متنوعة ، قوم من مختلف المهن والمشارب قبل أن يتولى تدريبهم وإعدادهم ، ولكنه كان نابغا حقا فى عمله ، قديرا على تنفيذ واجبات المخابرات الهامة ،

وكما تغلب على العقبات التى يبدو أن لاغنى عنها فى عمل المخابرات .. ضعف الميزانية وقلة عدد الموظفين وغير ذلك من أوجه النقص ، تغلب أيضاً على مشاق التدريب ومتاعب خوض الحرب بهذا الخليط الغريب من الجنود .

وكان على المنظمة القيام بمهمتها فى ظل ظروف معقدة أيما تعقيد .. فكانت الإمدادات تصل اليها عبر طرق ملتويه محفوفة بالمخاطر ، وكان عليها أن تحصل على الوقود اللازم لصنع زجاجات مولوتوف من مستودعات العدو نفسه .. أما القنابل اليدوية والصواريخ وما شابه ذلك من أسلحة الحرب . فكانت تلقى بالمظلات فى الليالى الحالكة الظلمة ، كذلك كان عليها تدبير الوسائل لإخفاء رجالها فى صحراء مكشوفة تتجول فى سمائها الطائرات الإسرائيلية بصفة دائمة ، وأن تحيط عملياتها بدرجة من السرية ، وصلت إلى حد أنها كانت تشعر بالرضى عند ما يتكتم العدو أنباء الضربات الموجعة التى وجهتها اليه .

كانت حرباً خيالية من جميع جوانبها .. قتالا متصلا ضد الجيش الإسرائيلى وضد المخابرات الإسرائيلية وضد الشرطة الإسرائيلية ، جهاداً طويلا يوما بعد يوم مع عذاب ومعاناة لا تدخل فى نطاق العقل ، وموت يترقب الإنسان فى كل مكان وفى كل لحظة . وقد مرت بالمنظمة عدة تجارب تتسم بالتعاسة والفخر .. وسجلت انتصارات مذهلة كما قاست هزائم يقشعر لها الرأس ، وفوق ذلك كان عليها أن تقاوم الشباك والأخطار التى كانت تنجم عن الخيانات والجشع ووشايات عملاء المخابرات الإسرائيلية .

فى عام ١٩٦٩ تلقت المنظمة عدداً من الهدايا الكئيبة ، إذ سقط بعض من رجالها فى قبضة العدو بطريقة غامضة ، وداهمت الشرطة الإسرائيلية بيوت أعضاء كثيرين واقتادتهم إلى التحقيق والتعذيب والموت دونما سبب ظاهر . وفى النهاية نصبت دورية إسرائيلية كمينا لمجموعة من رجال المنظمة — وهم فى طريق

العودة — بعد غارة ناجحة على مطار للعدو ، وأعدم الرجال في الصحراء رميا بالرصاص من غير محاكمة .

وانتاب رئيس المنظمة أسى عميقا وهو يشهد نهاية جهوده التي كان يتذوق ثمارها ، فقرر أن يطير بنفسه إلى سيناء ليتعرف على المشكلة في الميدان.. وأرسلت إشارة لاسلكية لمجموعة من الرجال لتنتظر وصول طائرته في بقعه من الصحراء ، ولكن الطائرة ظلت تحلق في الجو دون أن يظهر للرجال أثر، وكان غيابهم نذير شؤم فعاد الرئيس أدراجه وهو يتميز غيظا .

واتضح فيما بعد أن المجموعة التي كان من المفروض أن تكون في استقباله قتلت وهي في الطريق إلى المنطقة المحددة لهبوط طائرته ، وعلى الفور صدرت الأوامر بوقف نشاط المنظمة نهائيا . . على أن يخفي الأعضاء أسلحتهم بأسرع ما يستطيعون مع فرض الصمت الكامل على أجهزة اللاسلكي ، ثم كلف إثنان من ضباط المخابرات بالسفر إلى سيناء لإجراء تحقيق شامل والبحث عن أسباب النكبات الأخيرة المتوالية .

ورأى أحد الضباط أن أقصر طريق لبلوغ الهدف الذي جاء من أجله،هو الإتصال بأي من أعضاء المنظمة المقبوض عليهم والذين كانوا على قيد الحياة . . وتمكن بالفعل من إيجاد وسيلة لتمرير ورقة مكتوبة إلى أحد السجناء ويدعى محمد سليمان العنديري ، وكان السجين يحتفظ في بيته برشاشين مصريين ، وذات ليلة داهمت الشرطة الإسرائيلية البيت ، وأتجه رجالها مباشرة إلى المخبأ . . واقتادوا الرجل ورشاشيه إلى السجن .

كانت قصاصة الورق صغيرة في حجم طابع البريد . . ومع ذلك دفعت المخابرات المصرية رزمة من النقود لكي يتولى أحد الحراس الإسرائيليين وهو رجل جشع — من أصل تونسي — توصيلها إلى السجين والعودة بها مرة أخرى وكانت الورقة تحوي سؤالا واحداً ، من الذي كان يعرف مكان

الرشاشين؟ ولكن السجين لم يجد وسيلة للكتابة ولم يعد الورقة إلى الحارس مرة أخرى .

واتخذ السجين الذكى طريقاً مبتكراً للادلاء بإجابته ، فكان يقترب من نافذة زنزانته ثم يصرخ بأدعية وتراتيل وصلوات مختلفة ، وبين مقاطع الأدعية كان يردد اسم الرجل الذى وشى به ، على الموجى ؛ وتمكن ضباط المخابرات من التقاط الاسم بسهولة ، ونشطوا على الفور فى جمع معلومات وافية عن « على الموجى » هذا ؛ وكانت تحرياتهم ناجحة .

كان رجلا فى حوالى الأربعين أشبه بالشرير فى الأفلام السينمائية ، غريب الأطوار شغوف بالنساء سكير يدخن المخدرات ، وكان صديقاً حميا لمن يدعى حاييم أبيب ضابط المخابرات الإسرائيلية فى مدينة العريش ،كذلك أفاد تقرير آخر أنه نزح إلى سيناء سنة ١٩٥٧ حيث عمل مع قوات الطوارىء الدولية. وأن زوجته أجبرت على العودة إلى القاهرة بعد أن ضاقت بمساوئه ، أما هو فتزوج للمرة الثانية بواحدة من عائلة « البيك » الشهيرة فى العريش ، كما اتخذ لنفسه عشيقة فلسطينية تدعى « فاطمة » وجاء فى تقرير ثالث أنه استولى على محتويات منزل محافظ سيناء تحت حراسة جنود الاحتلال .. كما أن لديه تصريحا لدخول المعسكرات الإسرائيلية .

وحرر ملخص واف لكل هذه المعلومات وأرسل إلى القاهرة وقام الفرع الرابع بعرض الملخص على المدير شخصياً الذى قرأ المذكرة باستغراق كامل ثم ابتسم ابتسامة باهتة وكتب فى ذيل التقرير بالحبر الأحمر كلمتين :

ـــ أريده حياً ..

وعلى الفور بدأ ضباط الفرع الرابع فى دراسة ظروف العميل :الأماكن التى يتردد عليها ونقط الضعف فى شخصيته، واتضح أنه يقيم بالقرب من شاطىء البحر فى مسكن مجاور لمبنى تعمير الصحارى وسط مساكن المهندسين،وأنه مسلح

برشاش أتوماتيكى ويستخدم دراجة بخارية فى تنقلاته .. كما أنه حذر لا يبقى فى مكان واحد لفترة طويلة ، وكان رئيس منظمة سيناء يتحرق شوقا لتصفية حسابه مع العميل الذى وشى بخيرة رجاله وألح على أن يتولى أمره بهدوء ولكن كانت الأوامر صريحة بإحضار العميل التعس حيا إلى القاهرة .

واستقر الرأى على أن الوسيلة المثلى لتنفيذ العملية ، تتطلب غواصة لنقل ثلاثة من الضباط إلى نقطة قريبة من شاطىء العريش ؛ ثم يتولى الضباط الثلاثة مهمة مهاجمة العميل واجباره على مصاحبتهم تحت تهديد السلاح إلى الغواصة .. وكانت الخطة جريئة كما كانت شائكة .

وأثناء هذه الدراسات المعقدة وقع أمر لم يكن فى الحسبان .. إذ أقدمت المقاومة الفلسطينية على اختطاف فاطمه .. ويبدو أن العشيقة كانت تعمل هى الأخرى فى أنشطة مشبوهة ؛ لأن الفدائيين الفلسطينيين أنهوا حياتها القذرة بشكل وحشى فى الصحراء .. ولم يتمكن الاسرائيليون من العثور على جثتها . وبعد هذا الحادث المفزع نقلت المخابرات الإسرائيلية مسكن عميلها إلى داخل المدينة ، وكان مسكنه الجديد مجاوراً لمكتب البريد ، الأمر الذى أدى إلى إعادة النظر فى خطة اختطافه برمتها .

وأدخل تعديل جوهرى فيما يتعلق برحلة العودة .. وقرر الضباط أن الرحلة من مكتب البريد إلى شاطىء البحر يكتنفها الخطر ، كما لم يكن من الحكمة استبقاء الغواصة لوقت طويل بالقرب من الشاطىء ، وعلى ذلك استقر الرأى على أن تتولى الغواصة نقل الرجال الموكلين بعملية الاختطاف فى رحلة الذهاب وحدها وكان عليهم بعد ذلك أن يتسللوا إلى مسكن فريستهم ثم يعودوا به عبر الصحراء المكتظة بالدوريات الإسرائيلية ، وبدون أى إبطاء سيراً على الأقدام .

وأبدى ضباط البحرية عجبهم عند ما طلب إليهم أن يبحثوا إمكانية إعارة غواصة للفرع الرابع ، وكان جوابهم الرفض القاطع على الطلب الذى لم يسبق له نظير من قبل ، ولكنهم رحبوا بتقديم خدماتهم وبأسلوبهم الخاص بهم



على الموجى

التقطت هذه الصورة لحظة وصوله الى الشاطىء

وهكذا قذفت غواصة تشبه سلحفاة البحر ثلاثة رجال من فتحات الطوربيد في ليلة شديدة البرد أمام مدينة العريش . . وتلمس الرجال الثلاثة طريقهم داخل المدينة إلى مكتب البريد .

وفي نفس الوقت استدرج أحد أعضاء المنظمة ، الفريسة الشهية لكي تخرج من مكمنها . . وكان رجل المنظمة بارعا بقدر ما كان العميل غبياً ، إذ أقنعه بأن المنظمة تخفي جزءاً كبيراً من أسلحتها في المقابر ، وأنه موكل بحراسة ترسانة الأسلحة هذه . . وأبدى العميل رغبة عارمة في مطالعة الأمر بنفسه قبل أن يبلغ رؤساءه ، وأخذ رجل المنظمة ينتحل المعاذير إلى أن حانت اللحظة الحاسمة فصحبه إلى هناك .

كان الضباط الثلاثة يقتفون أثر الرجلين في شارع علي بن أبي طالب ، ولفت وقع خطواتهم نظر الجاسوس الحذر فامعن البصر ، ولكنه شعر بالارتياح وواصل السير ، فقد كان الرجال الثلاثة يرتدون الزي الرسمي لجيش الاحتلال وعلى مشارف المدينة انقض الرجال الأربعة على العميل واقتادوه أمامهم .

وبعد أن قطعت المجموعة مسافة عشرين كيلو متراً ، رأى أقدم الضباط أن من المناسب قضاء بعض الوقت في الراحة ، وأن يشرح للأسير الفوائد الكثيرة التي تكمن في أطاعة الأوامر ، حرصا على سلامته الشخصية ، وكان العميل مراوغا فتظاهر بالإستسلام ، وأقترح أن يحتسي الفريق شراباً ساخناً احتفالا بهذه المناسبة السارة ولما أشعلوا النيران في شيء من القش الجاف ، ووضعوا فوقها علبة فارغة من علب الطعام المحفوظ ، استغل الضيف اللئيم فرصة انشغال أحد الضباط بسكب الماء من زمزميته في العلبة وأنهاك ضابط آخر في إستخراج الشاي والسكر من ربطة كانت فوق ظهره ، وقذف في وجوههم بحفنة من القش المشتعل ثم لاذ بالفرار .

وفي غضون دقائق كان الرجل أسيراً للمرة الثانية ، وخرج من المطاردة بذراع مكسورة وأصابة جسيمة في عينه اليسرى كما انغرست أسنانه السفلى في

شفته العليا بشكل مضحك ، وتقرر أن يستمر الرجال فى إعداد الشاى كأن شيئاً لم يعكر صفوهم ، وتقرر أن يحرم العميل من تناول نصيبه ، وأن يحرم أيضاً من الراحة إلى أن يصل القاهرة .

ولابد من الاعتراف بأن العميل البائس عانى عذابا رهيبا فى رحلته نحو الغرب ، وطوال الطريق الشديد الوعورة لم يكف عن التوسل ؛ لكن سابقته فى بداية الرحلة لم تكن مشجعة ، لذلك رفض الرجال الإجابة على توسلاته واكتفوا بحثه على التقدم ؛ وفى بعض الأحيان كان الرجل يلقى بنفسه على الرمال متظاهراً بالإغماء ، ولكن نظرة واحدة إلى وجوه الرجال الصلدة ، كانت تكفى لكى ينهض مسرعا ويواصل السير فقد كان رجلا متهالكا تحت رحمة أربعة من العمالقة .

كذلك أحدث الإرهاق والتخفى عن عيون الدوريات الإسرائيلية أثراً بالغا فى نفوس الرجال ، وفى كهف رطب على مسيرة يوم من شاطىء خليج السويس ، أقترح أصغر الضباط سنا أن يتخلصوا من هذا الخنزير الكريه الرائحة ، بدلا من التحرك ببطء فى أعقابه ، وكان الاقتراح وجيها ولكنه كان مرعبا ، إذ راح « الخنزير » يتفرس فى وجوه الرجال الأربعة ، وكانت عيونهم تقدح بالشرر ، كما كانت آثار المعركة المباغتة التى دارت حول النيران بالقرب من العريش واضحة على شكل حروق ملتهبة فى وجوههم ، ولكن قائد المجموعة رفض الاقتراح ثم رمق أسيره بنظرة حانقة وأعلن أنه لن يسمح بقتله .

ووصل الركب فى النهاية إلى شاطىء خليج السويس ، وخوفا من يطلق صيحه إستغاثة قد تصل إلى آذان وحدات الحراسة الإسرائيلية المتناثرة على الشاطىء ، تولى أحد الرجال تكميم الأسير مع تنبيه رقيق بالنهاية الحزينة التى قد تنجم عن لفت الانتباه بأية وسيلة ، ووسط ظلمة الليل أرسل قائد المجموعة إشارة ضوئية غامضة ، ومن الشاطىء الغربى جاءة الجواب إشارة غامضة أخرى ، وأنطلق قارب من المطاط عبر مياه الخليج ليعود بالرجال وأسيرهم .

وأدت أعترافات « على الموجى » إلى رسم صورة دقيقة لأساليب المخابرات الاسرائيلية فى الأرض المحتلة ، كما كشفت عن شخصيات عدد من ضباط المخابرات الاسرائيلية الذين كانوا على صلة به ، وأدرك العملاء الذين كانوا فى خدمة المخابرات الاسرئيلية ، أن ذراع القاهرة تمتد إلى مسافة بعيدة ، لتقبض بشراسة وقسوة على اعناقهم .

وفى السابع من فبراير ١٩٧٠ ، بعد وصول العميل بخمسة أيام أعيدت منظمة سيناء إلى الحياة من جديد وقام رجالها فى مدى ستة أشهر بتدمير مايقرب من ثمانمائة طن من الذخائر ، وألف كيلو متر من الطرق والجسور والسكك الحديدية كما القوا على دوريات العدو آلاف القنابل اليدوية ، واطلقوا مائة وأربعين صاروخا مضاداً للدبابات ، كما قتلوا مئات من جنود جيش الاحتلال ، فقد كانوا على حد تعبير قسم مخابرات سيناء التابع لمنظمة « شاباك » طغمة من المسعورين الاشرار الذين لايتورعون عن ارتكاب أية جرائم ، وفى أى وقت ، بكل أنواع الأسلحة التى تصل إلى أيديهم .

ومع ذلك لم تكن هذه النماذج وحدها هى التى سقطت، كانت هناك حالات نادرة وضع المصريون أيديهم عليها رغم أن الاسرائيليين لم يستخدموا خلالها أية وسيلة من وسائل نقل المعلومات . . لا أجهزة لاسلكية ولا رسائل مكتوبة ولكن العميل كان يكتفى باختزان المعلومات ثم يسافر إلى الخارج حيث يفرغ ما لديه دفعة واحدة ، واستلزمت عملية المطاردة مزيداً من الإجراءات المعقدة والباهظة التكاليف لكشف هذا الطراز أيضاً فوضعت أوكار المخابرات الاسرائيلية المنتشرة فى أقطار الأرض تحت الرقابة المباشرة ، ابتداء من غرفة عادية الأثاث فوق بار فى ميدان رودلف أشهر ميادين كولون فى ألمانيا الغربية . . إلى بيت سرى ذا باب حديدى فى «دسلدورف» ، ثم إلى قاعة الاستقبال فى فندق ستار الباريسى ، وأيضاً شقة من غرفتين فى امستردام ، وقد أثمرت هذه الرقابة بشكل يدعو إلى الدهشة فعلا .

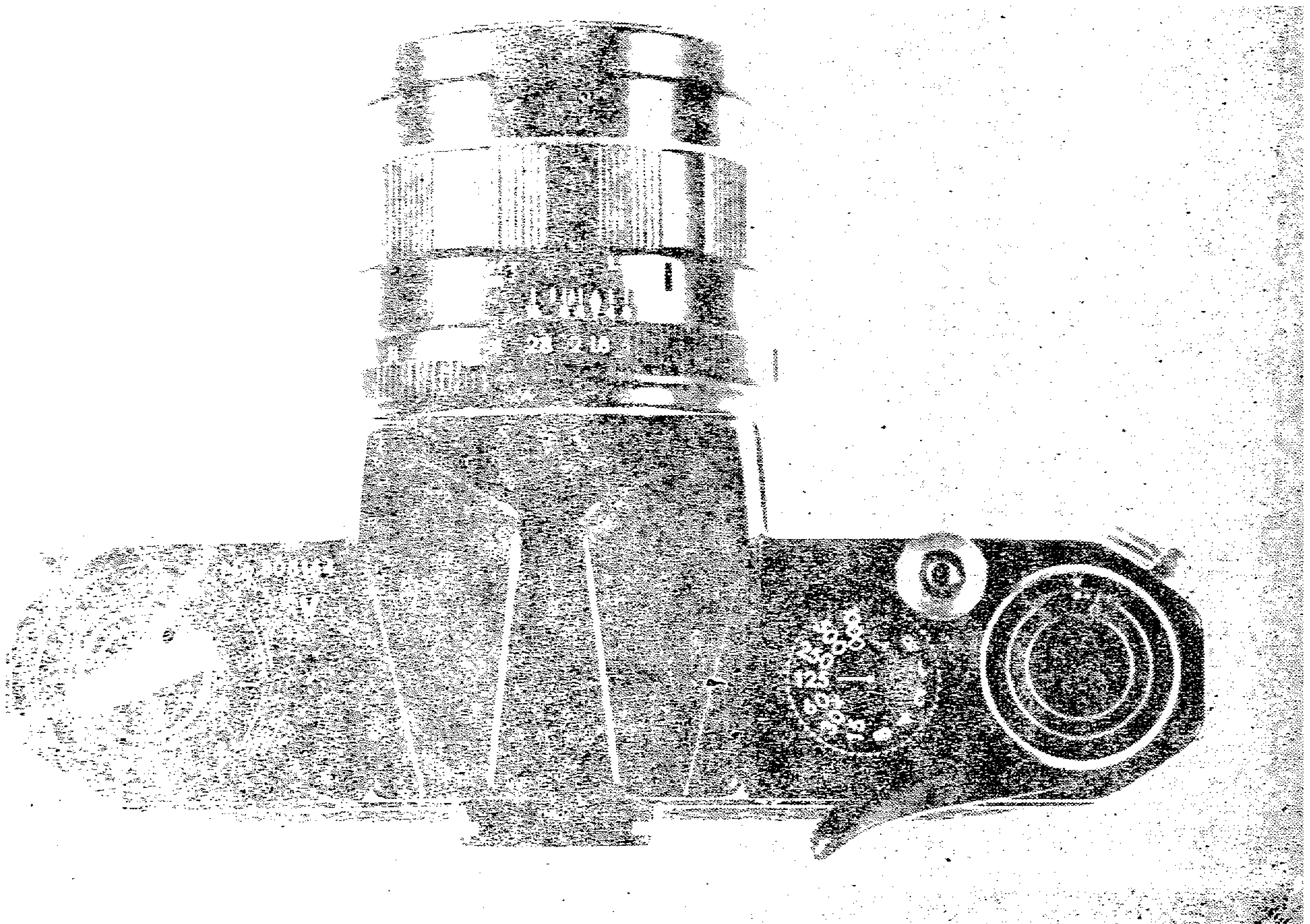
فى قاعة استقبال فندق « ستار » كان موظف الاستقبال يهودياً من مواليد بور سعيد ومن عملاء المخابرات الإسرائيلية . . وكشفت مراقبته ذات يوم عن صداقة حميمة ربطت بينه وبين شاب مصرى يدعى « بهجت حمدان » وعلى ذلك وضع الأخير تحت الرقابة على الفور ، وكانت القصة مثيرة كما هى العادة دائماً . .

سنة ١٩٥٥ أرسله والده إلى ألمانيا الغربية ووضع أمكانياته المتواضعة فى خدمته آملا فى تحقيق حلمه أن يكون له ابن صالح ومثقف ولكن الابن مالبث أن جذبه تيار الفتنة والإغراء واندمج مع عناصر فاسدة من الطلبة والفتيات ، مما أثر على دراسته التى استمرت حتى ١٩٥٨ وانتهت بفشله فى الحصول على المؤهل المنشود .


بهجت حمدان

خلال تلك الفترة — وأنا أنقل من واقع سجلات المخابرات — تزوج من فتاة تدعى « انجريد شوالم » وتمكن بوسائل غير مشروعة من الحصول على شهادة تثبت آداءه لامتحان المشروع العملى لنوع من دبلومات الهندسة ، وعاد إلى القاهرة تصحبه زوجته ، وألحق على الفور بوظيفة لائقة فى الهيئة العامة لمشروع السنوات الخمس ولكنه كان مثلا سيئاً للموظف المرتشى والمستهتر حتى وصل به الأمر إلى أن أطلع بعض أصحاب الشركات الألمانية على أسرار خاصة بالعروض والعطاءات التجارية فى نظير مبالغ ضئيلة ، وهكذا فصل من عمله .

رحل عن البلاد فى ١٩٦٢ وأخذ معه بعض المستندات الخاصة بمشروع



كاميرا ضبطت مع بهجت حمدان

السنوات الخمس ، توجه إلى لبنان ثم انتقل إلى باريس ، وهناك أقام فى فندق ستار استشف موظف الاستقبال أن «بهجت» صيد سهل فتولاه برعايته وأخذ يصطحبه معه الى الحفلات وأماكن اللهو وينفق عليه ببذخ الى أن علم منه أن لديه بعض المعلومات ذات القيمة الاقتصادية فقدمه الى من يدعى «جورج سيمون» على أساس أنه من رجال الأعمال .

تلقفه سيمون واستمر يغدق عليه وتحت ساتر تحديد الوظيفة الملائمة له أخذ منه المستندات التى كانت فى حوزته ودفع له فى مقابلها عشرة آلاف فرنك فرنسى ، ولما تبين «سيمون» أن «بهجت» يرغب فى الحصول على النقود بأية وسيلة ، صارحه بأنه من ضباط المخابرات الاسرائيلية وعرض عليه التعامل معه فقبل المذكور — هذه لغة الوثائق الرسمية — العرض مباشرة ، ونظراً لعدم المامه باللغة الفرنسية وعدم وجود اتصالات له فى فرنسا ، بنى تخطيط المخابرات الاسرائيلية على تشغيله فى ألمانيا الغربية .

سافر «بهجت» إلى فرانكفورت، حيث التقى بضابط مخابرات اسرائيلى آخر يدعى «صموئيل» تعرف عليه وسلمه عشرة آلاف مارك ألمانى،وطلب منه أن يوقع على إيصال بالاستلام ، وبدأ أول مراحل اعداده للتجسس بأن قدمه الى أحد عملائه ويدعى «بوتا» وهو من أكبر تجار البورصة فى مدينة « بريمن » بغرض تدريبه على العمل فى مجال الاقتصاد والاختلاط برجال الأعمال ودراسة الأسواق للحصول على الجنسية الألمانية .

اصطحبه «بوتا» الى بورصة الأوراق المالية ، وقدمه الى كثيرين من رجال الأعمال وأشركه معه فى بعض الصفقات المحلية ، واستمر الحال على هذا النحو لمدة عامين تأكد «بوتا» خلالها أنه أصبح على دراية بالعمل كما ساعده فى الحصول على الجنسية الألمانية، وسقطت عنه الجنسية المصرية فى أوائل ١٩٦٧ .

ارسل «بهجت» عدة خطابات الى مؤسسة البترول فى مصر بغرض شراء المنتجات البترولية وذلك بصفته مندوباً عن بعض شركات البترول الألمانية ..

إلى القاهرة بصحبة عدد من رجال صناعة البترول الالمانية، وكان ذلك فى أعقاب عدوان يونيو ١٩٦٧، وقابل المسؤلين فى قطاع البترول للدراسة تفصيلات العروض التى تقدم بها، وتحت هذا الساتر كثر تردده على البلاد، ولوحظ أنه يقيم فى فنادق الدرجة الأولى رغم أن اسرته تقيم فى القاهرة .

لم ينجح فى عقد صفقات بترول مع مصر ومرد ذلك إلى أسعار العروض التى تقدم بها حيث كانت أقل بكثير من المعدل الطبيعى، فعاد إلى المانيا وقدمه « بوتا » إلى عدد من تجار الأسلحة، وقام هو بدراسة مستفيضة لهذه السوق حيث تبين له أن معظم هؤلاء التجار من اليهود ، وأنهم يحتكرون هذه التجارة تقريباً فى أوربا .

طلب اليه «صموئيل» أن يتقدم بعروض لتوريد أسلحة إلى بعض الدول العربية، ولما لم ينجح فى اتمام أية صفقة، انتقل مرة أخرى إلى القاهرة وقام بالاتصال بالمختصين وعرض عليهم خدماته لتوريد المعدات العسكرية والمهمات ، وعندئذ صدرت التوجيهات إلى هؤلاء المختصين بأن يعملوا على مجاراة المذكور ، ووفق مبدئياً على العروض التى تقدم بها، على أن يقدم ما يثبت امكانياته فى هذا المجال .

اعتقد «بهجت» أنه نجح فعاد بسرعة الى ألمانيا حيث أبلغ « بوتا » ، فعرفه على آخرين كونوا معهم شركة للتعامل مع الشرق الأوسط فى الأعمال الإنشائية بإسم شركة « نورد » لصاحبيها «البرت فايزر» و « وولف درايو » ونوقشت الأسعار والأرباح الخيالية المرتقبة .

فى أواخر ١٩٦٨ سافر الثلاثة إلى القاهرة وتقابلوا مع المختصين لدراسة العروض، وطبقا للخطة الموضوعة طلب منهم إيداع مبلغ من النقود كتأمين ولضمان جديتهم فى تنفيذ العروض التى تم الاتفاق عليها، وعادوا إلى ألمانيا لاحضار المبلغ المطلوب، واحضار عينات للصفقات المزمع عقدها ، وعند هذا الحد انتهى دور « بوتا » .

حضر إلى منزل «بهجت» فى برين الكولونيل «دافيد سيمون» وأبلغه أنه حضر خصيصاً من تل أبيب ليناقش معه الموقف المعروض مع مصر، وأتفق على أن تقوم المخابرات الإسرائيلية بتقديم كافة المساعدات والامكانيات لإنجاح هذه الصفقات، وكلفه بالحصول عـــلى معلومات عن القوات المسلحة والاستحكامات الخاصة بها وأن يعمل على اختيار بعض العناصر الصالحة من بين معارفه، سواء من العسكريين أو المدنيين فى مصر .

عاد الثالوث الألمانى مرة أخرى إلى القاهرة حيث قدموا مبلغ ربع مليون مارك ألمانى كتأمين ــ يبدو أن مساعدات المخابرات الإسرائيلية كانت كبيرة ــ وأتصل «بهجت» بزوج شقيقته، كان يعمل بشركة «المقاولون العرب» بمنطقة القناة وأبلغه أنه بسبيل إجراء بعض الأعمال الهندسية فى مصر مع شركة ألمانية غربية، ووعده بإلحاقه بالعمل معهم ثم عرفه بكل من «فايزر» و«درايو».

وكان زوج شقيقته هذا يود أن يكسب رضاهم بأية طريقة، ونتج عن المناقشات التى دارت فى مجالات العمل لمعرفة امكانياته وكفاءته أن تمكن العملاء من الحصول منه على معلومات عسكرية سرية خاصة بالإنشاءات، وفى وقت لاحق طلب «بهجت» منه أن يوافيه ببعض الرسومات الهندسية الخاصة بالإنشاءات والاستحكامات التى يشترك فى تنفيذها لتقديمها للألمان، فوافق وسلمه مجموعة من هذه الرسومات ــ التى تعتبر من أدق الأسرار العسكرية الهامة .ــ وقام «بهجت» بالتحفظ على هذه الرسومات، واستعد الثلاثة لمغادرة مصر، ولكن رجال المخابرات أحاطوا بالجميع فى الساعة الثامنة مساء يوم الاثنين ١٩٦٩/٦/٢ ، ومرة أخرى التف حبل المشنقة فى الثامن والعشرين من فبراير ١٩٧١ حول رقبة السيد المبجل «بهجت حمدان».

أننا نشعر بنفور غريزى من الأخطاء التى تؤدى إلى سقوط العملاء ــ بصرف النظر عن الجانب الذى يقف فيه هؤلاء ــ هذه مسألة ترجع إلى عملية الدراسة ولا علاقة لها بالمواقف أو العواطف لذلك فإننا نشعر بأسف بالغ لتلك

الحادثة التي سنرويها في السطور التالية، إذ أن المخابرات الإسرائيلية دبرت في وقت ما من شهر نوفمبر ١٩٧١ لقاء تليفزيونيا — في التليفزيون الهولندي — بين من يدعى « مارك فوو » وهو شاب فرنسي يعمل معيداً في جامعة ليون، وبين شخص غامض لم يفصح عن اسمه أو محل اقامته، ولكنه ادعى فقط أنه مصري الجنسية وأنه أحد زعماء منظمة تدعى الجبهة الوطنية المصرية، وتمكنت المخابرات من متابعتها للقصة من التعرف على هذا الشخص حيث تبين أنه كان من عملاء المخابرات الاسرائيلية، ثم اتسعت متابعتها في كل من فرنسا وإيطاليا وهولندا وبلجيكا.



مارك فوو

إلى هنا والقصة تبدو عادية إلى حد ما ولكن الاسرائيليين عادوا الى ارتكاب آثامهم المرذولة فجأة، فقد أوفدوا «مارك فوو» هذا الى القاهره ومعه كمية ضخمة من المنشورات لكى يلقيها في صناديق البريد.

ومن حقنا أن نتساءل، ألم تجد المخابرات الإسرائيلية شخصا للقيام بالمهمة سوى ذلك الشاب الذى ظهر في التليفزيون والذى يستطيع ضباط المخابرات المصرية تمييزه حتى لو أندس في زحام البشر يوم البعث.



جان بيير
كان يعمل مع مارك فوو
في توزيع المنشورات

حسنا.. يجب أن نعود مرة أخرى إلى السجلات لنوضح عقم هذا الخطأ



الرئيس السادات وفي يده صورة مارك فوو



مارك فوو

نفس الصورة التى فى يد الرئيس

منشور رقم ١ . صادر عن
الجبهة الوطنية المصرية

أيها الاخوة المواطنون

في هذه الفترة العصيبة التي تمر بها امتنا ، والعدو الاسرائيلي ما زال يحتل اجزاء غالية من اراضينا ، نجد شعبنا ووطننا يعانيان من الاستعمار السوفيتي ويحاول الاستعمار بواسطة معاهدة طالما كبلت ايدينا

ولكي نقتلع جذور الخيانة في بلدنا وقريتنا . نحن مجموعة من الشباب المصريين المخلصين . انضموا الى الجبهة الوطنية المصرية من اجل تحرير مصر من نير الاستعمار السوفييتي ، ومقاومة اي نفوذ اجنبي واي محاولة للسيطرة علينا سواء من الشرق ام من الغرب . من اجل مصر للمصريين - وليس مصر تابعة للاسياد الذين يفرضون علينا كل خطوة وخطوة في سياستنا الداخلية والخارجية

من اجل تحرر حقيقي بعيداً عن تمثيليات مسرحية ، وضد الاعتقالات ووسائل القمع باسم الحرية والقانون

من اجل ضمان حرية التعبير لكل فرد منا ، وامكان انتقاد اي مواطن يمس مصالحنا الوطنية ، مهما كان مركزه ، وعدم الرقابة على الصحف وعلى كل كلمة تكتب او تقال وضد اضطهاد المواطنين .

من اجل السيادة والعزة الوطنية ، وضد الخضوع لاي قوى اجنبية او قوى في وطننا الى وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والعسكرية

أيها المواطنون

من هو الذي يقرر مصير مصر الآن ؟ هل نحن بأنفسنا ؟
هل شعبنا هو الذي يقرر مصيره حقاً ؟

لا .. !

ان الجبهة الوطنية المصرية تقسم امام الله والوطن انها ستعمل بإخلاص وتفان من اجل خدمة شعبنا ووطننا . وتبذل أقصى جهودها لكي تبقى مصر حرة مستقلة بالرغم من المعاهدة الخفية التي تحصل بنودها المكشوفة والخفية .

ان الجبهة الوطنية المصرية ستقاتل الاستعمار الروسي حتى النهاية ، بكافة الاساليب والوسائل التي لدينا

نحن ندعوكم ، ايها الاخوة ، باسم الجبهة الوطنية المصرية الى المشاركة معنا ، سوف نسحقه الكثير منا

ومن الله التوفيق

الجبهة الوطنية المصرية

أحد المنشورات التي ضبطت مع مارك فوي

فى صباح يوم ١١ فبراير ١٩٧٢ ؛ وصل الى مطار القاهرة الدولى «مارك جاك فوو» — فرنسى الجنسية — من مواليد الجزائر فى ٢٣ نوفمبر ١٩٤٥ ؛ حصل على دبلوم الصحافة من باريس عام ١٩٦٦ . وحاليا طالب دراسات عليا بجامعة السوربون ؛ توجه مباشرة إلى فندق سكارابيه بشارع ٢٦ يوليو ، واستمرت مراقبته أيام ١١، ١٢، ١٣ فبراير . تم حصر نشاطه واتصالاته والأماكن التى يتردد عليها — حاول الحصول على عمل فى المركز الثقافى الفرنسى للاقامة فى مصر فى صباح ١٣ فبراير غادر «مارك فوو» الفندق واتجه إلى صندوق بريد وسط المدينة . وقام بإخراج مجموعة خطابات من جيبه ثم ألقاها فى الصندوق ،

تم إخطار الرقيب العام المساعد — لا أعرف مدلول هذا اللقب ولا طبيعة عمله — للتحفظ على هذه الخطابات ، وبفحصها تبين أنها منشورات ، وعندئذ تم اخطار نيابة أمن الدولة مع استمرار المتابعة .

شوهد مرة أخرى فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وهو يقوم بإلقاء مجموعة أخرى من الخطابات فى صندوق بريد بشارع قصر النيل .. استمر فى سيره إلى فندق هيلتون ، ومكث فترة من الوقت حيث تم ضبطه بمعرفة صفوت عباس وكيل نيابة أمن الدولة الذى انتقل مع رجال المخابرات إلى فندق اسكارابيه ، وتم ضبط جميع المتعلقات الخاصة بالمتهم .

وقد كشف الرئيس السادات بنفسه تفاصيل العملية كلها ، فى خطاب له أثناء انعقاد المؤتمر القومى فى نوفمبر ١٩٧٢ ، وعرض الرئيس على الحاضرين صورة «مارك فوو» بعد أن ألقى القبض عليه ، وكان هناك متهمون آخرون ولكن يبدو أن «مارك» هذا كان محظوظاً إذ نشرت صورته على أوسع نطاق ، ولا شك أن هذه الحادثة تعد دليلا لا يقبل الجدل على أن الأخطاء البسيطة تسفر عن افدح الاضرار . وعلى هؤلاء الإسرائيليين أن يكفوا فى المستقبل عن نشر صور عملائهم فى تليفزيونات العالم قبل استخدامهم .. أما إذا واصلوا

ارتكاب هذه الأخطاء المقيتة ، ــ فإننا نتوقع أن يعانوا عجزاً جسيماً فى أعداد العملاء المهرة، مما يسبب لنا حزنا .

ولم تكن هذه السلسلة من عمليات المطاردة هى كل ما تمخضت عنه معارك الجواسيس ، فإلى جانب الأسى والاشفاق وحبل المشنقة ، فى ذلك الجو المفعم بالميلودراما كانت بعض التصرفات المشبعة بالمرح وروح الدعابة تظهر من حين لآخر لتقطع تيار الإجراءات المأساوية الدامية ، ويبدو أن هـذا التناقض يعد ضرورة لا غنى عنها فى عالم المخابرات الحافل بالمتناقضات ، ربما لأسباب تتعلق بطبيعة ونوعية رجاله ، وقوانينه الخاصة به أيضا



«فرولد فرانز سكانز»

سقط فى المصيدة التى نصبتها له المخابرات المصرية

حدث أن ظل أحد جواسيس المخابرات الإسرائيلية يؤدى عمله لمدة أربع سنوات ، ولأن الرجل — ويدعى اسماعيل عباس صبرى — كان يعمل فى خدمة المخابرات المصرية فى حقيقة الأمر ، فقد طلب ذات يوم من رؤسائه فى تل أبيب أن يبعثوا اليه على وجه السرعة بمندوب مفوض ليتسلم عــددآ من الصور والوثائق الهامة ، وشفع هذا الطلب باعتذار وجيه ، ليبرر عدم رغبته فى السفر إلى الخارج بصحبة وثائقه الخطيرة .

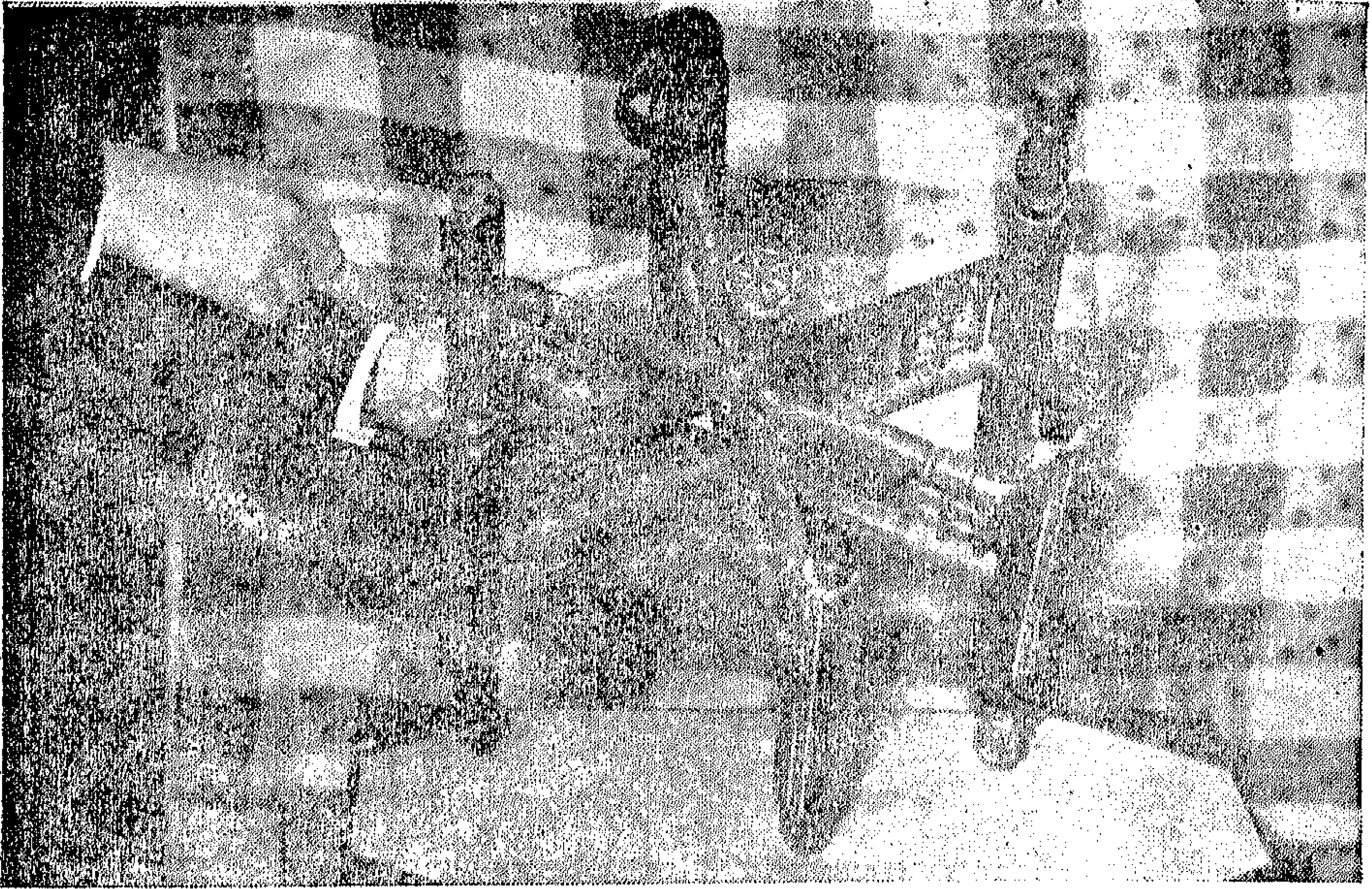
ولما كان ضباط المخابرات الإسرائيليون قوم يتميزون بقدر كبير من الجشع حيال الوثائق ، كما يتمتعون بأوفر قسط من سوء التقدير ، استجابوا لطلب رجلهم دون إبطاء ، وأوفدوا عميلا ألمانيا يدعى « فرولد فرانز سكانز » إلى القاهرة ، وما أن هبط « فرانز » المنكود فى المطار ، حتى أسرع إلى استقباله أحد ضباط مكافحة التجسس بحفاوة صادقة .

وفى المساء .. تلقت المخابرات الإسرائيلية البرقية التالية :

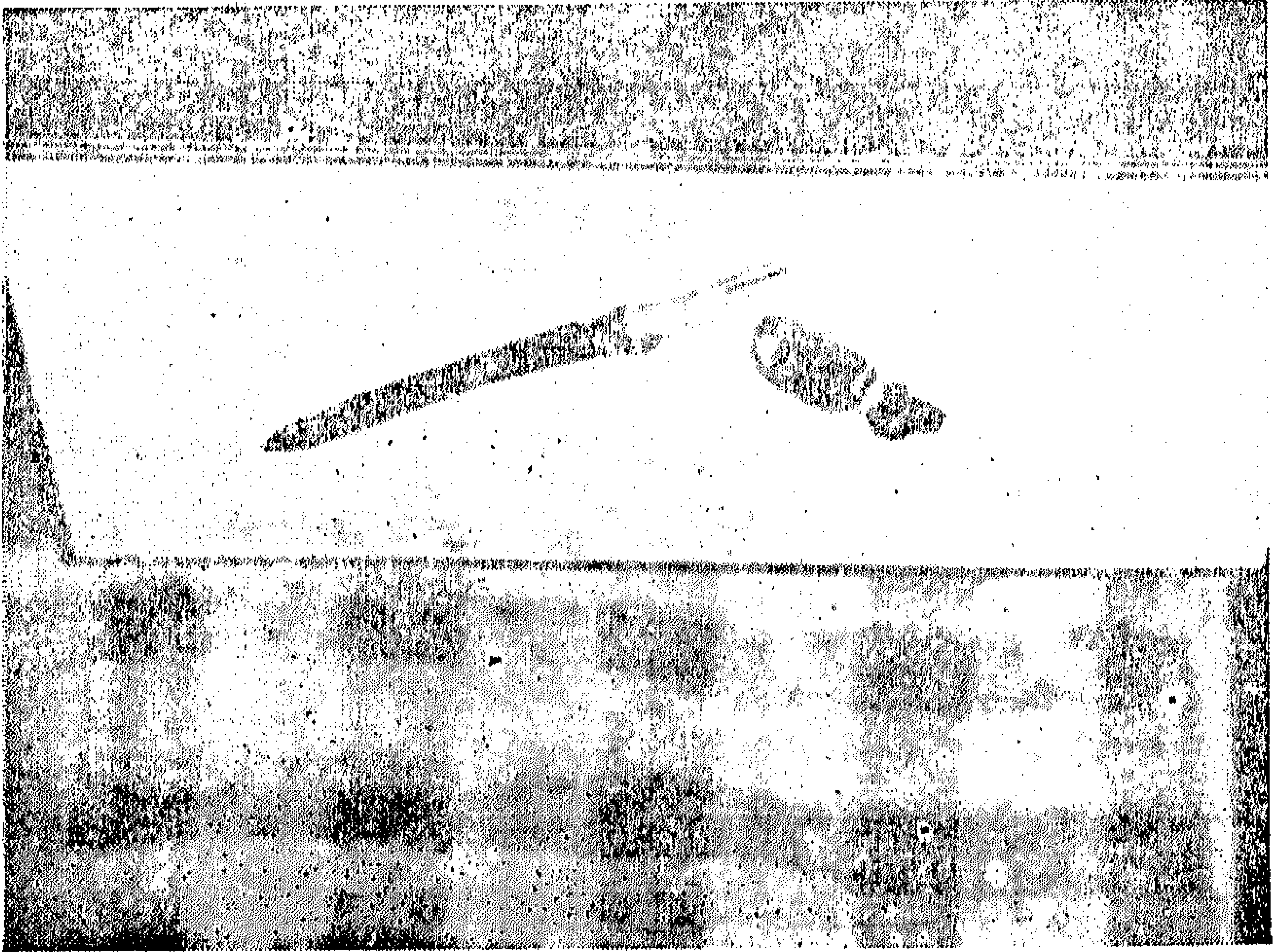
« المخابرات المصرية تبعث اليكم بعظيم شكرها ، على ما لقيته منكم من تعاون ، وما قدمتموه من خدمات طوال أربع سنوات .. وإذ تنهى معكم هذه العملية التاريخية ، ترجو لقاء قريبآ فى عمليات أخرى .

وفى تل أبيب ، سجل عامل اللاسلكى هذه البرقية ، ورد كالمعتاد :

— شكرآ ..



قاعدة مائدة مجوفة بطريقة فنية



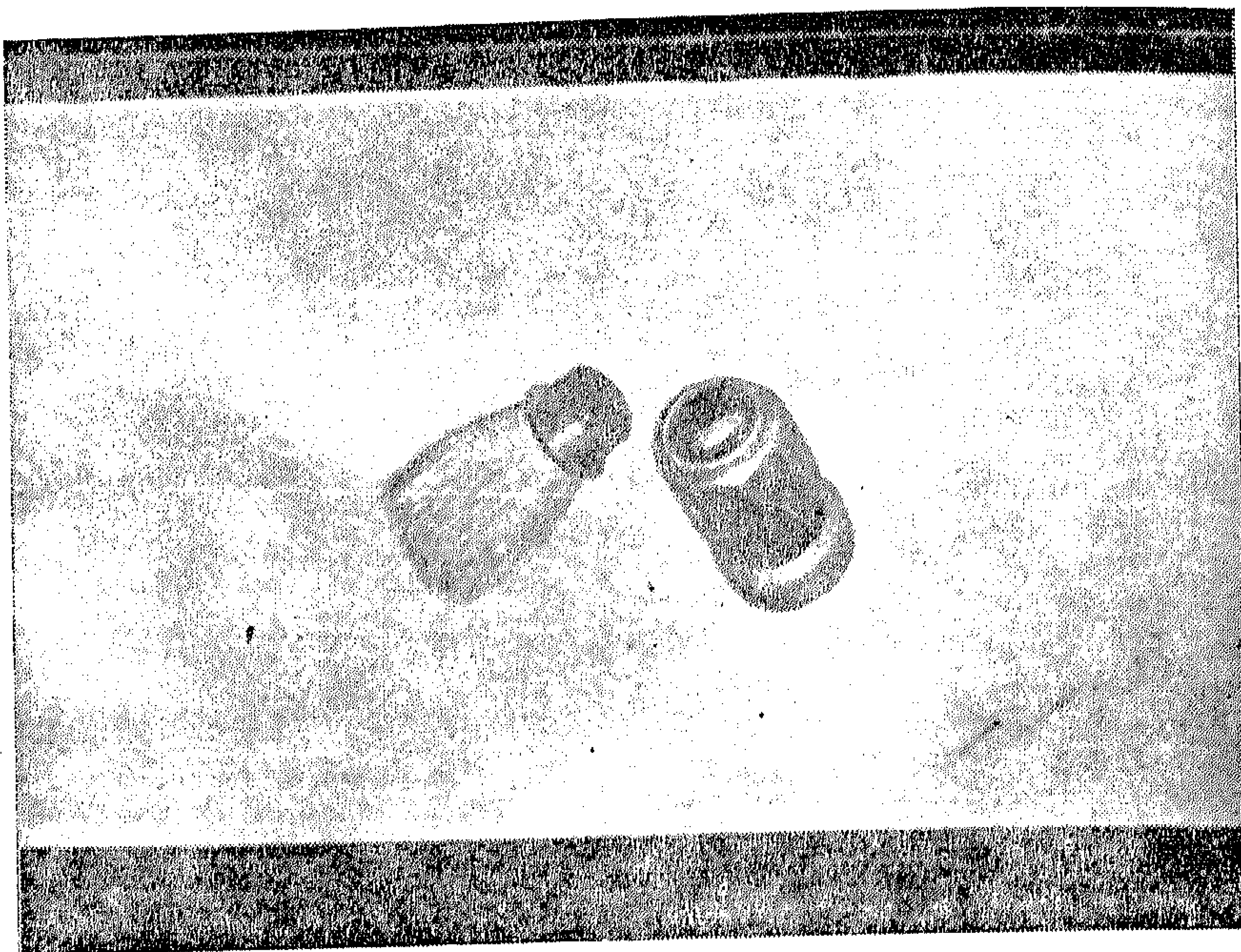
قاطع أوراق مجوف



زجاجة اكوافلفا بداخلها حبر سرى



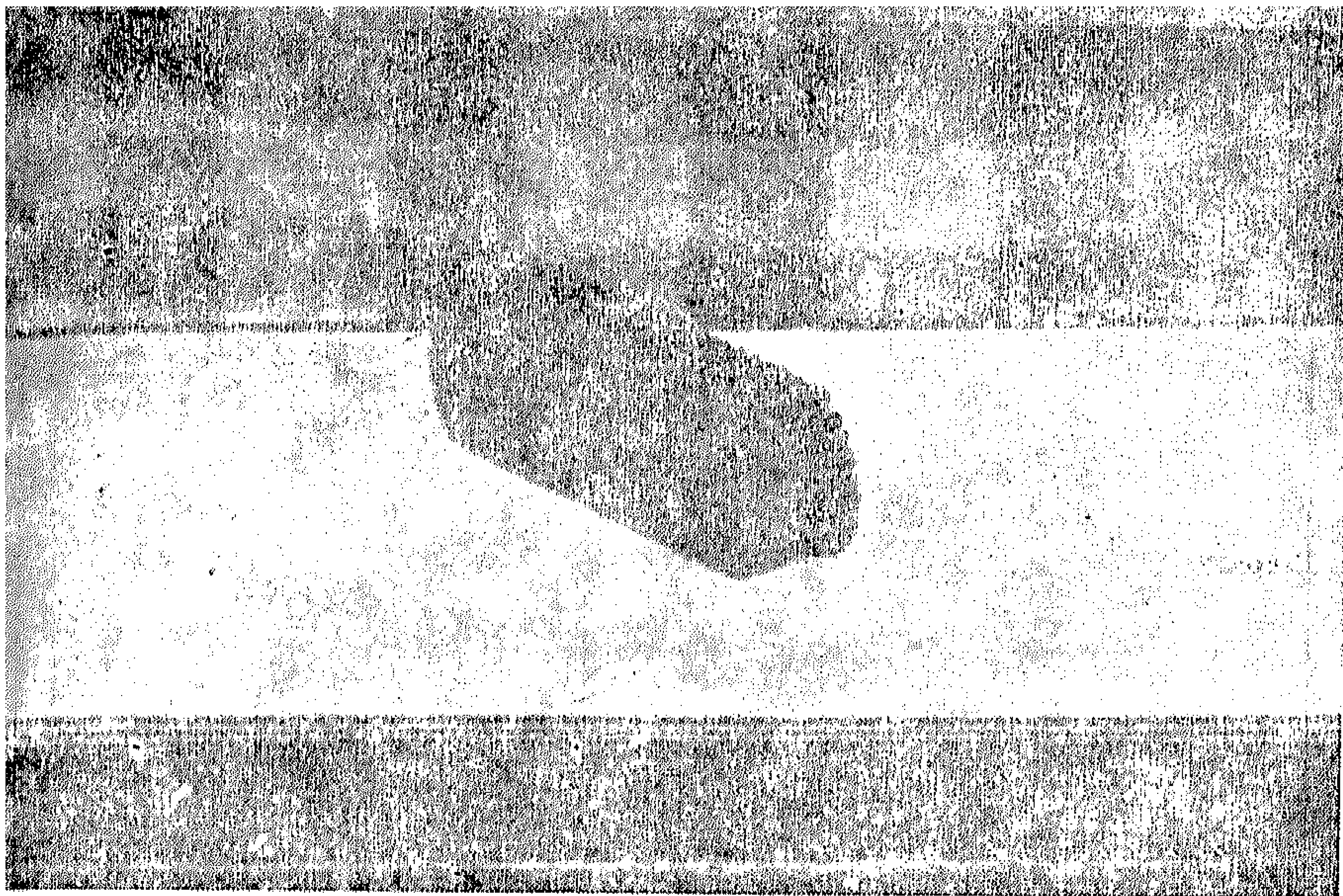
زجاجة آى لاينر تحتوى على حبر سرى



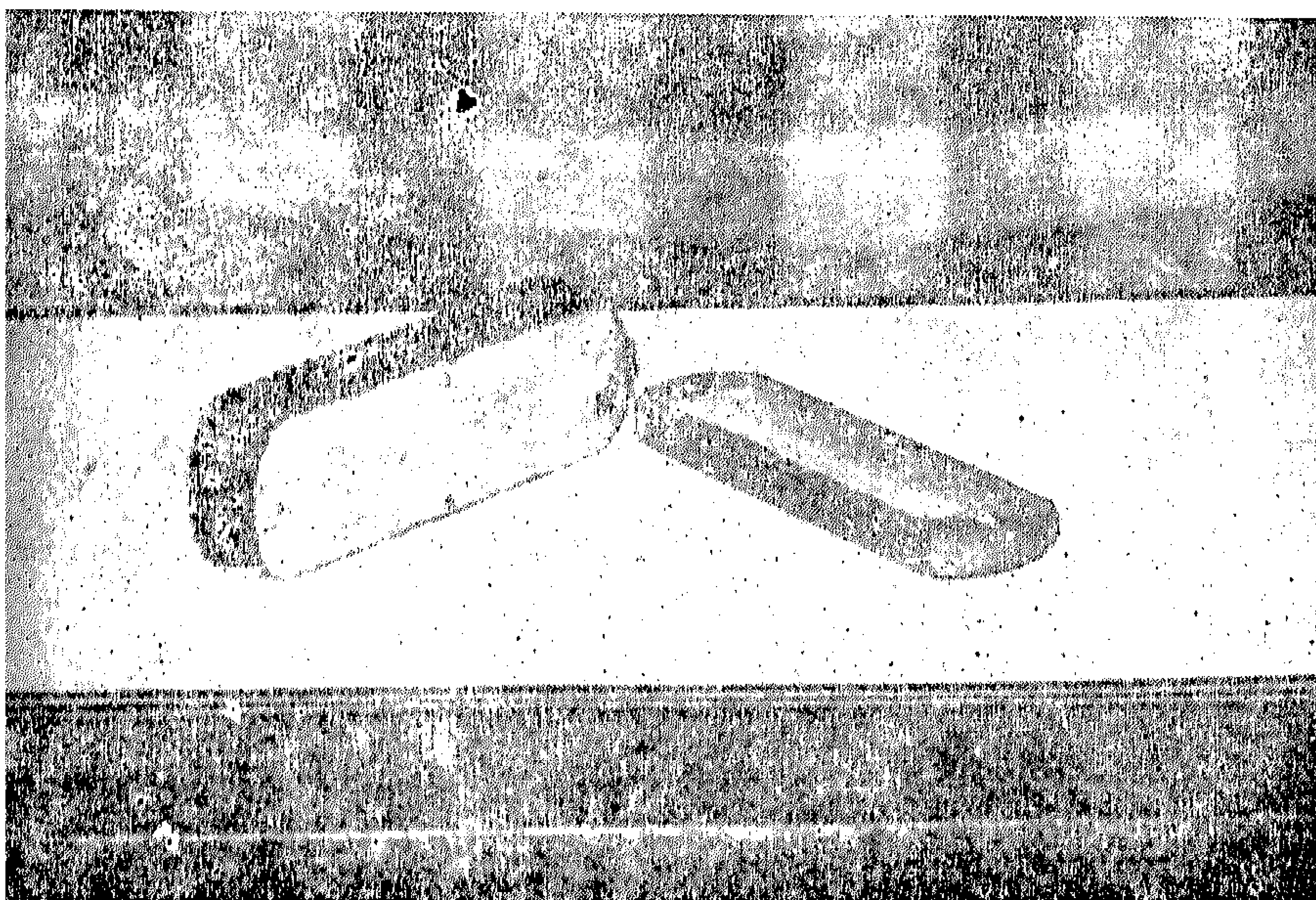
فرشاة حلاقة مجوفة لإخفاء الميكروفيلم



أنبوبة لإخفاء الأفلام



فرشاة ملابس

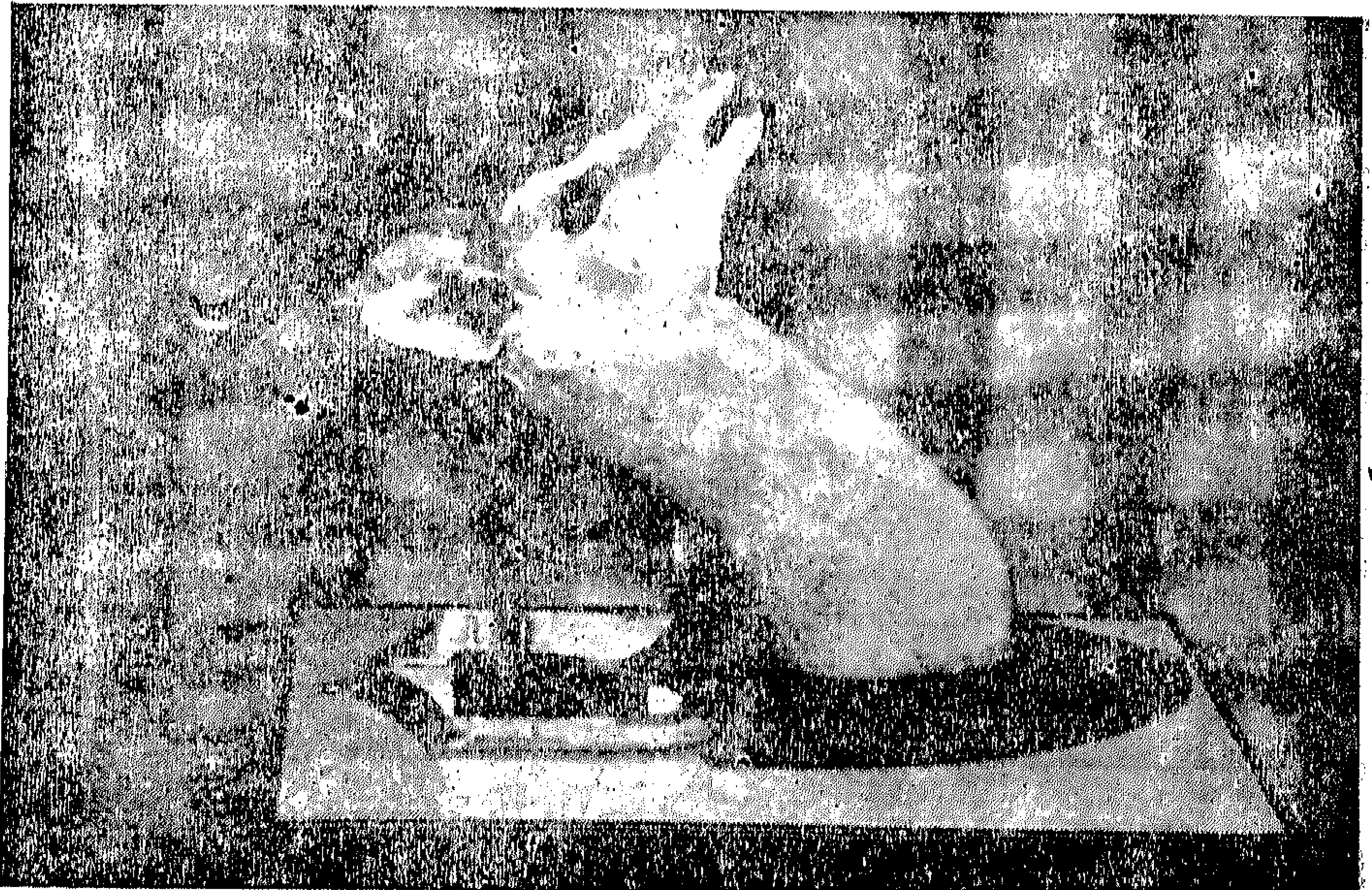


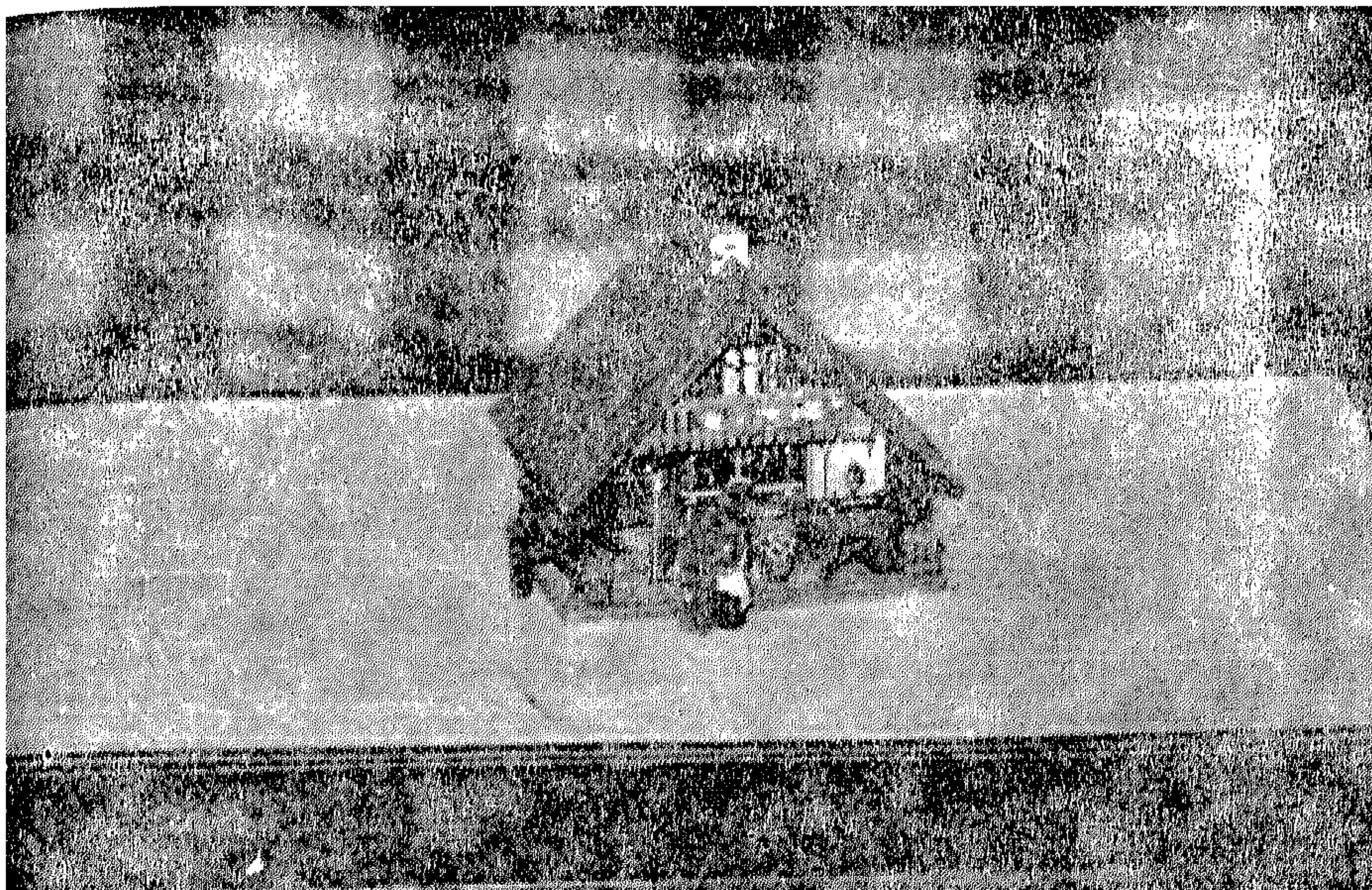
الفرشاة بعد اكتشاف التجويف



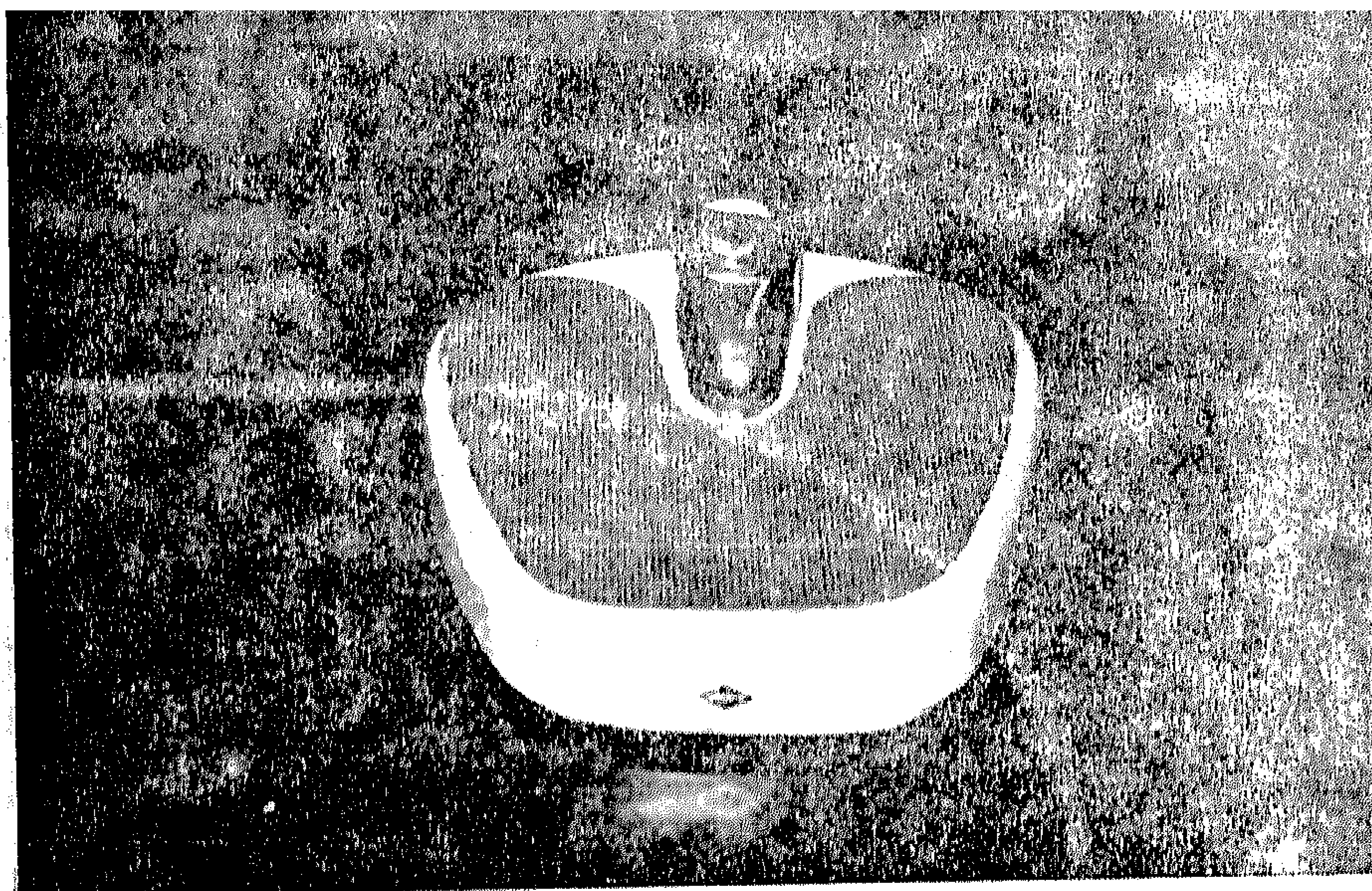
↑ رأس غزال ↑

↓ رأس الغزال بعد كشف المخبأ ↓

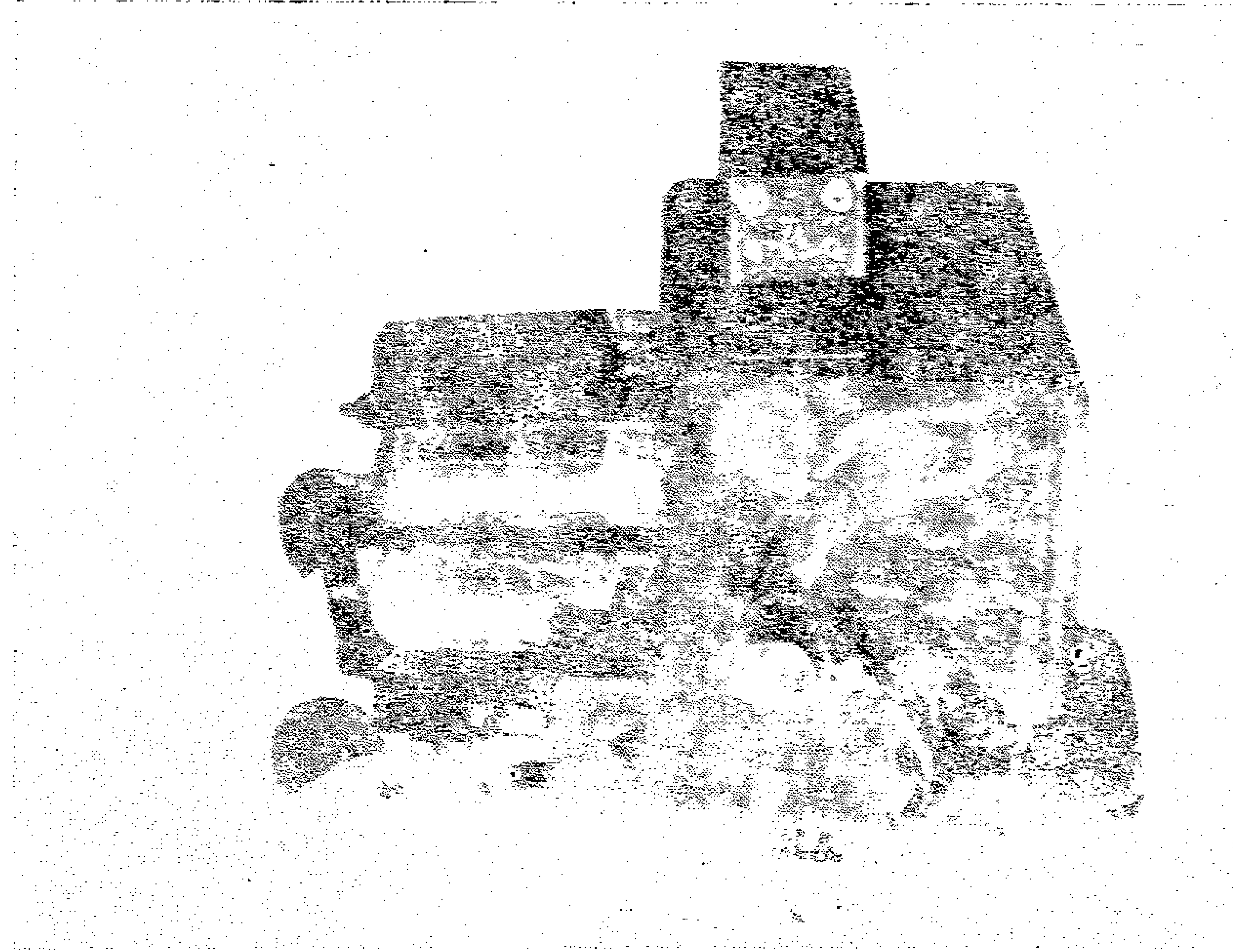




↑ جهاز إرسال داخل قطعة خشبية من مصنوعات خان الخليلى ↑



ميزان الحمام
ضبط فى حوزة وولف لوتز وبداخله جهاز الإرسال



جهاز ارسال لاسلكي

٦

الحرب فوق أعمدة الصحف

فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٢/٤/٢٦ نشرت جريدة إسرائيلية تدعى « الجيروساليم بوست » مقالا رئيسيا حذرت فيه بشدة من مغبة (الحملة المكثفة) التى تقوم بها اجهزة الاعلام المصرية ، وقالت الجريدة الناطقة باللغة الانجليزية ان تأثير هذه الحملة سوف لا يؤدى الى تقليص كميـــة المعلومات التى تجمعها المخابرات الاسرائيلية فحسب ، بل سيمتد الى حد تبديل مواقف العمـلاء الذين كلفوا بخدمات ضـد الدول العربية أيضـاً . . وأضافت الجريدة ان واجب المخابرات الاسرائيلية يقتضى اعادة تقييم الموقف فى ظل الظروف التى نتجت عن هذه الحملة المـكثفة .

فما هى حقيقة الحملة التى لفتت انتباه جريدة اسرائيليـــة ولم تحظ بعناية المخابرات الاسرائيلية النشيطة ؟

ان التطرق الى هذا الموضوع يستلزم كشف بعض التفاصيل التى لا اعتقد ان المخابرات المصرية تحبذ التعرض لها . . ولكن لا بأس . . فقد حدث فى بداية

سنة ١٩٦٨ ، ان أبدت ادارة مكافحة التجسس ملاحظـــة استخلصتها من نتائج استجواب الجواسيس الاسرائيليين الذين وقعوا فى قبضتها . . ومن متابعة الجواسيس الذين كانوا يعملون تحت سيطرتها .

وجاء فى تقرير مستفيض بهذا الشأن ان هؤلاء الجواسيس يحصلون على معلوماتهم بصفة أساسية عن طريق الاتصات السلبى لأحاديث المواطنين فى المحلات العامة ووسائل المواصلات وأى مكان يتواجد فيه اعداد من الناس الشغوفين بالحديث عن شؤونهم العامة علنا .

ووجدت هذه الملاحظة عناية فائقة ، من جانب ضابط ذى خيال خصب ، شاب طويل القامة .. ممتلىء الجسم صلب التقاطيع يتميز بعينين تفيضان بالحيوية وانف متسع الطاقات كالطيارين القدامى ، ويدعى عادل .. فأخذ يفكر فى حل للمعضلة التى بدت عسيرة ومستعصية . . لاغراء الناس على اقفال أفواههم حتى لا تتسرب المعلومات بسهولة الى العدو .

وهداه تفكيره الى خطة محكمة وبعيدة المدى . ورغم أن خطته اشتملت على بيان مفصل للجهود التى يجب بذلها . . تلك الجهود التى كانت كفيلة ببث اليأس فى نفس أقدر البشر على المثابرة .. وافقت المخابرات على مقترحاته واقرتها فشرع فى العمل

وكان الدين بمثابة العمود الفقرى فى الخطة كلها ..

فقد رأى عادل ان غالبية المواطنين مؤمنون يترددون بانتظام على دور العبادة .. وشعر فى قرارة نفسه بالفائدة العظمى التى يستطيع رجال الدين تحقيقها لخطته . . فقرر أن يستثير حماس الشيوخ والقساوسة لكى يبصروا مستمعيهم بأهداف العدو ووسائل احباطها .

وعلى الرغم من نفور ضباط المخابرات من الاجتماعات العامة..وجد الرجل أن الطريقة المثلى لكسب رجال الدين هى عقد اجتماع موسع لكى يتحدث إليهم مباشرة ، وكان يعتقد ان قيام ضابط يعمل فى حقل المخابرات بشرح

القضية بنفسه .. سوف يضفى على المسألة جدية وخطورة ، ولا شك أن فكرته كانت سديدة بالفعل .

وأثبتت النتائج فيما بعد أن تأثير رجال الدين كان هائلا . . واستمع ملايين المصلين بخشوع فى وقت واحد إلى خطباء المساجد والقائمين بالوعظ فى الكنائس وهم ينبهون بإخلاص إلى ضرورة التزام الصمت حتى لا يستفيد عدونا من ألسنتنا .. ولأن نصيحة رجال الدين تعد قضية مسلمة لا سبيل الى مناقشتها ، استجابت جموع الشعب بسرعة مذهلة .. واتضح ذلك بشكل قاطع فى السنوات التالية .

وبعد اقناع رجال الدين ، جاء دور الطوائف الأخرى التى تؤثر فى الجماهير .. كتاب المقالات ومؤلفى الأغانى ومعدى التمثيليات ومخرجى المسلسلات الاذاعية والتليفزيونية .. وكان مطلب رجل المخابرات الأساسى من الحشد الذى اجتمع لينصت اليه ان يعملوا على شد انتباه مواطنيهم من خلال مايقدمونه من كتابات وأعمال فنية ومتع ترفيهية : الى المخاطرة الكامنة فى الأحاديث العفوية البريئة والى مزايا تكتم أنباء منشآتنا وأسلحتنا ونوايانا أيضا .

ولست أعتقد ان بمقدورى تعداد الأعمال المثمرة التى قام بها من اشترك فى الدعوة الى الأهداف الوطنية التى تضمنتها خطة التوعية .. ويكفى أن اشير الى أن سيلا متدفقاً من المقالات والتمثيليات والمسلسلات والبرامج أخذ يغمر كل وسائل الإعلام .

كتب كمال اسماعيل — وهو ابن محمود اسماعيل شهيد مصر العظيم — مسلسلة لاقت رواجاً كبيراً وهى « كلاب الحراسة » التى أخرجها للإذاعة الفنان القدير على عيسى وللتليفزيون المخرج نور الدمرداش .

وكتب محمود صبحى لبرنامج عيلة مرزوق افندى . وكتب رأفت الخياط البعثة ٦٩ ، وقدم محمد كامل « المصيدة » ، وأخرج محمد شرابى عشر تمثيليات فى برنامج صور من الحياة ، وقدم على عيسى برنامجين : الأول من قصص الجواسيس

والثانى : الحرب النفسية .. وأسهم فائق اسماعيل بمسلسلتين الأولى بعنوان : « اللصان والجاسوس » والثانية : لا أسمع .. لا أرى .. لا أتكلم » وقدم وجدى حافظ التمثيليات لبرنامج: الحكم بعد المداولة إخراج الفنان محمود يوسف ، وكتب طلعت المرصفى خماسية « تذكرة الى أثينا » ، وحسن عبد الله خماسية « كمين » وهاشم جمعة خماسية « صراع حتى النهاية » وقدم محمد سعيد برنامج جند الله .. وفى البرامج الدينية ، تبنى احمد فراج فى برنامج « نور على نور » نفس أهداف الخطة .. ومنذ وقت قريب قدم مديح دبش مسلسلة « لوليتا والمال والثعالب » التى اخرجها عبده دياب .. وكتب محمد عبد الرحمن حلقات «جاسوس على الطريق» والتى يخرجها حاليا المخرج ابراهيم الشقنقيرى .

وفى مجال الكتابة الصحفية تطوع عدد من أصحاب الأقلام المحببة للاسهام فى الدعوة: حسين فهمى وانيس منصور وعبد السلام داود وصلاح هلال وجميل عارف ، وحمدى لطفى وعبده مباشر وعبدالمجيد أيوب ومحمد جبر وجمال الغيطانى والمرحوم فاروق عبيد ، وعشرات غيرهم .

وبهذا الأسلوب وجدت الدعوة طريقها الىمختلف قطاعات الشعب بشكل يكاد ان يكون يوميا .

وفى نوفمبر١٩٦٩ اتصل بى « عادل » واستدعانى الى مكتبه .. وهناك شرح لى بإسهاب جوانب العملية وأهدافها والخطوات التى تم اتخاذها ... ثم سأل عما إذا كنت ارغب فى معاونته .

وقبل أن أجيب بدأ يشرح مهمتى وقال انه يود لو انى نشرت عددا من المقالات الأسبوعية فى احدى الصحف .. على أن اركز على اهداف التوعية فى قالب مشوق .. إلا أنى ابديت اعتراضى واوضحت وجهة نظرى .

كان المناخ وقتئذ قاسيا ؛ وكانت الأحداث التى اعقبت حرب ١٩٦٧ قد أدت الى محاولة الانتقاص من قدر المخابرات بشكل علنى ، واخذت الحملة العدائية التى قادها قوم ذوى مصالح متباينة تضطرد بصفة منتظمة .. واستغل هؤلاء

الاجراءات التى اتخذتها المخابرات حيال الجواسيس استغلالا تنقصه الأمانة .. فنسبوا اليها جميع الأعمال المنافية للقانون التى اقدمت عليها أجهزة تعمل فى ميادين تختلف تماما عن ميدان المخابرات ؛ والتى كان من واجبها حماية الم بعين فى قمة السلطة ..

كذلك تعرض الجيش لحملات عدائية مقيتة مشابهة . . الأمر الذى يوضح بجلاء مدى الظلمة التى أوغل فيها هؤلاء الذين سمحت لهم ضمائرهم بالهجوم على قلعتى أمننا القومى والجيش والمخابرات لمجرد الاحتفاظ بمقاعد السلطة ، ولشغل جماهيرنا عن البحث فى الأسباب الحقيقية لكارثة ١٩٦٧ .

ولم يحظ الذين قادوا حملات التشهير بشرف الرد عليهم . . . فلم يكن لدى المخابرات وقت تضيعه فى التافه من الأمور . . وكان رجالها يدركون أن واجبهم أكثر سموا .

وقلت لعادل أن هذه الظروف ــ من وجهة نظرى الشخصية ــ تشكل عائقا غير مشجع على الاطلاق لمحاولة مخاطبة الجماهير واقناعها بأهدافنا .

ورغم أن الرجل كان يبدو متفقا معى فى قوة هذه الأسانيد التى بررت بها اعتراضى .. إلا أنه كان يعتنق رأيا مخالفا ، وقال :

ــ إن شعبنا لم يكن ليقتنع بأكاذيب الذين عمدوا الى مهاجمة المخابرات مهما كانت مواقعهم لو أننا قمنا بتوضيح حقيقة غابت عن اذهان كثيرين . . . ألا وهى ان واجب المخابرات ليس إلا حماية الوطن ضد أعدائه المتربصين به خارج الحدود . . وان هذه الحماية تتوفر بالحصول على المعلومات عن العدو . وبتأمين افرادنا ومعداتنا ومنشآتنا وبمكافحة التجسس والتخريب ؛ وبالتصدى للحرب النفسية التى تهدف إلى النيل من شعبنا . . اما ما عدا ذلك من إجراءات القمع الداخلية فلم ولن يكون فى نطاق عمل المخابرات مطلقا .

واكتسب صوت رجل المخابرات نبرة مؤثرة وهو يستطرد موضحا ضرورة بذل أقصى الجهود لتوعية كافة قطاعات شعبنا وقال :

— ان احد الجواسيس عرف بتحرك فرقة كاملة من فرق الجيش من حديث جنديين كانا يثرثران فى قطار ، وان جاسوسا آخر نقل معلومات ثمينة عن الغواصات بعد ان استمع إلى كهل يعمل فى قاعدة مخصصة لتموين الأسطول،،

وبعد فترة صمت قصيرة .. صوب إلى عادل نظرة فاحصة ثم سألنى عما إذا كنت افضل اتخاذ موقف سلبي بينما يطلق الناس على محطة اتوبيس اسم « المطار السرى » !

وامام هذه النماذج المفزعة لم أجد بدا من المساهمة بجهد مناسب فى خطة التوعية .. واستغرق إعداد المقالات قرابة شهر ونصف شهر ..وكان الموضوع الذى وقع عليه اختيارى شيقا حقا ، عملية تجسس بتفاصيلها الحقيقية — دون إخلال بمتطلبات الأمن — لأول مرة فى مصر .

وفى اليوم التاسع من يناير ١٩٧٠ — دخلت إلى مكتب رئيس تحرير أخبار اليوم الصحفى الشهير والكاتب الذائع الصيت الذى أثار بشجاعة قضية الأسلحه الفاسدة فى العهد الملكى .. إحسان عبد القدوس ..

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهرا .. وكانت غرفة مكتبه غارقة فى جو رومانسى حالم .. اضواء خافتة غير مباشرة وأثاث ينم عن ذوق رفيع. وكان إحسان دبلوماسياً . فأخذ يشرح بصوت هادىء الفوائد التى تكمن فى نشر المقالات .

ويبدو أننى كنت موفقاً بدرجة ما .. إذ أصر احسان على نشر المقالات دون ان يبالى بالمقابل الذى تمسكت به بعناد جم .

وفى يوم السبت السابع عشر من يناير .. نشرت اخبار اليوم أول مقالاتى على صفحتين متقابلتين . بينما وضعت صورتى على رأس صفحتها الأولى. ولا بد لى من أن اعترف بأمانة ان ذلك كان كسبا كبيرا لشخصى فى أول محاولة لى فى الكتابة للصحف .. وان الرجل كان على صواب .

وطوال عام ١٩٧٠ .. قمت بجانب آخر من الجهد فى خطة التوعية ، فبعد أن حررت المخابرات مذكرة لوزير الحربية . تقرر أن ألقى محاضرات يومية فى مدارس الجيش . . وكانت هذه المحاضرات — التى استمع إليها آلاف الضباط والجنود — شيقة ليس بسبب مضمونها فحسب ، ولكن بسبب الأسلوب الذى ابتكرته لبدايتها أيضاً ، إذ كنت أتقدم إلى مكبر الصوت ثم أهمس :

— أيها الساده . . اننى جاسوس وأود ان اتحدث إليكم . .

واستمر العمل على هذا النمط حتى هذه اللحظة . . وتعددت وسائل تحذير الجماهير . فعرضت فى التليفزيون رسوم كاريكاتورية بين البرامج لتوضيح أساليب العدو فى الحصول على المعلومات . وفى وسائل المواصلات العامة انتشرت الملصقات التى تدعو إلى المحافظة على الأسرار . . وألقيت المحاضرات فى الأندية وقاعات الاجتماعات والنقابات المهنية ووحدات القوات المسلحة . كذلك امتدت التوعية إلى دور السينما فى أوقات الاستراحة .

كان الجهد شاقا ومركزا ولكنه كان مثمرا .

ومن زاوية اخرى كانت المخابرات هى التى طلبت من الرئيس جمال عبد الناصر أن يضمن احدى خطبه وعدا بالعفو عن الجواسيس الذين جندوا أثناء وجودهم بالأسر فى سنة ١٩٦٧ بشرط ان يتقدموا بمعلوماتهم إلى المخابرات المصرية خلال شهر واحد من إلقاء الخطاب .

واقبل عدد كبير من المواطنين الذين خـــدعوا وهم فى قبضة الجيش الإسرائيلى على وضع أنفسهم تحت تصرف رجال مكافحة التجسس ، كذلك تحقق انتشار الهدف الرئيسى للخطة كلها . . أن يحرم عملاء إسرائيل من الحصول على المعلومات بسهولة ويسر .

وتحقق نجاح يدعو إلى الدهشة لخطة التوعية التى اديرت بعناية وحذق وتمثلت قمة هذا النجاح فى فترة الاستعدادات الضخمة التى سبقت حرب اكتوبر عندما تحركت آلاف الدبابات وقطع المدفعية المختلفة الأعيرة وقوافل الذخيرة

مؤلف الكتاب .. فى دار « أخبار اليوم » ⇇

« تصوير مكرم »



بسم الله الرحمن الرحيم

اخى المواطن العربى :

وأنت فى سبيلك لمغادرة وطنك العزيز ، تنقل أمنك الغالية ، فلتكن بصهتا وسعيرها ، محافظا على امنها وسلامتها ، وتذكر أن لنا أعداء نحن معهم فى صراع مرير من أجل البقاء والحرية والتقدم .

١ – لم يعد الصراع بيننا وبين عدونا متصورا على المعارك العسكرية بل امتد ليشمل معارك أخرى عديدة منها التخريب المادى والحرب النفسية وأصبح لكل من هذه المعارك أثره فى الصراع .

٢ – والمعلومات هى الأساس الذى يستند اليه عدونا فى التخطيط لمعاركه السابقة ضدنا اذ بحصوله عليها تتوافر له مقومات تحقيق النصر علينا . وفى حفاظنا عليها حرمان له من ذلك .

٣ – ونظرا لتعدد المعارك كما أسلفنا يسعى عدونا للحصول على جميع أنواع المعلومات عن بلادنا عسكرية وسياسية واقتصادية ومدنية واجتماعية وثقافية ... الخ .

٤ – عدونا لا يمكنه الحصول على المعلومات المطلوبة عن ميدان معين بطريقة مباشرة ودفعة واحدة ، وانما يحصل عليها خبرا بعد خبر ثم تقوم أجهزته المتخصصة بتجميعها وتقييمها وتحليلها والخروج منها بصورة دقيقة عن هذا الميدان .

٥ – ووسائل عدونا فى الحصول على المعلومات عديدة ومتنوعة منها :

أ – عن طريق الزمالة أو الصداقة وفى الحفلات او الاجتماعات وذلك باتباع الوسائل الآتية

(١) أسئلة عادية وغير مباشرة فى معرض الحديث لا يبدو أنها مقصودة يصل منها الى أهدافه .

(٢) اشباع الاثارة واستغلال ميل محدثه الى حب التفاخر وادعاء المعرفة والظهور بمظهر العليم ببواطن الأمور

ب – استغلال عثرات المواطن واستباقه وراء نزواته أو شهواته والعمل على تهديده والسيطرة عليه وتجنيده ثم دفعه لخيانة وطنه سواء فى جمع المعلومات أو القيام بعمليات التخريب .

جـ – استغلال حاجة المواطن للعمل أو المال فى السيطرة عليه وتجنيده ودفعه لخيانة وطنه .

لذلك كله نوصيك يا أخى المواطن بالآتى :

١ – تكتم ما تعرفه من معلومات عن عملك وبلادك وما قد تتصوره بسيطا فانه يمثل قيمة كبيرة لعدونا .

٢ – احترس من الانزلاق فى الأحاديث والادلاء بمعلومات نتيجة محاولة شخص آخر استدراجك .

٣ – احرص من الاشخاص الذين يتقربون منك بطريقة غير مألوفة .

٤ – احذر من الأشخاص الذين يسألونك عن معلومات عن عملك وبلادك .

٥ – عندما تشترك فى مناقشة مع آخرين لا تأخذك الحماسة وتحاول الظهور بمظهر العليم ببواطن الأمور فتتسرب منك معلومات لا يجب اذاعتها .

٦ – راعى سواء كنت فى مهمة أو للدراسة أو للبحث عن عمل .. الخ الحذر التام فى معاملاتك واتصالاتك بالنسبة لمن تتعرف عليهم وتتأكد من شخصياتهم وسلامة نواياهم وأن ما يعرضونه عليك من أعمال له كيان ملموس ووجود فعلى وليس فيه مساس بأمن بلادك وسلامتها من قريب أو بعيد .

٧ – تجنب الخمر والنساء وما من شأنه أن يكون طريقا للحصول على المعلومات منك أو يستعمل فى تهديدك والسيطرة عليك وتجنيدك .

٨ – تجنب المقابلات غير الطبيعية والخدمات التى تقدم اليك دون مقابل فان وراءها محاولة لتوريطك والسيطرة عليك تمهيدا لتجنيدك .

٩ – اذا كنت فى مهمة تتطلب بالمحافظة على سريتها وما تحمله من أوراق أو مستندات وما تتطلبه مهمتك من اتصالات أو تعاقدات .

١٠ – اذا وجدت نفسك فى ظروف غير طبيعية تقدم لممثلنا الدبلوماسية أو القنصلية لابلاغها عن موقفك حيث تجد النصيحة والرعاية والأمان .

١١ – أن من حق الوطن على أبنائه أن يدونوا عنه ويبلغوا عن أى اتصالات مريبة لتلقى التوجيه اللازم ضمانا لسلامتهم وحماية للوطن .

وفى النهاية :

نتمنى لك التوفيق وندعو لك بالخير والعودة بسلامة الله .

الأمن القومى

نشرة أعدتها المخابرات ووزعت على المسافرين إلى الخارج في الموانى والمطارات

والوفود والتعيينات وعربات نقل الجنود ووحـــدات الرادار الميدانية من أماكن ايوائها ومرقت بين الجماهير ، فى طرقات المدن وأمام القرى فى طريقها إلى جبهة القتال ، دون أن يفكر أحد فى ممارسة هواية الثرثرة البالغة السفه والسخف أيضا .

ولقد لمست بنفسى نتيجة ذلك العمل الفذ ، الذى أفخر بأنى أسهمت بجهد متواضع فى إنجازه ، إذ حدث أن توقفت على طريق يمر بين قرى الدلتا ، قبل حرب اكتوبر بفترة قصيرة ، وعن لى أن استفسر من فلاح عجوز وجدته هناك عن تلك الطائرات الجاثمة بين الحقول ، ولثوان قليلة أخذ العجوز يحدق فى وجهى من خلال تجاعيد السنين التى غطت ملامحه ؛ وبدلا من أن يجيب صاح مناديا فتى كان يضرب بفأسه فى حقل على الجانب الآخر من الطريق ، ولما كنت أعرف أن هؤلاء القوم يستخدمون فؤوسهم التى لا يملكون غيرها فى القتال ، انطلقت هاربا وسباب العجوز يتلاحق فى أعقابى وكان جهل الرجل بالقراءة ، الذى حال بينه وبين التقاط رقم سيارتى قد تركه فى حالة من الغضب المفعم بالغيظ لا يمكن تخيلها .

وبعد انقضاء زهاء ثلاث سنوات على نشر مقـــالاتى فى «أخبار اليوم» تلقيت استدعاء مفاجئا لمقابلة الرجل الذى ابتكر وقاد خطة التوعية، وكان الجهد المضنى الذى بذله قد ترك آثاره على ملامحه ، ومع ذلك بدا راضيا عن نجاح مهمته وهو يتحدث عن مختلف الصعاب التى تمكن من تذليلها ، والشخصيات التى تفانت فى معاونته ، وبعد ذلك اتجه مباشرة إلى الهدف الذى استدعانى من أجله ، أن أكتب سلسلة من المقالات فى جريدة يومية .

ورغم انى كنت أقوم فى ذلك الوقت ــ مايو ١٩٧٣ ــ ببعض المهام فى مجال الحرب النفسية ، إلا انى آثرت عدم الافصاح عنها ، فاعتذرت مستعينا بنفس الكلمات التى طالما رددها الكاتب الانجليزى «ادجار والاس» : «قد يكون الأديب عشيقة رائعة ولكنه زوجة سيئة» . ولكن عادل لم يكن من الطراز الذى

يتخلى عن هدف وضعه نصب عينيه ببساطة، فاقترح أن تكون المقالات أسبوعية. وابتسم ابتسامة رقيقة ثم أضاف :

— ربما كانت لديك واجبات جسيمة فى الوقت الحالى . ولكنك تستطيع اختلاس بضع ساعات كل أسبوع لتكتب صفحة فى جريدة. أو حتى نصف صفحة.

واتفقنا على أن أكتب نصف صفحة كل أسبوع — أى ثمانى صفحات فى حجم الفولسكاب — واقترح عادل أن أتناول فى هذه المقالات جانباً من أنشطة عملائنا داخل إسرائيل ، وقال بصوت هادىء :

— اعتقد أننا قد قطعنا شوطا بعيداً فى تصحيح النظرة العامة عن مخابراتنا وعلينا أن نصحح ذلك التصور الخاطىء عن « مقدرة » عدونا، ولقد أصبحت لك سابقة فى الكتابة للصحف ، وسوف تسلك فى هذه المرة طريقاً ممهداً .

ومما يثير الاندهاش حقاً، أن الرجل تطرق بعد ذلك إلى موضوع غير متوقع، إذ ذكرنى بعبارة كان « موشى ديان» قد أدلى بها إلى أحد الصحفيين.. وكان هذا الصحفى قد سأل «ديان» عن السبب الذى دعاه إلى تطبيق نفس الخطة العسكرية التى شرحها بالتفصيل فى كتاب أصدره عن معركة سنة ١٩٥٦ بعنوان « يوميات معركة سيناء » فى حرب ١٩٦٧ ، فأجابه «دايان» بلهجة متعالية :

— إن العرب لا يعرفون القراءة .

وتناول عادل نسخة من صحيفة «معاريف» وأشار إلى عبارة «دايان » التى كانت تتوسط الجريدة وتحتها خط أحمر ثم أضاف:

— لقد رأيت من المناسب أن أطلعك عليها .

وفى الخامس والعشرين من مايو فرغت من كتابة أول مقال فى مجموعة المقالات التى اخترت لها عنوان «رحلة الى الجانب الآخر من التل» وفى نفس اليوم اتجهت الى مبنى جريدة «الأخبار» وهو نفس مبنى «أخبار اليوم» وكانت الساعة تقترب من العاشرة مساء عندما صعدت الى الطابق الأول . وكانت الممرات خالية

وحجرات الموظفين موصدة الأبواب، بينما انبعث هدير الآلات بصورة مبهمة من خلال الجدران، ودلنى أحد الأشخاص على غرفة سكرتيرة رئيس التحرير . وهناك استقبلتنى فتاة سمراء رقيقة بابتسامة مهذبة ، ثم سألت عما إذا كنت قد حصلت على موعد مسبق، وعلى الفور أجبت بالنفى ، ثم أضفت :

— اعتقد أن لدى شيئا يرغب رئيس التحرير فى الاطلاع عليه .

وخلال دقيقتين كنت أجلس فى مواجهة ذلك الصحفى اللامع موسى صبرى ووجدت أنه لا يختلف كثيراً عن الصور التى نشرت له من قبل ، بدانة تشرشل ورأس ستالين ونظارة هارى ترومان، وكانت عيناه الصحفيتان تتألقان بالفضول واكتشفت أن الرجل عذب الحديث ملم بالجوانب المعقدة للسياسة الدولية ، وقد تلاقت أفكارنا بسرعة، وبعد حوالى نصف ساعة أخذنا فى مناقشة أسلوب النشر .

واقترح موسى صبرى تبديل العنوان الذى اخترته لمقالاتى، وقال أن «قصص من قلب إسرائيل » يعتبر عنوانا أكثر تطابقا مع المضمون ، وحاز هذا التعديل قبولا من جانبى ولكن مشكلة مفاجئة اعترضت الطريق، إذ ألقى الصحفى القدير نظرة سريعة على مقالى ثم قال أنه لا يوافق على النشر إلا إذا سلمته ثلاث مقالات أو أربع ، ولكننى نجحت فى اقناعه بالنشر على أن أسلمه المقال التالى قبل يومين من موعد طباعته .

ورتبنا العمل معاً بنظام محكم، وقرر هو أن أنسب أيام الاسبوع لهذا النوع من المقالات هو يوم الجمعة، وتعهدت بأن أرسل الى مكتبه بعد ظهر الاربعاء من كل أسبوع مظروفا مغلقا يحتوى على المقال وأن أقوم بمراجعة مسودة الصحيفة مساء الخميس لأتأكد من مطابقتها لما كتبت .

واستمرت «قصص من قلب إسرائيل» فى الظهور أيام الجمع ، وكان موسى صبرى يحرص على أن يكتب بقلمه مقدمة قصيرة فى بداية كل مقال بعد أن يقرأه بعناية، وكان «قارئى» التالى هو ذلك الصحفى الشهير والصديق عبد السلام داود

نبوءة بالنصر

فى العالتين تشعر بسعادة غامرة
وحقيقية ، هـ.ذلك الاسمى ان تسلل
لترى [illegible] الصورة
واضحة [illegible] من يشكرون القرار
اعرف ان الالم كان يعتصرك قديما
لان احدا لم يكن يسمع ما تقوله
حبراؤك القدامى . ولكنك واصلت
اداء دورك دون كلل او يأس ،
الصفحات القديمة طويت الى غير
رجعة والتجارب علمت الجميع ان
الموقف لم يعد يحتمل الارتجال
واللامبالاة المتبهمة .
تستطيع الان ان تطمئن .

— ... . .
جلبته ((ابيت)) صا
وجلست فوقه ، القت نظ
الطفل الذى كان يحلول
نفرح منذ [illegible] الفك
استسلمة ثم بدات تتحد
ـ كنا سعداء فى ال
ابى ناجحا وحياتنا ها
الى فرنسا بحثا عن ف
اقمنا هنالك عشر سنوات
مسكن ممتاز ولان الاسر
كنا نحصل على اعانات
جئنا الى هنا منذ احد

... ادى اتحاد الجمهوريات العـ ...

جريدة الأخبار الصادرة صباح الجمعة ٨ / ٦ / ١٩٧٣

يوم الهجوم



تعلن الج
الالتحاق لل
علم الجوامع
ماجستير
الدراسا
التاريخ) ال
تدريس الا
الانسان –
ويقبل
من احدى
الاقسام
التي حد
وتمن

– ولكن يجب ان يكون يوم سبت ؟
اعتقد انهم اختاروا يوم السبت لانه عطلة .
– هذه مشكلة اخرى ، ولكن هل نسمي اليوم ((سبت)) ، نحن الآن في فجر الاحد .
– لاشان لي بهذه التفاهات ، احس بالجوع .
– انتظر الى ان نصل ، سوف ناكل حمولة سفينة .
– الآن يجب ان اغمض عيني لاحلم :
وفي فيلا انيقة تطل على الشارع الرئيسي في حي ((تصهك)) – حي كبار الضباط الارستقراطي في تل ابيب ، ...

الهجوم يوم سبت

أعتقد أنهم اختاروا يوم السبت لأنه عطلة

... والتـاريخ

بديه خلف ظهره ...
الناصر : لقد قضيت الليل ...
انتظر عودتهم .
واجاب السادات ضاحكا
كنت واثقا من انهم سوف ...
انني اعرف ((أولادنا)) جيدا
وفي الطابق الثاني من ...
الذي حدثتكم عنه كانت ...
الآلات تعمل بمصابيح ليلة
الانقلاب ، وعدد من فناجين
القهوة ومنفضة مكتظة بـ...
السجاير أما السيد الذي
اقام صوالية فلم يكن ...

بإيقاف الآلات التي الغرض . وفي نفس
الوقت كانت الهليكوبتر تمر بين مجموعة
من الجبال العادة الشاهقة وهمس واحد
من الضفادع الثلاثة في اذن زميله : ان
هؤلاء ... [illegible] ... الظلام
كالخفافيش ، ولكنني كنت افضل لو
كانت هذه الرحلة في ضوء القمر .
ـ لا شك انك على صواب . هل تعرف
التاريخ الهجري .
ـ نعم .. ٦ رمضان .
ـ ... [illegible] ... في ١٤ من
الشهر العربي . في المرة القادمة لا بد
ان نقترح هذا التاريخ .

... النبأ البهيج ولكنه
... ان الساعة
والنصف ، اين
... ، كان يجب
... في الثانية وسمع
... والنصف كان
... ((ميناء)) ...



... ورقة الحوار الوطني

((بقية المنشور ص ٣))

الثورة التكنولوجية ، ثم نشأ ان نحرم انفسنا من نتاج التعاون الانساني ... مع الغرب .

ولئن كان هذا التساؤل هو الاهم من اهم عوامل الانفتاح الاقتصادي العالمي .

وكان من اخطر نتائج الثورة التكنولوجية التوسع في انتاج أسلحة الدمار الشامل ، وفي انتاج الاسلحة التقليدية . واذا كان انتشار اسلحة ... الشامل قد ادى الى اقامة

ان تقوم مصر بدراسة ... هذه المتغيرات العالمية على ... الوطنية والتنموية ، ... السياسات التي تمكننا من ... هذه المتغيرات ورسم ... واستراتيجية وخطط ... والقومي .

اننا بسيادة ... الوثائق ... ، ولاننا ان نتم هذه السياسة على ... ومن الضروري ان ... تصورنا لتأثير سياسة ... العلاقين على ...

.. والتاريخ ٦ رمضان

في المرة القادمة لا بد أن نقترح هذا التاريخ

عدد الأخبار الصادر صباح الأحد ٥ /٨/ ١٩٧٣

نصيحة المخابرات الإسرائيلية

واودهنا ان اهمس فى اذن المخابرات الاسرائيلية ، بأن تراعى فى المستقبل موهبة المؤلف ، ومقدرة المتخصصين الذين يراجعون هذه الكتب حتى لا يأتى الكتاب فى صف المصريين بدلا من ان يكون ضدهم !!

ونظرا لان ثمة ازمة فى الثقة كما بينى وبين المخابرات الاسرائيلية — وهذه ترجع الى اسباب خاصة قد [illegible] فيما بعد — فاننى [illegible] [illegible] الامثلة التى [illegible] فى كتاب [illegible] اليه صدق نصيحتى تلك الامثلة التى اعتبرها خير دليل على [illegible] المذومة [illegible] فيما يبدو ملكة الا[illegible] البارعة التى يزعم انه يتميز بها .

فالمؤلف يروى قصة تجنيده فى مخابرات اسرائيل ، وتكليفه بالعمل

نكد !! ولكن من [illegible] نهاية العالم ، بالنسـ[illegible]

كل شىء يتوقف عند [illegible] الاعدام يمكن أن تكون [illegible] بسنتين او ثلاثا ، [illegible] هل تريد شيئا من [illegible]

— نعم اريد ، [illegible]

وطلب من الحارس [illegible] على نداءه ، ثم [illegible] واخرج علبة سجائر — على المائدة ثم قال

— هل من الممكن [illegible]

— بالطبع ، سو[illegible] السجائر التى [illegible] لوكو ، قبل ان [illegible] ان ازيلك شيئا و[illegible] مائدة على الاطلاق اننا نعرف كل شىء

المقال الأخير

عدد الأخبار فى ١٢ أغسطس ١٩٧٣

وفى وقت لاحق عرفت أن العاملين فى صالة التحرير كانوا يقرؤون المقال بترتيب ابتدعوه لأنفسهم، وكان ذلك دافعاً له قيمته ، لكى أواصل الكتابة بحماس ،

وكان موضوع المقال التالى ، غارة قام بها رجال الضفادع البشرية على ميناء إيلات بمعاونة معلومات مفصلة مدنا بها أحد جواسيسنا هناك، وأسفرت هذه الغارة الناجحة عن تدمير سفينتين حربيتين إسرائيليتين، وقد تمت العملية فى الساعة الواحدة صباحا يوم الأحد السادس عشر من شهر نوفمبر ١٩٦٩ ، وأحدثت دوياً هائلا .

وقد حدث أن أوردت خطأ تاريخ الهجوم ، فبدلا من أن أكتب أنه تم صباح الأحد ،ذكرت أنه وقع صباح السبت ، وقلت اعتقد أنهم اختاروا يوم السبت لأنه عطلة ، واضفت ان التاريخ هو ٦ رمضان ، وأننا سوف نقترح هذا التاريخ فى المرة القادمة .

ونشر هذا المقال فى «الأخبار» صباح الأحد التالى الخامس من أغسطس ١٩٧٣ ، قبل حرب أكتوبر بشهرين ويوم واحد .

إن الجرائد والمطبوعات على اختلاف أنواعها تعد مصدراً رئيسيا فيما يعرف علميا فى ميدان المخابرات باسم المصادر العلنية ، واعتقد أنهم هناك فى تل أبيب يعكفون على دراسة مصادرنا العلنية كما نفعل نحن ، ولا شك أن المقالات التى تدور حول أعمال المخابرات تحظى بعناية أوفى من غيرها ، فكيف لم تتنبه المخابرات الإسرائيلية الى ذلك التحذير العلنى الذى سقته إليها ؟

أليس ذلك رداً صريحا يتسم بالاستهانة على تلك العبارة المتعالية التى أفلتت من لسان الجنرال الإسرائيلى موشى دايان فى أعقاب حرب سنة ١٩٦٧ ، عند ما سمح لنفسه باطلاق حكم مفرط فى التبسيط — ولا أتجاوز كثيراً إذا قلت والسذاجة أيضا — بأن العرب لا يعرفون القراءة.

٧

رقصة على أنغام جيتار

فى مدينة لندن ، يحتل مكتب الإستعلامات الإسرائيلى « توريسرائيل » جزءا من المبنى رقم ٥٩ بشارع جيمس ، وهناك يستطيع أى عابر أمام بابه الزجاجى أن يلم بكل محتوياته إذا ألقى نظرة خاطفة ، ثلاثة مكاتب معدنية ، وموظف أحدب ذا هيئة مشوشة فى حوالى الخمسين . . تجلس الى المكتب المقابل لمكتبه امرأة نحيلة تحتفظ بمسحة من جمال قديم. أما المكتب الثالث فصغير كما أنه مهجور وقد وضعت فوقه آلة كاتبة وكوب من الورق وحقيبة نسائية يبدو أنها تخص تلك المرأة النحيلة، لأن المقعد المواجه له شاغر منذ أمد بعيد .

وللوهلة الأولى يتضح اهتمام القوم بشئون الدعاية، فالجدران تغطيها صور بديعة من النوع السياحى يتابيع «زوهار» الدافئة فى البحر الميت ، وصخرة سليمان الحمراء بالقرب من إيلات، والبئر التى حفرها ابراهيم ـ عليه السلام ـ منذ أربعة آلاف سنة فى بئر سبع ، كذلك علقت فوق رأس الأحدب صورة كبيرة لطائرة تابعة لشركة «العال» وأمام ذيلها ثلاث مضيفات فى ثياب قصيرة تكشف

عن أفخاذهن ، وترتدى اثنتان منهن أحذية عالية حتى ما تحت الركبة . أما الثالثة فحذاؤها عادى لأن ساقيها جميلتين .

وقد حدث فى صباح يوم من أيام أبريل سنة ١٩٦٩ أن دخل إلى المكتب شاب يناهز السادسة والعشرين من عمره ، يتميز بعينين مستطيلتين وبشرة صفراء وتكوين دقيق، وينسدل شعره الأسود الكثيف تحت قبعة عريضة الحواف من القش الزاهى الملون . . وكان هذا الشاب الذى يدعى أنه من رعايا «هونج كونج» يرغب فى التعرف على التفاصيل المعتادة التى تهم من هم على شاكلته من الشباب المغرمين بالسفر والترحال — أرخص وسائل الانتقال — وأقل أماكن الاقامة من ناحية النفقات . . وكان واضحاً أن هذا المسافر الفقير يعمل موسيقيا متجولا ، فمن يده اليسرى تدلت «آلة جيتار» .

لم يحظ الموسيقى الصينى باحترام الموظف الأحدب أو زميلته النحيلة . ولكنه كان مهذباً . فتجاهل نظرات الجفاء التى استقبلاه بها، وأسند جيتاره بحنان إلى الجدار ثم أعرب عن رغبته بانجليزية دارجة تشوبها لكنة أهل الشرق . . وأضاف أنه يود قضاء أطول مدة ممكنة فى إسرائيل ، واستخدم يديه فى التعبير عن عواطفه الحارة ، ثم وقف ساكناً فى انتظار الجواب.

وباقتضاب شديد أجاب الأحدب وهو يفحص الشاب بعينيه . . وفهم الفتى أن ثمة خطا ملاحيا يربط إسرائيل بميناء مارسيليا الفرنسى ، وأنه ليس فى حاجة بوصفه من «هونج كونج» إلى «فيزا» لدخول إسرائيل . . وفيما يتعلق بالإجراءات الصحية،كان عليه أن يحصل على شهادة تفيد تطعيمه ضد مرض الجدرى . . أما إذا كان قد قضى أربعين يوما فى بلد أوربى فإن شهادة التطعيم تغدو غير ضرورية . وفى اسرائيل — هكذا قال الأحدب — توجد دور ضيافة للشباب ، تتقاضى أجوراً رمزية للاقامة ويقدم بعضها وجبات طعام رخيصة للنزلاء كما أن الحياة ليست باهظة التكاليف .

ـــ وكم شهراً يسمحون لى بالبقاء يا سيدى؟!

ـــ ثلاثة أشهر . . ولكنك تستطيع الحصول على اذن بتجديد فترة الإقامة . . آه . . أين تقصد ؟!

ـــ سأتجول يا سيدى . . ربما فى تل أبيب . . وسوف أزور أورشاليم .

ـــ حسناً . . فى تل أبيب مكتب لمثل هذه المشكلات . . اسأل فقط عن برج «شالوم ماير» أما فى أورشاليم . . فالمكتب فى شارع . . انتظر لحظة . . هذا هو . . . شارع الملك جورج رقم ٢٤

ـــ شكراً يا سيدى.

كان الشاب هادئاً رقيقاً شأنه شأن بنى جنسه الأصفر . وقد نطق بكلمات الشكر بصوت خافت وهو يومىء برأسه للأحدب، وبحركة رشيقة استدار ولمس قبعته ثم انحنى للسيدة بأدب جم،وبعد ذلك غادر المكتب دون أن يلتفت وراءه ولم يكن هناك ما يبعث على الريبة فى مظهر موسيقى صينى يسرع الخطى فى شوارع لندن المزدحمة، ولو أن شخصاً ما قرر أن يقتفى أثره لما وجد فى سلوكه أيضاً ما يبرر الارتياب .

لكن جلية الأمر أن الشاب لم يكن سوى عميلا فطنا يدعى «لى تاو» . . وقد عرف فيما بعد أنه ولد فى مصر لأب صينى مسلم يدعى «لقمان»،وكانت أمه سيدة مصرية مثقفة تربط أسرتها بالصين روابط مصاهرة قديمة ، وعند ما بلغ «لى» العشرين من عمره أرسلته المخابرات المصرية فى رحلة طويلة طاف خـــلالها بأرجاء شرقى آسيا وزار هونج كونج ، وعندما عاد كلف بالسفر الى لندن ليتخذ طريقه الى إسرائيل فى مهمة أحيطت بالسرية التامة منذ بدايتها .

ففى ذلك الوقت .كانت المخابرات المصرية تتوق إلى التعرف على ركيزة إسرائيل الأساسية فى توقى الهجوم من الجو،والتى تتمثل فى قواعد صواريخ «هوك» ورغم أن هذه القواعد كانت معروفة لعملاء المخابرات، منشآتها ووسائل تمويهها ونظام حراستها واعداد الصواريخ المجهزة فى منصات اطلاقها ، كما كانت

أماكنها موضحة على خرائط ذات مقاييس رسم صغيرة ، إلا أن الصاروخ نفسه ، عصب الدفاع الجوى الإسرائيلى كان سراً دفينا من الأسرار الغالية البعيدة المنال.

كانت المعلومات المتوفرة عن صاروخ «هوك» — ومعناها الخطاف — لا يتعدى البيانات التى تذيعها معاهد الدراسات الاستراتيجية العالمية، والمقالات التى تنشر فى المجلات ذات الطبيعة العسكرية ، وبعض الصور المأخوذة عن قرب لمراحل اطلاقه المختلفة ، بالاضافة إلى مشاهدات الطيارين المصريين الذين تمكنوا من الإفلات — بطريقة خاصة — من مطاردة هذا الصاروخ .

ولست أشك فى أن جهود المخابرات المصرية قد بدأت تتخذ شكلا مركزاً فى اتجاه «الهوك» اعتباراً من ديسمبر ١٩٦٨ . لأنها عمدت فى هذا التاريخ الى تحويل أنظار الإسرائيليين بعيداً ، ولتحقيق هذا الهدف تلقيت أمراً بأن أسلم المخابرات الإسرائيلية تقريراً أشير فيه إلى أن الطيارين المصريين ابتكروا وسيلة لتضليل «الهوك» ، ولكن عباراتى التى شرحت فيها هذه الوسيلة تعرضت للشطب بمعرفة ضابط اتصالى المصرى ، الأمر الذى أدى إلى ارسال التقرير ، وقد بترت أهم أجزائه ، واستمرت المخابرات الإسرائيلية بعد تلقى التقرير بفترة طويلة ، تستحثنى على السعى من أجل كشف ابتكار طيارينا دون جدوى .

وفى السابع من مارس ١٩٦٩ أثبتت الحوادث أن تصورى كان صادقا.. إذ أرسل عميل موثوق به من عملائنا فى إسرائيل برقية مفادها أنه تمكن من الحصول على «كراسة» تحوى جميع التفاصيل النظرية والعملية عن صاروخ هوك وكانت هذه الكراسة التى توزعها شعبة التدريب التابعة للجيش الاسرائيلى، تتضمن صوراً واضحة ورسوما يدوية ، وحسابات رياضية معقدة لشرح مدى عمل وطريقة تشغيل «الهوك» كما اشتملت أيضا على وسائل تضليله والعوامل الطارئة التى تسبب تخلفته .

ولأن الكراسة كبيرة الحجم ، إذ تقع فى مائة واثنين وأربعين صفحة من الحجم المتوسط ، استحال ارسالها بطريق البريد، كما أن شعار الجيش الاسرائيلى الموضح على غلافها تحت عديد من كلمات السرية ، جعل عملية نقلها حتى داخل إسرائيل محفوفة بالمخاطر . وفى نفس الوقت ،كانت الوثيقة من النوع النادر الذى يؤدى إلى اتخاذ قرارات جوهرية وربما مصيرية،ولم يكن من المستساغ الاكتفاء بتصويرها ؛ وعلى هذا الأساس تقرر إحضارها الى القاهرة .

وأرسلت برقية عاجلة ظهر الحادى عشر من مارس ، إلى « ٦ .. د » وكان هذا هو رمز العميل الذى تحيط المخابرات المصرية شخصيته بسياج من الكتمان حتى الآن ، ولا تتجاوز المعلومات المتاحة عنه أنه عميل مخلص يؤدى خدمات جليلة بدوافع شخصية ، ويتخذ موقفاً معاديا للصهيونية ، مما يدفع إلى الظن بأنه مازال مستمراً فى عمله ،وفى هذه البرقية طلبت المخابرات من عميلها النشط أن يصور صفحات الكراسة بالميكروفيلم وأن يحتفظ بالافلام إلى أن ترسل اليه شخصا لتسلم الكراسة ذاتها ، وعندئذ عليه أن يرسل الأفلام بالطريق العادى .

وكان الهدف الكامن وراء هذا الازدواج هو ضمان وصول أى من الاثنين الكراسة الثمينة أو صورها ، وبمقدورنا أن نتخيل الأهمية العظمى التى أولتها المخابرات لهذه الوثيقة الفريدة،إذا علمنا أن بقية سطور البرقية كان أمرا موجزا ومشددا ، بأن يتوقف « ٦ .. د » عن أى نشاط سرى ، وأن يلتزم صمت اللاسلكى التزاما لا يقبل الاستثناء ، إلى أن تخرج الكراسة وصورها من حوزته .

ووقع الاختيار على الجاسوس الجديد بالمهام الخطرة ،الفتى المتحمس الذى لا يمكن أن يرقى الشك إلى شخصيته ، واستدعى « لى تاو » على عجل إلى مكتب المدير لكى يتلقى تلقينا مختصرا ونهائيا قبل أن يضطلع بمهمته . وكان «لى تاو »

مبهوراً وهو يتوغل بصفة مفاجئة فى قلب المخابرات ، ووقف الفتى أمام مدير إدارة الجاسوسية دون أن تختلج فى وجهه عضلة ، ولكن كيانه كله تحول الى أذن تصغى بانتباه .

وأوضح المدير للشبل،الذى كان فى الطريق إلى أول رحلة صيد ، أهمية العملية والآمال المعلقة بشخصه ، وبعد ذلك أعاد على مسامعه الخطوات التى كان عليه أن ينجزها بحذر وحكمة وتعقل .. ولم تكن هذه الخطوات عسيرة التنفيذ فى حقيقة الأمر، ولكن الهدف الثمين استلزم أقصى قدر من الدراسة والحرص وفى النهاية وقف الرجل ودار حول مكتبه ثم اقترب من الفتى ووضع يده على كتفه،متمنياً له النجاح .. ومن المؤكد أن قلبه كان يجيش بالمشاعر فى هذه اللحظة .

وفى اليوم التالى طار « لى » إلى « هونج كونج » حيث قضى أسبوعا فى الفسكح،وهناك زودته المخابرات المصرية بوثيقة سفر وقدر مناسب من النقود لينطلق إلى لندن،وكانت الخطة أن يقضى فى العاصمة البريطانية فترة من الوقت. وأن يستفسر أثناء ذلك بالطريق المالوف عن تكاليف الرحلة إلى إسرائيل ، حتى إذا ما كان الثامن والعشرين من أبريل توجه فى السابعة مساء إلى محطة « توتنهام » ليستقل مترو الانفاق .. وفى محطة البنك صعد إلى المترو رجل يرتدى صديرية منقطة وفى يده عصا من الأبنوس مقبضها على هيئة قرد يضحك ، ونصح هذا الرجل « لى » بأن يستقل الطائرة بدلا من تبديد الوقت فى السفر إلى فرنسا وانتظار الباخرة ، واستغرق حديثهما أربع دقائق ذاب الرجل بعدها فى زحام ركاب المترو دون كلمة وداع واحدة .

وفى اليوم الثانى من مايو استقل « لى » طائرة من مطار « هيثرو » متوجها إلى مطار « اللد » وهناك تشككت فتاة ترتدى زياً رسميا وتضع على رأسها قبعة تحلى جانبها الأيسر نجمة داود ، فى أوراق سفره . ولكن الفتى كان رابط الجأش،

فرفع عقيرته محتجاً، وأثبت الفحص أن الأوراق صحيحة كما أن المسافر كان ظريفا لا تحوطه الشبهات ، فسمح له بالدخول.

ومرة أخرى عاد «لى» إلى التسكع دون هدف ، وكان أول موعد فى خطته هو السادس عشر من مايو ، فى هذا التاريخ كان يتعين عليه أن يتوجه الى بركة للقوارب تقع أمام فندق «هولى لاند» فى القدس . كذلك كان يتوجب عليه أن يعزف على أوتار جيتاره من العاشرة حتى العاشرة والثلث صباحا، فقد قيل له أن شخصاً ما سوف يعثر عليه بعد هذه الحفلة الموسيقية القصيرة.

وفى القدس كانت متاعب بسيطة فى انتظار الثعلب الناشىء ، فقد استفسر من الدليل عن رقم تليفون دار الضيافة وأدار القرص بالرقم الذى أعطى له واعتقد أن هذا الرقم وهو ٢٢٠٧٣ ما زال مستخدماً فى الدار حتى الان ، ومن الطرف الآخر جاءته إجابة متغطرسة بأنهم لا يقبلون إلا من هم دون الخامسة والعشرين ، ولم تكن النقود التى تسلمها فى «هونج كونج» تكفى لحياة البذخ ، لذلك أجهد الفتى قدميه إلى أن عثر على فندق متواضع يتقاضى عشرين ليرة نظير الليلة الواحدة .

وبدقة تتفق مع ما جبل عليه «لى» من دأب واقبال على عمله، أحيا حفلته الموسيقية فى موعدها وفى المكان المحدد له ; ولفتت أنغام الجيتار أنظار رجل وفتاة كانا يتبادلان الحب فى قارب صغير وامرأة اسرائيلية من أصل أسبانى كانت تتجول على حافة البركة فوق العشب ويبدو أن الأسبانية الحسناء كانت من عشاق الموسيقى ، إذ اقتربت من «لى» وقبلت وجنته ثم صافحته بحرارة،وبعد هذا الاعجاب الحار عاد العازف الوسيم أدراجه ، وفى كفه كانت ترقد ورقة صغيرة قرأ فيها الكلمات التالية :

— تل أبيب — بيت بروديتسكى — غداً الرابعة بعد الظهر »

وهكذا اتجه «لى» مباشرة إلى تل أبيب .

يقع بيت برودينسكى وسط مدينة تل أبيب فى منطقة تمتاز بالهدوء، وهو مبنى مكون من ثلاثة طوابق على شكل زاوية منفرجة مركزها عند الباب، ويقوم البيت كله فوق جدار من الحجر البارز تظلله شرفة الطابق الأول. وإلى يسار الباب مبنى صغير أشبه بالكوخ بجواره كشك من الصاج اللامع ،وقد وصل « لى » فى الثالثة وخمسين دقيقة وشعر بالارتياح عندما وجد المكان خاليا ، وفى البداية حاول أن يتقى حرارة الشمس المتوقدة بالاستناد إلى الجدار ولكن النتوءات الحجرية آلمت ظهره .. وأخيراً اتجه إلى شجرة وحيدة تقع على مسافة ستة أمتار من البيت وقبع تحتها .

وفى الرابعة تماماً جاءت الأسبانيه فى عربة تاكسى وقد أمرت السائق بالوقوف ثم أشارت بأصبعها «للى» وأجلسته بجوارها فى المقعد الخلفى ، بينما رقد الجيتار فوق ركبته ، وقامت المرأة بإرشاد السائق إلى أن وصلا إلى عمارة حديثة فى شارع «منديل» وهناك هبطا معا.

كان الفتى مطيعاً على عادة الجواسيس عندما يكون زمام الأمر فى يد غيرهم ولم يحاول توجيه الأسئلة كما أن المرأة لم تتبادل معه الحديث مطلقا . وقد تقدمته عندما صعد الدرج وشعر هو وسط الدوامة المثيرة التى انغمس فيها بالبهجة لأن العملية مضت هادئة على هذا النحو ، وأمام شقة فى الطابق الثانى توقفت رفيقته واخرجت مفتاحاً من حقيبتها ودسته فى ثقب الباب ولكنها لم تفتح مباشرة بل أخذت تمر بأصبعها على الحافة الخشبية إلى أن عثرت على بغيتها ، ولا شك أن هذا الاجراء يعنى أنها جاسوسة مدربة تتبع إجراءات الأمن بدقة .

كانت الشقة صغيرة بسيطة الأثاث ولكنها أنيقة ، وألقى « لى » جسده على أريكة فى المدخل ثم وضع قدميه على مقعد صغير وبدا كأنه يود الاستغراق فى النوم ، اما المرأة فاختلست النظر من وراء الستائر المنسدلة على النافذة وباب الشرفة ثم ابتسمت ونطقت بأول كلمة منذ التقيا .. مرحبا .. واكتفى الفتى بالابتسام

ولكنه لم ينبس ، ودخلت هى إلى المطبخ ثم عادت بزجاجة وليمونة وإناء يحتوى على شىء من الثلج . . ولما كان غير معتاد على الشراب اعتذر وتناول كأسه ثم وضعها مقلوبة أمامه فغمغمت ببضع كلمات وصبت لنفسها كأساً القت فى جوفها نصف الليمونة وراحت ترجها ببطء ثم سألته عما اذا كان جائعا فأجاب بالنفى .

وبعد أن جرعت ثلاثة كؤوس كبيرة بدأت الاسبانية فى نزع ثيابها .. وكان هذا السلوك مقبولا لو أنها اقتصرت على الملابس الخارجية وحدها ، ولكن الفتى أصيب بالذهول عند ما وجد أنها تخلع قميصها الداخلى ايضا ، كذلك فكت أربطة «الكورسيه» ثم تنهدت بارتياح بينما الدم يتصاعد الى وجه رفيقها ، ولما لاحظت خجله ضحكت بعنف .. ومن ثنايا الكورسيه أخرجت الكنز الذى كان مخبأ بعناية . . . كراسة «الهوك» .

وانهمك الإثنان فى اخفاء الكراسة داخل المخبأ الجديد الذى وجداه مناسبا فنزعا شريحة من ظهر الجيتار تكفى لمرور الكراسة ثم أعادا تثبيتها بمادة لاصقة ولكن الكراسة اللعينة كانت تتحرك كالجنين الشقى كلما مال الجيتار أو اهتز ، لذلك كررا المحاولة بعد أن وضعا الكراسة فى كيس من النايلون وغمرا الكيس بالمادة اللاصقة ، لكى يعلق بباطن الجيتار ، والى أن تجف المادة اللزجة تركا الجيتار فى وضع ثابت على الأريكة وراحا يتبادلان الحديث .

وعند ما حلت الساعة التاسعة مساء أعلنت الحسناء انها سوف تغيب ساعتين فى مهمة تخصها .. وكان باستطاعة «لى» أن يعد لنفسه العشاء ، كما كانت هناك كمية من علب الطعام المحفوظ فى المطبخ .. وفى التاسعة والنصف كانت المرأة الذكية تبث اول رسالة للقاهرة بعد صمت دام سبعة وستين يوما .. وكانت هذه الحسناء بمثابة عاملة اللاسلكى التابعة للعميل ٦٠ . . د» وكان معنى كسر

صمت اللاسلكى أن الكراسة قد خرجت من حوزتها ، أما الأفلام فارسلت قبل ذلك بساعات معدودة ضمن حركة النقل المنتظمة التى تربط القاهرة وتل أبيب ، مرورا بأماكن مختلفة أخرى وبواسطة عملاء من جنسيات عديدة أيضاً .

عادت المرأة فى موعدها وكانت تحمل بعض الفاكهة ولفافة لينة دستها فى دولاب ثيابها .. وكان « لى » ما زال مستلقيا على الفراش وهو يحدق فى السقف فسألته :

— لم لا تخلع هذه الثياب ؟!

وهم الفتى بأن يجيب بأنه لا يملك بيجاما إلا أنها استطردت :

— اعتقد أن الجو حار بما فيه الكفاية .

ولما وجدت أنه لم يتحرك من مكانه تناولت رداء منزليا من أرديتها والقته اليه .

وعند ما تحدثت شخصيا الى «لى» فيما بعد ، نفى بشدة أن يكون قد مارس الحب مع الأسبانية فى تلك الليلة.. وكان ظنى أن الجاسوسية وما تحمله فى طياتها من خطر محدق ، واثارة تلهب الشعور .. تدفع المرء احيانا إلى تصرفات لا ارادية ، وطالما اقترن التجسس بمباشره النساء والافراط فى الشراب إلا أن الفتى فيما يبدو كان من النوع الذى ينأى بنفسه عن المثالب والأخطاء .

وفى الصباح أسر « لى » لرفيقته أنه لا يملك مبلغا كافيا من النقود ، وكان من المفروض ان يغادر إسرائيل إلى «هونج كونج» ثم يستقل الطائرة الى القاهرة، ووعدته المرأة بتدبير هذه المسألة على أن تلتقى به فى مشرب بشارع قودش.. واتفقا على أن يتوجه فى المساء الى مكتب شركة «العال» ليحجز تذكرة سفر فى أقرب رحلة ، بعد أن يتسلم منها النقود .. ولما كانت هذه اللحظات هى فرصتها الأخيرة فى الانفراد ببعضهما بعيدا عن أعين الفضوليين ، اقتربت المرأة منه وودعته مقبلة جبينه .. ولأول مرة منذ أن وقعت عيناه عليها أزجى اليها كلمات

الغزل، إذ قال ضاحكا أن قوامها ليس فى حاجة الى كورسيه وقدابتسمت المرأة وقبلته المرة الثانية.

وغادر «لى» الشقة فى تمام العاشرة صباح الثامن عشر من مايو .. وبعده بربع ساعة تقريبـــاً خرجت الأسبانية من المبنى مرتدية ثوباً أبيض تحليه نقوش بنفسجية وعلى رأسها قبعة بيضاء يتدلى من مقدمتها قناع من الدانتيل ؛ ولاحظت وهى تستقل عربة تاكسى أن الفتى ما زال واقفاً على الجانب الآخر من الشـارع ولكنها لم تلوح له بيـدها .. كما أنه لم يعرها أى التفـات وكأن كلا منهما لا يعرف الآخر ولم يلتق به من قبل.

وفى الخامسة من مساء نفس اليوم دخل «لى» إلى المشرب المحدد للقـــاء مبكراً عن الموعد بنصف ساعة، وتخير مائدة تطل على الشارع. وأمر بزجاجة من الليمونادة ؛ بينما وضع الجيتار على مقعد بجواره وأسند عنقه على ركبته. وكانت أسرة من المراكشيين تحتل المائدة المجاورة لمائدته ؛ وبالقرب منهم جلس أربعة من اليهود الروس يحتسون الفودكا ويتسامرون.

وفجأة صرخ أحد المراكشيين موبخاً الروس بسبب الضجة التى يبدو أنها ضايقته ؛ واكتفى هؤلاء بالتحديق فى وجه غريمهم ببرود وقال أحدهم «خراشو» ـــ ومعناها حسناً ـــ ثم رفع كأسه وقال للمراكشى «دروجبا» أى نخب الصداقة. ولكن المراكشى صرخ بالعربية :

ـــ لم لا تعود إلى المزارع الجماعية أيها الخنزير ؟

وارتفعت حدة الضجة عندما قذف رجل كان يجلس بين المراكشيين «ببصلة» أصابت وجه الروسى .. وتجمهر روس كثيرون وتجمع المغاربة حول زملائهم

واستل المراكشى مدية طعن بها أحد الروس فأوقعه على الأرض ثم اجتز رأسه أمام الجميع دون أن يجرؤ أحد على التصدى له .

وارتكب «لى» فى هذه اللحظة خطأ جسيما لايمكن تبريره ، إذ سمح لعواطفه أن توجه تصرفاته واندفع محاولا التدخل .. وعندئذ ضربه أحدهم بشىء ثقيل على مؤخرة رأسه فغاب عن الوعى .

وفى الخامسة والنصف وصلت المرأة إلى المكان وذعرت عندما وجدت زحاماً يحجب الباب ، وبعد دقائق سمعت صفارات الشرطة .. ثم جاء رتل من عرباتها وهبط الجنود المدججون بالسلاح وأخذوا فى تفريق المتفرجين . وظنت المرأة أن «لى» قد اكتشف فقبعت بعيداً فى موقع مراقبة . وبعد فترة رأت صديقها محمولا على نقالة والدماء تلبد شعره بينما تدلت يده اليسرى ففهمت أنه أصيب إن لم يكن قد قتل ؛ فعادت أدراجها بسرعة سالكة طريقاً ملتويا إلى حيث كانت تخفى جهاز الإرسال وقامت بنقله إلى مخبأ بعيد فى طرف المدينة .. ومن هناك أرسلت إلى القاهرة برقية تعلمها فيها أن الجيتار وبداخله كراسة « الهوك » قد فقد .

ورغم أن الخطر لم يكن محدقا بالاسبانية إلا أنها كانت ترتجف رعبا ، وهذه هى وساوس الجاسوسية التى لا تستند إلى أساس سليم . فالفتى لم يكن يعرف اسمها كما أنه لا يستطيع حتى لو أجبر على ذلك ــ تحت وطأة التعذيب ــ أن يرشد إلى مكانها . ومع ذلك لم تجرؤ على الاستفسار عن حقيقة الأمر إلا بعد أن انقضت ثلاثة أيام هدأ خلالها بالها وبقى لب المشكلة بعد ذلك قائما . . فالجيتار أصبح فى حوزة الشرطة إلى أن يخرج «لى» من المستشفى .

ولما كانت اصابة الفتى جسيمة نجم عنها ارتجاج مخه مع كسور مضاعفه فى عظام جمجمته . استقر الرأى فى القاهرة على ايفاد عميلين مدربين لاستعادة الجيتار

بأية وسيلة ، وتم احضار هذه الالة الموسيقية بالفعل إلى القاهرة في الشامن والعشرين من مايو ، وعند ما خرج «لى» من المستشفى بعد ذلك بقرابة شهر .. سلمته الشرطة الحاجيات التي عثر عليها في المشرب والتي ثبت أنها تخصه . ولكنهم أنكروا انكاراً تاما عثورهم على الجيتار ، ومن المؤكد أن « لى » قد أصيب بخيبة الأمل — بعد كل هذه المتاعب — لفقد جيتاره ، إلا أن تعاسته لم تدم طويلا ، إذ أبلغ بالقصه كلها بعد عودته إلى الوطن.

وفي القاهرة ، لم يخف اثنان من أمهر عملاء المخابرات دهشتهما الشديدة.. بسبب تلك المهمة التي كلفا بها والتي اضطرتهما الى تجشم مخاطر بالغة ، بهدف استعادة جيتار عتيق لا يساوي عشرة جنيهات ، من أجل ارضاء ضابط مخابرات متسلط سيطر عليه جنون الموسيقى .

٨

عملية
«البيض الطازج»

فى نهاية سنة ١٩٦٧ ، كانت المخابرات الإسرائيلية قد بلغت الذروة ، إذ حصلت كنتيجة لحرب يونيو على بيانات شاملة لوحدات الجيش المصرى، ونماذج حقيقية لكل أنواع الأسلحة التى يستخدمها بالإضافة إلى أعداد هائلة من الوثائق والخرائط ويوميات الميدان ، أما عيونها وآذانها فأصبحت فى وضع يمكنها من الاقتراب حتى حافة قناة السويس ، وكان على المخابرات المصرية ان تفكر مرتين قبل الاقدام على الدخول فى حرب جديدة،او ان تدخل إلى الحرب وكل اوراقها مكشوفة تماما .

وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة ، كان المصريون يدركون ان مخابرات عدوهم اخذت فى التدهور بعد ان وصلت إلى القمة ، وكان انحدارها بنفس السرعة التى ارتفعت بها ، ولم يكن لدى كبار ضباط المخابرات فى القاهرة ، اى دليل على صدق هذا التصور ، باستثناء الحرية التامة التى كان عملاؤهم يتمتعون بها ، فى الاراضى المحتلة والاراضى التى سبق احتلالها ، وكانت ثمرة جهود هؤلاء العملاء فيضا من المعلومات الاستراتيجية والتكنيكية فى مختلف المجالات .

وكان أنبغ العملاء المصريون، وربما أفضل جامع للمعلومات عرفه التاريخ.. غلام لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ضامر الجسد ذو ملامح هادئة وشعر أسود كثيف وعينين توحيان بالغباء والبلاده ولكن الحقيقة ، ان هذا المظهر كان خادعاً يتناقض مع ما يتمتع به الغـــلام من ذكاء غريزى وقدرة هائلة على الاستدراج والملاحظة والتصنت .

وقد عثر أحد ضباط المخابرات ، على الغلام أمام كوخ صغير تحت شجرة هرمة فى منتصف ١٩٧٠ وكان هذا الضابط الفذ يتجول فى صحراء سيناء متنكراً فى ثياب أعرابى ، وكانت لديه دراية واسعة بالدروب والمسالك الصحراوية ، الأمر الذى أهله للمهنة الخطيرة التى كان يتظاهر بامتهانها ، والتى كانت تعد مبرراً منطقيا للنقود التى تتخم جيوبه ، وهى تهريب المخدرات .

كان الوقت ظهراً بينما جلس الغلام ، ويدعى صالح فى ظل الشجرة يحرس زوجاً من الماعز الهزيلة وفى حفرة تحت جدار الكوخ ، رقدت ثلاث دجاجات عجفاء ، وقد أغمضت عيونها ، وكانت هذه الدجاجات هى أول من أنذر باقتراب الضابط ففتحت أعينها وأطلقت صيحات وجله ثم عادت إلى النعاس مرة أخرى.

وعندما عادت أسرة الغلام ، وهى تتكون من أبيه الشيخ وأمه التى تصغره سنا ، اتضح أنهما يزرعان شريطاً ضئيلا من الرمال بجوار بئر ضحلة على مسيرة ساعة من الكوخ ، واتضح أيضا أن الضيف قد عقد أواصر الصداقة مع الغلام وادعى الضابط أنه ينتظر قافلة تحمل إليه شحنة من تجارته التى تدر عليه ذهبا ، وأمام اغراء النقود ، قبل الشيخ استضافة المهرب إلى أن ينجز مهمته وأثناء النهار تحول الكوخ إلى مدرسة للجواسيس ، وأصبح صالح مدربا إلى الدرجة التى تسمح له بأن يبدأ فى مباشرة عمله الذى استهواه إلى حد مذهل .

وقبل أن يغادر الضابط كوخ الأسرة الفقيرة ، بعد أن فشل فى العثور على قافلته المرتقبة ، اتفق مع العميل الصغير على اللقاء بعيداً فى نقطة صخرية على

الشاطىء ، ولكنه كان يفكر فى وسيلة مناسبة تمكن الغلام من التجول فى مواقع الاسرائيليين ، وأخيراً تطوعت دجاجة بيضاء باطلاق صيحة مفاجئة دون سبب ظاهر ، وكان لهذه الصيحة المباغتة أثرها ، إذ اهتدى ضابط المخابرات إلى الوسيلة التى أرهق تفكيره بحثا عنها ، وقرر أن يقوم صالح ببيع البيض الطازج لجنود الجيش الإسرائيلى ، ولكن من أين له بالبيض ؟

عمدت المخابرات المصرية إلى تزويد عميلها بثلاثة ازواج من الدجاج ، ولكن الجنود الإسرائيليين كانوا شرهين إلى مزيد من البيض ، ولم يكن صالح جشعا ، فكان يقبل نظير ثلاث بيضات كبيرة علبة من اللحم المحفوظ أو أنبوبة من المربى مع قطعة معدنية من فئة اجروت واحد ، واضطر المصريون إلى نقل شحنات البيض عبر مياه قناة السويس ، وكان صالح يتلقف البضاعة ويدلى بما لديه من معلومات ويبدو أن الاسرائيليين يميلون إلى الثرثرة كما نفعل نحن ، لأن الغلام كان يحصل على قدر كبير من المعلومات عن طريق الدخول فى أحاديث بريئة معهم .

ومن المذهل أن الغلام كان شديد الحرص ، فلم يحمل أكثر من ست بيضات دفعة واحدة كما اتخذ لنفسه طريقا متعرجا يسلكه فى الذهاب والعودة ، فاذا ما نفد ما لديه من البيض عاد إلى الكوخ لينطلق مرة أخرى إلى موقع جديد وبدا فى نظر الجنود كصديق مهذب وبائس ولكنه مرح ، فكانوا يقبلون على الصياح عليه بمجـــرد أن يظهر فى الأفق ، وكان هو سعيداً بهذه الصداقة التى أتاحت له التجول داخل المواقع الاسرائيلية حتى لو كان خاوى الوفاض .

وقدم صالح خدمات للمخابرات المصرية لا يمكن بأى حال مكافأته عليها ، إذ تعرف على الثغرات فى حقول الألغام المحيطة بأربعة مواقع للمدافع الثقيلة ومرابض الدبابات ، بالإضافة إلى أماكن مولدات الكهرباء ، ومواضع خزانات النابالم مع بيان لغرف الضباط ومحلات نوم الجنود واعداد الحراسة الليلية ، أما نطاقات الاسلاك الشائكة ، فكان يستطيع أن يرسمها بوضوح على الرمال ، رغم أنه لم يرسم فى حياته ولم يكتب حرفا واحدا .

وكان لهذا الجاسوس الصغير فائدة قصوى فى تحديد مواعيد الدوريات، وأماكن تمركز الوحدات المدرعة، وتنقلاتها، وأحرز تقدما كبيراً مع مضى الوقت، فى تمييز الأسلحة، فكان يوضح ما إذا كان الرشاش المقصود خفيفا أو متوسطا أو ثقيلا. كما برع فى تحديد أنواع الذخائر، وكان شغوفا بمدافع الهاون وذخيرتها بنوع خاص، ولعل السبب يرجـــع إلى سهولة تحديد عيارات هـذا السلاح ووضوح العلامات التى تميز قذائفه.

وكان أبرز أصدقاء صالح « ضابط برتبة ملازم أول يدعى » «جعفر درويش» وهو ضابط يهودى من مواليد « جيحانة » فى اليمن، وكان جعفر هذا قائدا للنقطة رقم ١٥٨ التى تعرف باسم موقع الجباسات، وقد ربطت عرى الصداقة بينهما كما جمعتهما اللغة المشتركة، وقد عرف « صالح » أن صديقه ينحدر من أب يمنى وأم فرنسية، وكان ذلك الضابط الطويل القامة، سخيا مع الفتى كما كان ناقما على العنصرية الإسرائيلية وكان صالح يزوره فى موقعه كما كان يصحبه أحيانا إلى الـكوخ.

ولم تكن المعاملة الحسنة فى انتظار صالح دائما، ففى موقع للشئون الإدارية شرقى الجباسات كان جاويش ضخم الجثة يدعى ابرمان، يحتفظ بمشاعر عدائية تجاه الغلام وكان ابرمان التعس ينحدر من أصل ألمانى ولأسباب نفسية كامنة كان يشبع الغلام ركلا ولطما كلما صادفه بالقرب من الموقع، وقد شكا الجاسوس الغض ذات مرة من قسوة هذا الجاويش، ولـكن متاعبه لم تستمر طويلا، إذ عثر على « ابرمان » ذات ليلة من ليالى ١٩٧٢ على طريق بالقرب من موقعه وقد مرت فوقه عجلات عربة نقـــل ثقيلة، ولم يستطع أحد معرفة القاتل حتى الآن.

كذلك حدث أن وقع صالح فى براثن داورية إسرائيلية بالقرب من الشاطىء



مجموعة من الأسرى

السهم يشير إلى المكان الذى كان يجلس فيه الملازم جعفر درويش

ذات مساء، وكان قد اتخذ طريقه إلى المنطقة الصخرية ليلتقى بضابط المخابرات حسب موعد محدد ، وكانت الأمسية شديدة البرودة وكان يرتعد بحده ، وبعد أن قدم تقريره المعتاد أراد أن يأخذ سلة البيض ولكنه فوجىء بصديقه يأمره بأن ينصرف دون أن يحصل على البيض ، ولما عاد أدراجه اقتنصه الاسرائيليون على جانب الطريق المحاذى للساحل .

وواجه الغلام المأزق الذى وجد نفسه فيه بشجاعة خارقة فتظاهر بأنه كان يقضى حاجة ، وأشفق أفراد الداورية على الفتى المسكين الذى كان يعانى من قسوة البرد ، فأطلقوا سراحه بعد استجواب قصير ، وعندما وصل إلى الكوخ وجد سلة البيض إلى جوار مربض الماعز ، وقد شعر بالسعادة وتعلم أن يطيع الأوامر حتى لو كانت غير مقبولة أو من غير مبررات .

ولكن أخطر مهامه كانت فى سبتمبر ١٩٧٣ قبل الحرب بشهر واحد ، إذ تلقى صالح أمراً بأن يثبت سبع قطع معدنية كل منها بحجم ولاعة السجائر الصغيرة فى غرف قادة المواقع والنقط الحصينة ، وكان عليه أن يثبت قطعة واحدة فى اليوم الواحد ، وكانت هذه القطع المعدنية مزودة بقاعدة ممغنطة للصقها فى الأجزاء الحديدية ، كقوائم الأسرة وأسقف الدواليب المصنوعة من الصاج وكان على الفتى أن يتخير الأماكن الصالحة ، التى لا تصل إليها الأيدى ، وكانت مهمته محفوقة بالمخاطر إلا أنه تمكن من انجازها بنجاح .

وكانت هذه القطع المعـــدنية تحوى فى باطنها أجهزة صغيرة للارسال ، وبواسطتها تمكن المصريون من الاستماع إلى كل ما يدور داخل حجرات القيادة الأوامر ، والأحاديث ، وأوامر القتال أثناء الاشتباك الفعلى .

كذلك تمكن المصريون عن طريق الاستماع المباشر لما يدور داخل المواقع الإسرائيلية من التأثير فى نفوس الجنود الإسرائيليين الذين تحصنوا ، فى بعض هذه المواقع ، وأغلقوا المزاغل والأبواب وقبعوا فى انتظار النجدة ، وقد حدث

أن رفض هؤلاء الجنود الاجابة على النداءات التى وجهت إليهم بالاستسلام ، وكانت النداءات بالعربية والعبرية والانجليزية ، ولـكن ضباط المخابرات قدموا النصيحة المناسبة فى الوقت المناسب ، إذ طلبوا من ضابط يدعى « كامل » يتحدث اللغه الفرنسية أن ينادى على الإسرائيليين باللغة الفرنسية ، فأستجابوا على الفور وكان جهاز الإرسال الموجود داخـــل الموقع ، قد كشف عن أن الأحياء المتحصنين داخل الموقع فى الطابق الأول ، لا يتكلمون إلا الفرنسية ، مع بعض اللغات الآسيوية الغير ذائعة .

وفى منتصف سبتمبر قام صالح بعملية أخرى بأوامر من المخابرات ، وتسبب تنفيذها فى شعـــوره بالأسى والألم ، وكانت المخابرات قد اشتبهت فى أن الاسرائيليين أقاموا حقلا جديداً للالغام فى منطقة تقع إلى الشمال الشرقى من موقع الجباسات ، وكان هذا الاشتباه ناتجاً عن بعض التغيير فى الصور الجوية ولـكن الخبراء لم يقطعوا برأى حاسم فى هذا الشأن .

وأقترح خبراء التصوير الجوى أن تقوم طائرات الاستطلاع بمزيد من رحلات الاستكشاف فوق المنطقة إلا أن المخابرات عارضت الاقتراح بشدة ، حتى لا تلفت الرحلات المكثفة أنظار قيادة الجيش الإسرائيلى ، وأحالت الأمر إلى إدارة الجاسوسية التى قررت أن يتولى صالح المهمة التى لا تستطيع الطائرات القيام بها ، وهى التأكد من وجود الألغام أو عدم وجودها .

وقاد صالح زوج الماعز أمامه إلى المنطقة المحددة ووجهها نحو الحقل المشتبه فيه ، وتخير هو تبه عالية وجلس يرقب الحيوانات التعسة وهى تتجول بحثا عن الأعشاب الجافه ، وكلما توقفت كان يقذفها بالحصى وهو يصرخ ليستحثها على التوغل فى المنطقة الخضراء ، وفجأة انفجر لغم من نوع الشرانبل بين قوائم ذكر الماعز الذى كان صالح يطلق عليه إسم « جعفر » فقتل على الفور ، أما «كاترين» فانقلبت على جنبها من تأثير الانفجار ، وأخذت تحرك أرجلها فى محاولة



هذه المواقع المدججة بالسلاح كان الغلام الناشيء يجمع المعلومات

للنهوض ، وعلى الفور انفجر لغم ثان مزقها أربا وقذف أذنيها مخضبتين بالدماء مسافة عشرين ياردة ، وكان المشهد مؤلما إلى حد أن الدموع تساقطت من عيني الغلام الوفى .

وفى المساء كان صالح متأثرا أيما تأثر وهو يدلى بتقريره ، وأبدى أسفه لأن صديقه لم يقدم له أى زوج آخر من الماعز ليقوم بالمهمة ، ولم يكن الفتى الطيب يعرف أن الوقت لم يكن يسمح بأى تباطؤ إرضاء لعاطفته ، وكان وصفه لمصرع حيواناته الأليفة دقيقا رغم مشاعره الجياشة ، ولم يقدم إليه ضابط المخابرات مع عبارات المواساة أى تعويض نقدى ، لأن بقاء صالح نفسه فى الأراضى المحتلة غدا مسألة وقت فحسب .

وصدرت الأوامر بنقل صالح إلى القاهرة مع والديه ، ولم يكن ذلك عملا سهلا ، لأن أى خطأ قد يعرض العملية للاكتشاف الأمر الذى قد يودى بحياة الغلام النابغة ، وكانت المخابرات المصرية تدخر له ما يمكن أن يكفى تعبيرا عن شعورها بالعرفان أزاء جهوده الخارقة .

وفى الحادية عشرة والنصف انتقلت الأسرة إلى الجنوب ، وكان صالح قد نجح فى إقناع والديه بترك متاعهما القليل ولكنه لم يفلح فى اقناعهما بالتخلى عن الدجاجات الذهبية التى أصبحت تزيد على عشرين دجاجة ، ولكن الضابط الذى التقى بالأسرة فى الصحراء كان فظا ، ولم تكن لديه رغبة فى المغامرة بسلامة العملية من أجـــل الاحتفاظ بحفنة من الدجاج تصدر أصواتا مزعجة بلا انقطاع ، فأمر صالح بأن يتجه مع والديه إلى الشاطىء ، وقبل أن يلحق بهم كان قد أنهى حياة القطيع الصاخب بمديته ، ولم يدرك صالح ماحدث لدجاجاته إلا بعد أن استقل قارب المطاط الذى جاء لنقلهم ، وعندما وصل إلى القاهرة أبدى ملاحظة مرحة وسط جو الترحاب الذى أحاط به ، عن رغبته فى اقتناء زوج جديد من الماعز وبعض الدواجن ، وقد أجيب طلبه على الفور .

وغداة يوم الحرب ، أخذ صالح يستفسر بلهفة عن مصير صديقه الضابط اليمنى الذى ترك فى نفسه أجمل الأثر رغم أنه يهودى ، وأبلغ أن موقع الجباسات قد سقط فى قبضه الجيش الثالث وأن صديقه ضمن الاسرى ، فطلب أن يعامل معاملة تتناسب مع الصلة التى كانت بينهما ، وكانت المخابرات وفية لجاسوسها الحدث بقدر ما كان هو وفياً لها ، فأوفدت أحد ضباطها ليشرف بنفسه على نقل الأسير ، وليقدم له كمية إضافية من السجائر نيابة عن صالح وكان جعفر درويش قد استسلم مع أربعة عشر جنديا من جنود الموقع البالغ عددهم أربعة وخمسين فردا .

وفى التاسع من اكتوبر وبينما مصر كلها تترقب أنباء الحرب الدائرة على الجبهة كانت عربة تابعة للمخابرات ، منطلقة فى شوارع القاهرة ، بينما انبعث من جوفها صوت عدد من الدجاجات التى ذعرت من الرحلة المباغتة ، وسط طرقات تسودها الظلمة ، وكانت العربة فى طريقها إلى حيث يقيم صالح حمدان مسلم ، أصغر عميل امتهن الجاسوسية ، بدوافع وطنية بحتة وكان صالح فرداً فى جماعة واسعة الانتشار

٩

الحرب السرية في أوج عظمتها

في شارع ٢٣ يوليو .. أهم شوارع مدينة «العريش» ثمة صيدلية ذات واجهة زجاجية لامعة، صفت وراءها زجاجات الأدوية وعلب المساحيق وأواني العطور الى آخر تلك الأشياء التي تزدحم بها الصيدليات، وفيما وراء الواجهة الزجاجية مكان فسيح يشتمل على ثلاثة مقاعد وثيرة وأريكة منخفضة ثبتت في الحائط، وفي صدر هذا المكان، يقوم بناء من الآجر المغطى بالرخام.. يعلوه شريط من الزجاج تركت فيه فتحة تشبه قوس النصر، رغم أنها صغيرة، ولكنها تكفي لتناول الأدويه ودفع النقود.. ومن هذه الفتحة يمكن للانسان القصير القامة، أن يلمح وجه صاحب الصيدلية ويدعى «الدكتور محمود حمودة».

وقد اشتهر الصيدلي، بين أهالي المدينة، بدماثة الخلق ورقة الحاشية، وهو رجل خجول يتصف بالنشاط... وفي الصباح الباكر.. يراه جيرانه وهو يفتح أبواب صيدليته ويرتدي معطفه الأبيض، ثم يقف في موضعه وراء تلك

الفتحة الصغيرة ، يعد الدواء ويرتب الزجاجات فوق الأرفف التي تملأ الجدران .

وفي صباح كل يوم كان وكيل العريف «دهسو» وهو واحد من جنود الاحتلال يدخل إلى الصيدلية قبل أن يتسلم نوبته في حراسة ناصية الطريق القريبة حيث يلقاه الدكتور بوجه باش وابتسامة مهذبة ، رغم المدفع الرشاش المتدلي من كتفه ، ورغم حذاءه الثقيل الذي يشيع القذارة أينما دب ، وكان «دهسو» هذا طيب القلب يعاني من ألم مزمن في أسنانه .. وبسبب هذا الألم كان يحرص على قضاء دقائق مع «الدكتور» ليحصل على قرص مسكن مجاني ، وليثرثر لبعض الوقت ، ثم يمضي إلى عمله .

لكن الذي حدث في ذلك الصباح ، يوم الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، كان مختلفاً إلى حد ما ، فعندما دخل «دهسو» إلى الصيدلية .. كان أحد الأشخاص قابعاً في مقعد قريب من الباب ، وقد وضع ساقا فوق الأخرى وهو يسند ذقنه بإصبعه بينما انهمك «الدكتور» في قراءة تذكرة صغيرة من تلك التذاكر التي يحررها الأطباء لمرضاهم . ويبدو أن المريض كان يعاني من مرض عضال ، لأن «الدكتور» اغتصب ابتسامة ثم اكتست ملامحه بالوجوم مرة أخرى .

ولم يجد «دهسو» مبرراً للبقاء طويلا ، كما أن الجو لم يكن يسمح بالقدر اليومي من الثرثرة .. فاكتفى بالحصول على قرص المسكن ، ثم غمغم بتحية مقتضبة ، وبعد أن نقل بصره بين الطبيب والمريض .. أسرع بمغادرة الصيدلية .

كان المريض شابا في حوالي الأربعين من عمره ، نحيل الجسد ، واسع العينين .. له أذنين مدببتين وجبهة عريضة وملامح تنم عن السلبية والتعود على الحياة الرتيبة .. ولا شك أنه كان يقاسي من قلق دفين إذ كان يحرك قدمه بعصبية ظاهرة كما كانت عيناه تنظر في اتجاه الطريق بحدة ، كأنه يتوقع خطراً غامضاً .

ومن المؤكد أن تذكرة الدواء كانت صعبة التحضير ، فقد قضى« الدكتور» وقتا طويلا فى قراءتها .. رغم أنها لم تكن تحتوى إلا على نوعين من الأدوية . . ٦ حقن فيتامين ب المركب و ١٢ كبسولة من المضاد الحيوى المعروف باسم كاورومايستين ، وكان هناك خط صغير تحت كل من رقم ٦ وحرف ب ورقم ١٢

وكان معنى هذه الشفرة باختصار أن الهدف رقم« ١٢٦ ب » قد تقرر تدميره ...

وبعد دقائق من الصمت المطبق.. رفع الدكتور رأسه وهمس:

— متى تريد هذه الأدوية ؟

وبهدوء أجاب المريض دون أن يلتفت إلى محدثه :

— الليلة . .

ومرة أخرى غرق «الدكتور» فى أفكاره الخاصة ، وكانت عينا المريض معلقة بشفتيه تنتظر اجابة على النداء الذى وصل اليه من القاهرة ، ولكن الصيدلى لم ينطق ، بل اكتفى بأن أومأ برأسه علامة على الموافقة .

ولم يكن « ١٢٦ ب » سوى محطة محولات كهربائية تقع خلف جسر وادى العريش ، وتشتمل على ثلاثة محولات ضخمة .. كل منها له ثلاثة أوجه ، من الطراز الذى يجرى فيه الزيت مضغوطا ويبرد بتيار هوائى..أما أهميتها فتتلخص فى أنها تمد معسكرات الجيش الإسرائيلى فى سيناء وثلاجات حفظ الأطعمة الهائلة ، وأجهزة التكييف فى غرف العمليات والقيادة بالتيار الكهربى .

ولكن أخطر ما كان يستمد التيار من «١٢٦ ب» هو مركز التصنت الذى أقامته المخابرات الإسرائيلية فى نقطة جيدة الإخفاء على ساحل سيناء الشمالى . . وكان هذا المركز يضم بين جدرانه أجهزة الكترونية متطورة الى أقصى درجة ،

وبفضل هذه الاجهزة كان بمقدور المخابرات الإسرائيلية أن تستمع الى الاشارات المتبادلة بين وحدات الجيش المصرى ، وبين هذه الوحدات وقياداتها فى جبهة قناة السويس .

كانت المهمة شاقة تتطلب جهداً خيالياً ، وكان من الضرورى لإتمام عملية التدمير المطلوبة أن ينقل إلى موقع محطة المحولات كمية من مادة « T.N.T » تزن عشرة كيلو جرامات ، خمسة مفجرات طرقية وخمسة وعشرين متراً من الفتيل المتفجر وقلمين زمنيين يكفى قلم واحد فى الأحوال العادية ، ولكن هؤلاء الشياطين استخدموا قلمين للتأكد من نجاح التفجير ، ولم تكن التكاليف باهظة . . . وكانت هذه المعدات مبعثرة فى طول المدينة وعرضها .

ولعل أسوأ ما فى تنفيذ العملية من مشاق ، هو عملية النقل نفسها . وكان من الواجب أن تنقل مواد التفجير فى وضح النهار عبر الطرقات التى تغص بجنود الاحتلال الى خارج المدينة حيث منطقة الجسر .. وهى منطقة محروسة بعناية . . ففيها يقع جسر السكك الحديدية .. العصب الرئيسى لإمدادات الجيش الإسرائيلى و « كابل » الاتصالات السلكية ، ومحطة المحولات المقرر تدميرها .


عبد الحميد الخليلى

وقد شهدت العريش فى ذلك اليوم نشاطاً محموماً ولكنه سرى ، فبمجرد خروج المريض . . ويدعى عبد الحميد عبد الله الخليلى ، أزاح الدكتور ستارة تغطى مدخل غرفة خلفية تقع وراء المكان المخصص لتجهيز الأدوية ، وفى هذه الغرفة التى تخصص عادة لحقن المرضى .. كانت المفجرات الكريهة ترقد فى علبة من علب العقاقير ، ورغم أن هذه المفجرات شديدة الحساسية للحرارة ، غامر الصيدلى

يوضعها في جيب معطفه الداخلى، ثم أغلق أبواب صيدليته واتخذ طريقه إلى شارع المحطة ..

وهناك كان رجل صلب البنيان قوى الشكيمة ، ويدعى « محمود العزازى » يقف فى ورشة اصلاح السيارات التي يملكها ، وكان الرجل يتحدث الى أحـــد ضباط الجيش الإسرائيلى أمام عربة « جيب » رفعت مؤخرتها إلى أعلى ، وما أن لمح الدكتور حتى أدرك أن شيئاً غير عادى يوشك أن يحدث ، فالقى المفتاح الضخم الذى كان فى يده ، ومسح جبهته بكم سترته الملطخة بالشحم،ثم انتحى به جانبا .

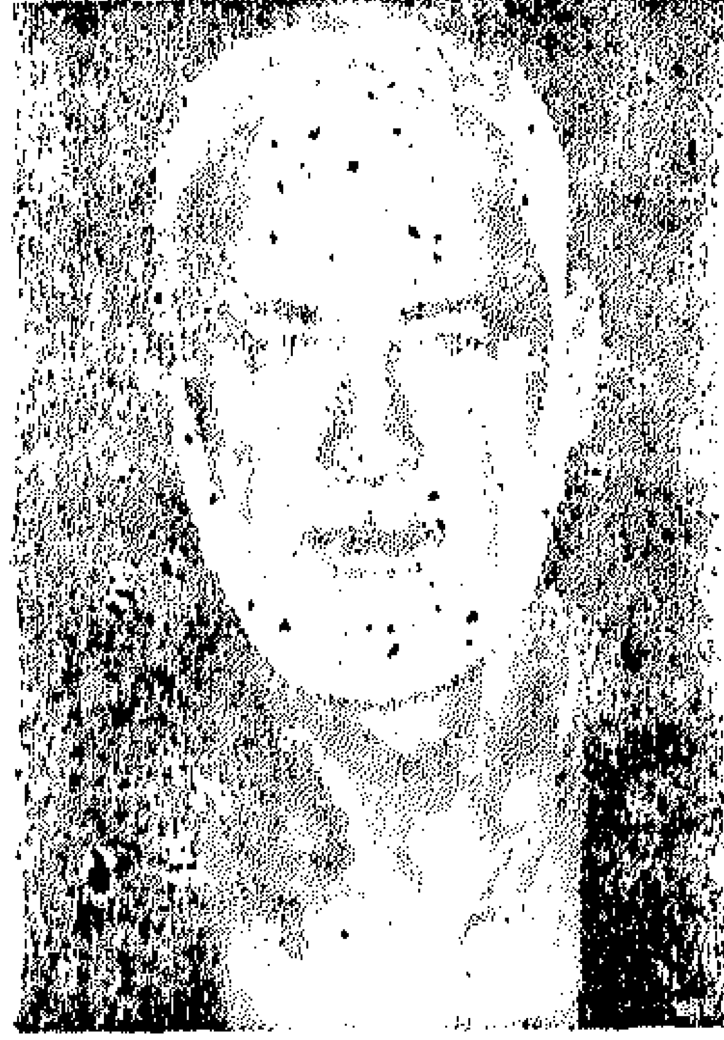
وفى غضون ست ساعات كانت مجموعة بأ كلها تتولى تنفيذ المهمة :

سعد محمود جلبانة تولى احضار المواد الناسفةمن قاع زورق مهجور ..

عبد الحميد الخليلى وهو موظف فى بلدية العريش قام بنقل القتيل المتفجر والأقلام الزمنيه من بيته الكائن فى شارع الشهيد محمد الخليلى ــ الذى استشهد فى حرب اليمن ــ وهو شقيق عبد الحميد إلى رجل ثالث.

وقام ثلاثة رجال بنقل الشحنة كلهـا الى منطقة الجسر : اثنـان من المزارعين أحدهما يدعى محمد عبد الغنى السيد والثانى يدعى عدنان شهاب البراوى .. أجهزا على الحراس الإسرائيليين الثلاثة الذين كانوا يحرسون المحطة .

وفى الحـادية عشرة بالضبط اختفت محطـةالمحولات من الوجود وأصبح على مركز التصنت اللاسلكى أن يكف مؤقتا عن التصنت .



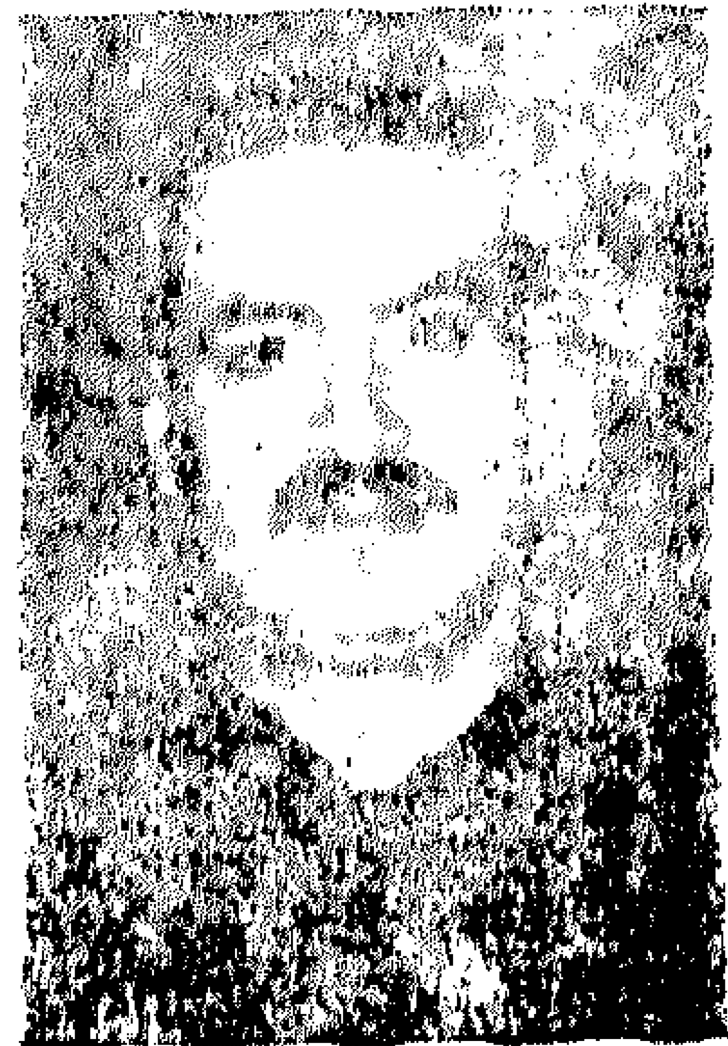
الرئيس : الحاج صباح الكاشف



عبد الحميد الخليلي



سعد محمود جلبانة



عدنان شهاب



محمود العزازي



دكتور محمود حموده

ولكن أغرب شخصية فى هذه المجموعة الغريبة هو الرئيس . كان كهلا تجاوز الستين نحيل القامة إلا أنه يحتفظ بحيوية وجرأة فتى فى العشرين من عمره رجل أشيب بطىء الخطوات ولكنه ثعلب ماكر من الدهاة ، وكان هذا الرجل الأسطورى ويدعى الحاج صباح يعقوب الكاشف ، حلقة الاتصال بين المجموعة كلها وبين المخابرات ، أما الاتصال اللاسلكى فكان يقع على عاتق اثنين، عبد الحميد الخليلى وكان رمزه «٩١ س.ص» ورجل طموح مغامر يدعى سعد محمود جلبانة أما رمزه فكان «٩٢ س.ص» وكانت أحرف هذه الرموز ثابتة، أما الأرقام فتتغير طبقاً لجدول زمنى محدد وبصفة منتظمة ..

واستطاعت هذه المجموعة أن تقوم بدور مؤثر فى الحرب . ففى السابع من أكتوبر أقدموا على نسف كوبرى السكك الحديدية الممتدة من إسرائيل الى الجبهة . وتمت عملية النسف بوضع ستة عبوات شديدة الانفجار تحت ستة من الدعائم الخرسانية الضخمة ، وكان ذلك فى الساعة الخامسة وخمسة عشر دقيقة ، إلا أن التفجير تأخر حتى الثامنة والنصف بالضبط .

كذلك قاموا فى الساعة الثانية وست وعشرين دقيقة من مساء الاثنين ٨ أكتوبر بنسف «كابل» الاتصالات السلكية الرئيسى ، وهو «كابل» أقامه الجيش الإسرائيلى بقطر ٤ بوصات ومرفوع فوق أعمدة حديدية مزدوجة أشبه بابراج الضغط العالى . وكانت عملية النسف محكمة وفى أربعة مواضع متباعدة ، حتى تصعب عملية اصلاحه من جديد ..

وليس لدينا شك فى أن هذه العمليات المتتاليه . تركت أثرا جليلا فى سير المعارك العسكرية أثناء حرب أكتوبر ، فبينما كان الجيش الاسرائيلى يواجه موجات المصريين التى تدفقت عبر قناة السويس . . كانت هذه الطعنات

الرهيبة تسدد بأحكام فى ظهره وفى مكان حساس يعتبر مركزا تتجمع فيه شرايين الحياة التى تربط الجيش بقاعدته ، ويوسعنا أن نتخيل حالة جيش فوجىء فى الايام الثلاثة الأولى من الحرب ، بامدادته تقطع الصحراء بتضاريسها القاسية بعد أن توقفت السكك الحديدية ، وإتصالاته بالقيادة الأعلى فقدت ليس شريانها الأكثر أهمية فحسب ولكن الشريان الوحيد أيضاً ، وأذنه المرهفة التى كانت تنقل إليه أسرار عدوه ، أصيبت بالصمم أما غرف عملياته ومراكز قياداته فكانت تسبح فى ظلام دامس .

وليس لدينا شك أيضاً فى أن المخابرات المصرية حققت كسبا كبيراً فى تحديد هذه الأهداف ، وجمع المعلومات التفصيلية عنها ، وأهم من ذلك الاختيار الموفق والادارة الحكيمة لهذا الحشد العجيب من الجواسيس وسوف يبقى دائماً ، قدر هائل من الاندهاش ليحيط بالوسائل التى مكنت المخابرات المصرية من نقل وتكديس المتفجرات والأسلحة التى أستخدمت فى هذه العمليات .

ومع ذلك فلابد من الاعتراف ، بأن هذه الاجراءات وجدت أرضاً خصبة نتيجة لخطأ المخابرات الاسرائيلية التى يبدو أنها أدمنت ارتكاب الأخطاء ، إذ كيف سمحت لنفسها بارتكاب تلك المخالفة الصارخة والرئيسية ، التى تتمثل فى وضع كل البيض فى سلة واحدة ؟! .

ولقد كانت هذه الأعمال الباهرة أقل شأناً من الجهود التى بذلتها نفس هذه المجموعة فى مضمار أعظم خطرا ، الا وهو جمع المعلومات ، إذ استطاع أفرادها أن يرصدوا تحركات الوحدات العسكرية الاسرائيلية ، التى تم دفعها من اسرائيل عبر باب سيناء الشمالى الشرقى لنجدة القوات الاسرائيلية ، التى كانت تخوض غمار حرب لم يكشف النقاب بعد عن مدى قسوتها فى أقصى الغرب .

كان « العزازى » مستمرا فى عمله بحماس ودأب ، وكانت العربات التى تحتاج إلى إصلاح تجد لديه عناية فائقة ، وكانت هناك مشاحنات حادة أيضـــا ، فقد اقترح « الدكتور » بمجرد اندلاع الحرب ، أن يقوم « العزازى » بتخريب هذه العربات بدلا من إصلاحها وباعتباره صيدليا على دراية بالتركيبات الكيماوية ، قام الرجل بتجهيز مادة لزجه ، لدسها فى خزانات الوقود لكى تتوقف العربات بعد مغادرة الورشة بكيلو مترات قليلة .

ولكن ميكانيكى السيارات الحاذق كان يعتنق رأيا مخالفا ، فكان يفرغ من إصلاح العربات التى تتوالى على ورشته بسرعة لتحل محلها عربات أخرى ، ومن السائقين الحمقى والمصابين بذعر الحرب ، حصل الرجل على كنز من المعلومات ، لا يمكن للعقل البشرى أن يدرك مدى ما تحقق عنها ، من فوائد .

وعلى طول الطريق الساحلى ، وفى عقد المواصلات ، أقام أفراد المجموعة نظاما فريدا للمراقبة ، وأدى التوزيع الجيد بالتعاون مع عناصر من مجموعات أخرى ، إلى تتبع محكم للتحركات الاسرائيلية .

لست فى حرية لأن أكشف كل تفاصيل هذه العمليه المعقدة ولكنى أستطيع القاء بعض الضوء على ما أسفرت عنه من نتائج ، بذكر بعض الوقائع الثابتة .

فمثلا تلقت المخابرات المصرية فى العاشرة مساء ليلة ٨/٧ أكتوبر ، برقية من أحد مراكز الارسال ، بالقرب خان يونس تفيد بمرور قافلة إسرائيلية تتكون من كتيبة مشاه ميكانيكية وكتيبة مدفعية ميدان وكتيبة مشاه مدرعة (٣ سرايا نصف جنزير) وسريتين دبابات خفيفة AMX وثلاث سرايا شيرمان م-٥٠ .

وفى الساعة الواحدة والنصف صباح ٨ أكتوبر ، أبرق مركز آخر يبدو

أنه سعد محمود جلبانة بمرور القافلة أمام مدينة العريش وفى نفس الوقت وصلت برقية من المركز الأول ، تفيد مرور سرية دبابات خفيفة من طراز AMX الفرنسية .

وأدرك ضباط المخابرات أن هذه السرية تخلفت عن القافلة لسبب ما وأنها تشكل مع السريتين المسلحتين بنفس الدبابات ما يمكن أن يكون كتيبة دبابات خفيفة .

وبعد خمس ساعات كاملة أفاد مركز ثالث على مسافة ٦٠ كيلو مترا من الجبهة فى المحور الأوسط بمرور كتيبتى المشاه ومدفعية الميدان وحدها ، أما الدبابات فلم يظهر لها أثر ، وعلى الفور صدرت الأوامر إلى سلاح الطيران، للبحث عن سريتى دبابات وكتيبة مشاه مدرعة تتحرك على المحور الشمالى ولدهشة الطيارين الشديدة حددت هذه الأوامر أعداد الدبابات وأنواعها.

وعندما عثرت طائرات السوخوى على الدبابات والعربات النصف جنزير ، قضت عليها فى معركة قصيرة .

وفى الغرفة الخلفية داخل صيدلية الدكتور حموده ، أقامت المجموعة مركز اتصالاتها فى الأيام الأولى من الحرب ، وبينما كان الطبيب الحاذق يجهز الدواء لمرضاه كان عامل اللاسلكى يرسل المعلومات بصفة مستمرة إلى القاهرة .

ومن هذه الغرفة الخلفية أرسلت إلى المخابرات المصرية أول معلومات عن الإمداد الامريكى المكثف لإسرائيل

وتضمنت البرقية الاولى فى هذا الصدد ، نبأ عن طائرات هليوكوبتر بيضاء ، قادمة من ناحية البحر ، وفى أعداد هائلة تهبط فى مطار العريش

وكما قال لى الضابط الذى تلقى البرقية ، لم يكن الرجل يعرف أن الاسطول الامريكى السادس يطلى طائراته باللون الأبيض ، ولكن المخابرات المصرية اكتشفت هذه الحقيقة بمجرد أن أرسلت نسخة من البرقية إليها .

وفى اليوم التالى ، صدرت الأوامر برحلة إستطلاعية خطيرة كلفت بها طائرتان من طراز ميج ١٧ ، للحصول على معلومات وافية من فوق مطار العريش ، وكانت الضرورة تحتم هذه الرحلة ، حتى يستطيع القادة السياسيون والعسكريون أن يتخذوا القرارات الاستراتيجية الملائمة ، ونجمت خطورة الرحلة عن قصر مدى هذا النوع من الطائرات — ونحن للاسف لا نملك إلا طائرات دفاعية قصيرة المدى — وقد أسقطت احدى الطائرتين ، وعادت الأخرى بالنبأ اليقين .

وفى سادس أيام الحرب ، نقلت المجموعة مركز اتصالها اللاسلكى من الصيدلية إلى بيت سيدة مسنة ، فى نفس الشارع . ولم تكن هذه السيدة الطيبة تدرى شيئا عما يدبره ابنها . ٩٢ س .ص سعد محمود جلبانة .

وتم اخفاء جهاز كبير للارسال من طراز C.R.113 فى تجويف بجدار غرفة الطعام وخبىء جهاز من طراز C.B L بحجم حبة البرتقال فى حفرة تحت سور البيت الخارجى ، وكان سر هذا التناقض ، النابع من اخفاء الجهاز الكبير فى الداخل والصغير فى الخارج ، أن الأول يعمل بالكهرباء أما الثانى فيعمل بالبطاريه .

وبعد يومين من العمل فى المركز الجديد ، توقفت البطارية لنفاد شحنتها ، ولم يكن فى حوزة المجموعة مزيد من البطاريات الإضافية ، كما ان التيار الكهربى كان مقطوعا .

ولجأ الرجلان المسؤولان عن الأجهزة ، إلى العضو الوحيد الذى يجد حلا لأى مشكلة فى سهولة ويسر ، صديقهما « العزازى » الذى أمدهما ببطارية انتزعها من عربة عسكرية إسرائيلية وهكذا أسهم الجيش الإسرائيلى ، فى تغذية جهاز للارسال اللاسلكى ، يعمل فى خدمة المخـــابرات المصرية وتمكن الرجلان من تشغيل الجهاز وواصلا الارسال فى اللحظات البالغة الحرج والدقة .

ولكن الأخطاء موجودة أيضاً حتى فى مجموعة نشيطة من الأذكياء ، فقد بقى جهازى اللاسلكى لفترة طويلة جداً فى البيت وكانت هذه مخالفة لقواعد الجاسوسية أدت إلى وقوع الجهازين فى قبضة المخابرات الإسرائيلية ، ورغم أن الضربة كانت موفقة ، إلا أنها جاءت بعد فوات الأوان .

ومن المؤكد أن أحداثاً عديدة وقعت أثناء الحرب كانت ستتخذ مساراً مغايراً لو أن المخـــابرات الإسرائيلية نجحت فى العثور على الجهازين فى الوقت الملائم أو قبل بدء العمليات العسكرية .

كان ذلك فى منتصف الليل يوم الخميس ٨ نوفمبر ، بعد وقف القتال بأسبوعين عندما داهم ضباط المخابرات الإسرائيلية بيت السيدة المسنة ، وهناك عثروا على الصيد الذى أضناهم البحث عنه ، أخـــطر اثنين فى مجموعة من الجواسيس المدربين .

وكانت التهمة واضحة لا تحتاج إلى أدنى عناء لاثباتها ، فقد ضبط الرجلان وهما قائمان « بتشفير » رسالة استعدادا لإرسالها إلى القاهرة وفى حوزتهما ضبطت قوائم الشفرة السرية ورموز التعارف وجدول الأرقام ومواعيد تغييرها . وهذا هو الخطأ الثانى أيضاً ، الاحتفاظ بأوراق الشفرة فى نفس مكان جهاز الإرسال ، وهو خطأ يكفى لتوقيع أقصى عقوبة بالنسبة لجاسوس محنك ، ولكن الرجلين قدما عذرا اعتبره رؤساؤهما مرضيا ، إذ بررا خطأهما الفادح بفيض

الحماس الذى غمرهما كنتيجة للحرب ، ويبدو أنهما استهانا بالإسرائيليين لدرجة جعلتهما يتغافلان عن أبسط قواعد اللعبة .

وفى الساعة الثانية صباحا اقتاد ضباط المخابرات الإسرائيلية الرجلين إلى مبنى محافظة العريش وهناك تعرضا لعملية الاستجواب المبدئية مع ما يصاحبها من شرور ، ولكنهما التزما الصمت ، فتفتق ذهن أحد الضباط الاسرائيليين عن وسيلة ناجحة ، تهديد « الخليلى » باحضار زوجته وابنته الكبرى وتدعى « أمانى » لكى يجرى استجوابهما أيضا .

ورأى « الخليلى » أن من الحكمة تجنيب أسرته ويلات الاستجواب ، فاعترف بأسماء بضعة أفراد من مجموعته ولكنه اخفى الاضرار التى الحقتها بالجيش الإسرائيلى أثناء الحرب ، وكان ذلك منطقيا إلى أبعد مدى .

وهكذا قبض على حلقة واحدة من المجموعة واقتيد كل أفرادها صباح الجمعة إلى سجن غزة المركزى ، وهناك كان على الكهل الوحيد فى الفريق أن يتلقى أكبر نصيب من التعذيب ، فعنده انتهت سلسلة متصلة الحلقات من الجواسيس ، وأصبح من الضرورى أن يجيب على السؤال الذى لم يكن لدى الإسرائيليين سؤال غيره ، مع من يتصل وممن حصل على أجهزة اللاسلكى والمفرقعات والأسلحة .

ولم يحترم أى من الضباط شيخوخة الرجل ، فضرب وجلد بالسياط وربطت يداه بقيد حديدى متصل بسلك مكهرب ، وأمر بالنوم فى حوض مملوء بالماء المثلج ، وفى النهاية ، أجبر على الوقوف عاريا مع « تشبيك » أصابعه خلف رأسه دونما حركة ، وفى الأحوال العادية ، يؤدى هذا الوضع إلى شعور الإنسان بألم لا يمكن احتماله . وفى مدى ستين دقيقة ينتابه احساس بأن طنا من الحديد يجذب كلا من مرفقيه إلى أسفل .

إن هذا التعذيب المتسم بالقسوة يستوقف نظرنا ، ليس طبعا للاسباب الإنسانية ولكن لأنه يكشف عن جهل الاسرائيليين باساليب المصريين فى ممارسة اللعبة ، اننا إمام شبكة تخريب ولابد أن ضابطا محـــترفا كان يقوم بتوجيهها ، ضابط مثل « ماكس بنيت » ولكنه يتبع أسلوبا مختلفا ، و استخدام هـذا الأسلوب ، تنتهى السلسلة دائما عند نقطة تقع قبله مباشرة .

ومن الغريب أن نفس القصة تكررت من قبل ، عندما قبضت المخابرات الإسرائيلية على الشبكة التى أشرنا إليها فى موضع سابق والتى كان يتزعمها أربعة من ضباط المظلات الاسرائيليون ، وعلى رأسهم من يدعى « أهود آديف » ، وإن كنا قد آثرنا عدم التعرض لتفاصيلها لأن المتهمين مازالوا فى قبضة « شاباك » .

كان الحاج « صباح » مصرا رغم عنف وسائل الاستجواب على أنه لا يعرف « الرئيس » كل معلوماته عنه أنه رجل قوى البنية ذا قوام رياضى خشن الملامح يظهر ويختفى دون أى انذار مسبق ويدعى « الكابتن » وكان هـذا « الكابتن » يلتقى فجأة بالحاج « صباح » ثم يصحبه إلى خارج المدينة وهناك يسلمه الأجهزة والمفرقعات وبعد ذلك يختفى دون أن يترك وراءه أثر .

وبالنسبة لى شخصيا لم أستطع التعرف بصفة قاطعة على « الكابتن » كما أن كل ما تمكنت من الألمام به أنه ضابط من المخابرات المصرية يتخذ أسماء عديدة . فهو فى « الحسنة » معروف باسم « منصور » وفى منطقة دير سانت كاترين باسم « زياد » أما فى أبو رديس فيعرف بإسم « فؤاد » . كذلك يتخذ هذا الرجل مهنا عديدة تتفق مع شخصيته الغريبة ، تاجر ومهرب ومتسول واحيانا يعمل بحارا فى موانىء يلفها الغموض بطريقة مفزعة .

وعلى أية حال انتهت متاعب المجموعة ذات صباح مشرق فى الثالث من مارس

سنة ١٩٧٤ فقد قام الحراس الإسرائيليون بجمعهم من زنزاناتهم وخلعوا عنهم ملابس السجن وسلموهم أماناتهم وبذلوا جهداً وفيراً فى العناية بهم ، إذ أسلموهم إلى الحلاق ليزيل الآثار الكريهة التى علقت بهم طوال أشهر السجن الثلاث .

وعند الظهر جاءت إلى فناء السجن عربة أتوبيس من النوع الذى يستخدم فى الرحلات السياحية ، ولدهشة الرجال قيل لهم أنهم فى الطريق إلى القاهرة .

إن القصة جديرة بأن تبعث البهجة فى النفوس ، ففى أعقــاب الحرب كان لابد من تبادل الأسرى ، هكذا تفعل الجيوش دائماً بعد المعارك ، ولكن الاسرائيليين طالبوا أثناء الاتفــاق على عملية التبادل بضابط آخر من ضباط مخابراتهم يدعى « باروخ مزراحى » .

وكان « باروخ » هذا سيء الطالع بقدر ماكان غير جدير بمهنته . فقد أرسل إلى اليمن الشمالية فى مهمة تتعلق بمجموعة الجزر الكائنة فى مدخل البحر الأحمر والاستحكامات العسكرية فى ميناء الحديدة ، وكان اختياره راجعا ، على الأرجح ، إلى إجادته اللغة العربية إذ أنه ولد فى مصر وتعلم فى كلية التجارة بجامعة القاهرة ، ولكن الوظائف التى شغلها فى إسرائيل تركت أثرها على أسلوبه فى التجسس .

وكان قد التحق بالبوليس الاسرائيلى سنة ١٩٥٨ ، وبقى فى هذه المهنة إلى أن الحق بخدمة المخابرات بعد ذلك بعشر سنوات سنة ١٩٦٧ ، وهكذا مارس « باروخ » مهنة التجسس بعقلية هى مزيج من الاقتصاد والضجة المتولدة ، عن صفارات عربات الشرطة ، فقبض عليه ووجد طريقة بوسيلة ما ، إلى القاهرة .

ولأسباب تتعلق بالرغبة فى العناد ، رفض المصريون أن يسلموا جاسوساً فى عملية تبادل لأسرى الحرب ، وفى بداية الأمر هدد الاسرائيليون بأنهم لن

يواصلوا السعى نحو السلام إلا إذا تسلموا باروخ » ولكن المصريين لم يهتموا كثيرا بمسألة السلام هذه ، فلجأ الاسرائيليون إلى وساطة الدكتور هنرى كيسنجر وزير الخارجية الإمريكية ، إلا أن الوسطاء اقتنعوا بوجهة النظر المصرية عندئذ ألح الاسرائيليون إلى أنهم سوف يتحلون بالفضائل الحميدة مستقبلا ، كما تعهدوا بالذهاب إلى المعابد بانتظام كل يوم سبت ، وأستمرت الجهود الاسرائيلية حتى أثناء انعقاد مؤتمر جنيف ، ومع ذلك أصرت القاهرة على الرفض ، فبقى باروخ وتم تبادا الأسرى .

ولكن الأمور تبدلت تبدلا مفاجئاً عندما سقطت مجموعة العريش ، ورأت المخابرات المصرية التى قدرت لهؤلاء الرجال خدماتهم الجليلة أثناء الحرب الأخيرة أن الصواب يقتضى استعادتهم مقابل تسليم ضابط مخابرات فاشل لا نفع فيه ، وهكذا وافقت على عقد الصفقة ، عملية مقايضة عادية وأن كانت سرية ، وفى الرابع من مارس سنة ١٩٧٤ نقل «باروخ» داخل عربة مقفلة إلى موقع «البرج» الذى يبعد ستة عشر كيلو مترا شرقى مدينة القنطرة وأحضر الاسرائيليون رجالنا فى عربة أتوبيس كبيرة ، وتمت اجراءات التبادل فى مدى خمس عشرة دقيقة ، عاد الأبطال بعدها إلى القاهرة .

١٠

هدفنا
إسرائيل من الداخل

احتفل عادة برأس السنة احتفالا خاصا ومن غير مدعوين.. ولكن فى الليلة الأخيرة من عام ١٩٧٠ ؛ وصل إلى بيتى – الذى يقع فى ضاحية الأهرام – رجل غريب لم أوجه إليه أية دعوة .. ولأنه كان يرتدى معطفا طويلا ويضع على رأسه قلنسوة مدببه ، كما أحاط عنقه بدثار من الصوف لم أجد أمامى سوى أنفا بارزا ويدا نحيلة الأصابع تقبض على رسالة صغيرة صفراء.

ويبدو أن هذا الضيف قد بذل جهداً خارقا لكى يصل إلى الباب ، فباب الحديقة تربطه سلسلة غليظة وإن كان السور منخفضاً يستطيع الإنسان القوى الساقين أن يتخطاه قفزاً ، وهناك كلب ضخم يقبع بين الأشجار النابتة خلف السور مباشرة .

ولست أعرف السبب فى أن هذا الحارس الأبكم لم يطلق حنجرته بالنباح .. كما أنى لم أسمع وقع أقدام الرجل فوق الممر المفروش بالحصى. وعلى

أية حال لم يكن من اللائق أن أسأل ضيفى عن الطريقة التى تمكن بها من الوصول إلى مكمنى . .

وكانت الرسالة غريبة بقدر ما كان ذلك الرجل غريباً . . فقد كانت معنونة باسمى ولقبى الحقيقيين وبداخلها ورقة موجهة إلى شخص يدعى « رفيق » . .
ورغم انها كانت خالية من أى توقيع .. إلا انى تعرفت على مصدرها ، فاسم « رفقى » هذا كان الرمز الذى استخدمته طوال الفترة التى قضيتها كأحد عملاء إدارة مكافحة الجاسوسية ، ولم يكن هذا الرمز معروفا لأى إنسان فى هذا الكون باستثناء ضابط كبير من ضباط هذه الإدارة .

وفى الموعد الذى حددته الرسالة . العاشرة صباح رابع أيام يناير ١٩٧١ ، اتجهت إلى المبنى الذى تحتله إدارة مكافحة الجاسوسية .. وبمجرد ان ادليت باسمى المستعار ذاك . . صحبنى احد الحراس إلى الطابق الثانى ، وهناك طرق بابا ينتهى الهدوء ثم تنحى عن طريقى ، وكان الأمر هاما إلى الحد الذى توقعته .. لأنى وجدت فى انتظارى اربعة اشخاص .. منهم ذلك الضابط الذى عملت تحت رئاسته ويدعى «خالد» وإلى جواره شخص ضئيل الحجم أشبه بالفأر ، بينما جلس رجلان آخران على مقعدين متجاورين ، احدهما شاب ممتلىء الوجه أصلع الرأس اما الآخر فعلى نقيضه ، بارز الوجنتين غزير الشعر .

وتولى «خالد» تقديمى للأصدقاء ، وحدق «الفأر» فى وجهى من خلف نظارة طبية سميكة . ثم ابتسم ابتسامة باردة ، وخيل إلى أن اذنيه تحركتا حركة خفيفة .. وبعد أن فرغنا من التعارف .. بدأ «خالد» فى الحديث عن التطورات التى حدثت أثناء غيابنا عن الميدان .. وافاض فى عرض تفاصيل الصراعات الاجتماعية التى طرأت داخل المجتمع الإسرائيلى ، وعدد انما الأحزاب التى ظهرت على المسرح السياسى هناك .

ثم تطرق إلى المهمة التى استدعانا من أجلها ، وكانت تتلخص فى أنه قرر انشاء فرع للحرب النفسية فى إدارته ، وقد وقع اختياره علينا لأننا تعــاملنا مع الاسرائيليين من قبل ، كما أن بعضنا سبق له زيارة إسرائيل ، وكان على فريقنا أن يبدأ فوراً فى شن وإدارة حرب صامتة ضد العدو ، حرب تعتمد على تخريب نفسية الخصم بهدوء ومن غير أى سلاح .

وكان علينا أن نثبت أحقيتنا فى مساندة الدولة وإلى أن نفعل كان من الواجب أن ندبر احتياجاتنا بأنفسنا ، وأن نرسم خطة عملنا ، وأن نقوم بهذا العمل ، بأية وسيلة تصل إليها أيدينا ، وقال خالد ، أن نجاحنا وحده هو السبيل إلى إقناع الآخرين بأننا نستحق مساعدتهم .

هكذا يتحدث رجل المخابرات القديم ، يحدق فى عينيك ثم يرسل الكلمات بهدوء بينما وجهه جامد كلاعب البوكر ، بعد ذلك من حقك أن تقدم اقتراحا أو سؤالا ولكن عليك ألا تسرف فى توجيه الأسئلة ، أما إذا كنت عميلا قديماً فإنك لن توجه اية أسئلة على الاطلاق .

وبعد ذلك قمنا بزيارة المبنى الذى خصص لمكاتبنا ، وكان هذا المبنى مثيراً للانقباض كما أنه كان مهدماً ، ويبدو أنه كان يستخدم فيما مضى كمخزن للوقود ، إذ انبعثت من جدرانه رائحة البنزين ، بينما كانت مجموعة من الطلمبات الحمراء القديمة تقوم أمام أبواب الغرفة التى يبلغ عددها سبع غرف صغيرة على شكل قوس ، وكانت هذه الطلمبات المكسوة بالصدأ اشبه شيئا بشواهد القبور فى جبانة مهجورة .

واكتشفنا بعد أن تجولنا فى مكاتب المستقبل ان باطنها أسوأ من مظهرها الخارجى ، فقد كانت خالية إلا من بعض علب الزيت الفارغة ، وأربعة مقاعد

خشبية متآكلة ، ومائده عرجاء من الصاج الأسود ، وسلة مهملات ممزقة الجوانب ولكن دورة المياه الملحقة بهذا المبنى الخرب ، كانت نظيفة ومزودة بسخان حديث الطراز ، كما أن كل غـــرفة اشتملت على تليفون موضوع ببساطة على أرضيتها .

وبدأ « الفأر » فى العمل بحماس ، إذ خلع معطفه وراح يلقى بعلب الزيت إلى الخارج ، ولما اكتشف أننا نكتفى بمراقبته خلع نظارته وحملق فى وجوهنا بدهشة ، وسأل بصوت خافت عما إذا كنا قد قررنا أن نبقى هكذا دونما حركة ثم اطلق زمجرة وحشية من حنجرته التى تشبه حبة الفول ، فشرعنا فى مساعدته على الفور .

وأستعنا باثنين من الحراس لتنظيف المكان ، وتمكن الفأر من توصيل التيار الكهربى إلى الأسلاك الميته ، وكان هذا الرجل على دراية واسعة بأشياء عديدة فقد أصلح نافذة مخلوعة ، واستطاع أن يوقف المائدة على ساقها المكسورة باستخدام جبيرة من الخشب والسلك ، ثم اختفى لمدة عشر دقائق وعاد محملا بخليط منفر من الأدوات ، مصابيح كهربية ومنفضة من الريش وزجاجة من الحبر الأزرق ، ودلو معدنى ، وأفضى إلينا بسر هذه الغنائم وهو بادى السرور إذ عثر فى جراج يقع خلف المبنى على بغيته .

وفى غضون نصف ساعة كنا قد سطونا على الجراج وحصلنا على ثلاثة مكاتب خشبية مليئة بالشقوق ، وستة مقاعد جلدية قديمة ، ومروحة ممزقة الاوصال ، وعدد من طفايات السجائر ، وفى النهاية أصبحت الغرف مكتظه بالاثاث .

وشعر « الفأر » بارتياح فرفع رأسه الدقيق إلى السقف ، وهناك لاحظ فتحة مستطيلة فى أعلى الجدار ، فطلب منى أن أحمله إليها ، وعبث بأصابعه فى بعض

الأزرار ثم قفز بخفة إلى الأرض ، ولم تمض دقائق حتى كان الدفء يغمر أرجاء الغرفة ، وكان على أن أحمل هذا الرجل لكى يكرر فعلته فى كل غرفه ، وكانت هذه الفتحات متصلة بطريقة ما بجهاز تكييف رئيسى .

ولم يكن خالد قد عنى بتحديد مراتبنا ، ولكن جهود الفار جعلته خليقا بمنصب الرئيس ، واتضح ذلك لنا من سلوكه فيما بعد ، فقد احتل المكتب الأول ثم خصص لكل منا مكتبا ، وقال وهو يلقى نظرة على ساعته ، إننا نستطيع الحضور فى الثامنة من صباح اليوم التالى ، وصمت لبرهة ثم حك أنفه واستطرد بأن علينا أن نحمل معنا ما نحتاجه لرفاهيتنا الشخصية ، أما بالنسبه له فكان واضحاً أنه سوف يقضى وقتا اضافيا فى مكتبه .

وفى صباح اليوم التالى كان مكتب «الفأر» مدعاة للغيرة والحسد ، فقد وضع على بابه زوجا من الأصص الفخارية تتمايل فوقها نباتات زكية الرائحة ، وجلب فراء رخيصا وألقاه تحت قدميه ، كما كانت هناك ستاره مزركشه تنسدل بنعومة على نافذته .

وبعد أن طابت له الإقامة فى هذا المكتب الوثير ، اتصل بنا عن طريق التليفون واحدا بعد الآخر ، ودعانا إلى الاجتماع به ، وخلال هذا الإجتماع به ، اكتشفنا أى نوع من الرجال كان رئيسنا ، فقد تمكن من إضافة الجراج إلى منطقة نفوذنا ، كما وعد بترتيب عربة رسمية لتنقلاتنا ، وقال أن « خالد » سوف يرسل شخصا لخدمتنا ، وأنه يبحث فى تزويدنا بادوات الكتابة من الجزء المخصص لإدارته ، وعاد « الفأر » إلى حك أنفه ثم همس: عليكم ألا تسرفوا فى استخدام أى شىء لأننا لم نحصل على أى مخصصات بصفه رسمية بعد .

وتناقشنا فى خطة العمل وسط جو من التفاؤل ، وقدم لنا « الفأر » مفاجأة رائعة عندما رفع سماعة التليفون وطلب من شخص ما أن يرسل إلينا أربعة أقداح من القهوة تلك القهوة القاتمة التى تجعل الصباح يبدو أكثر اشراقا ، وقال بطريقته المتسمه بالحزم :

ـــ إن التليفونات مخصصة للاتصال الداخلى فحسب ، وإن باستطاعتنا أن نطلب بواسطتها ما نشاء من الطعام والشراب إذا إقتضى الأمر

واتضح لنا أن العمل قد قسم بيننا قبل أن نتلقى الدعوة الأولى فى ليلة رأس السنة ، واختص الأصلع بدراسة الجانب العسكرى من الحرب ، أما البارز الوجنتين فكان واجبه يتعلق بقطاع اليهود الشرقيين فى إسرائيل ، وكلف مؤلف هذا الكتاب باليهود الغربيين ، واحتفظ « الفأر » لنفسه بطائفة الصابرا مع واجبات الرئاسة لهذا الفريق الغريب كله .

وكان على كل منا أن يعد منشورا باللغة العبرية إلى القطاع المحدد له ، وأن نعمل من خلال هذه المنشورات على بث روح اليأس فى نفوس من نخاطبهم بأسلوب غير مباشر ، معتمدين على معرفتنا بعقليات طوائف الإسرائيليين والظروف الاجتماعية السائدة هناك .

وقال « الفأر » أنه سوف يبذل جهده لتزويدنا بالمعلومات الضرورية أولا بأول ، كما أنه سوف يعمل على إيجاد وسيلة ليحصل على الجرائد اليومية الإسرائيلية بصفه منتظمة ، إلا أنه حذرنا من الاسراف فى التفاؤل ، لأن ذلك كله مرهون بإمكانيات ليست فى متناول يده .

وكانت أول هداياه عباره عن مقال نشرته مجلة « ذى فورن أفيرز » الربع سنوية التى تصدر فى الولايات المتحدة وكان المقال بتوقيع « ناحوم جولدمان » ذلك الصهيونى الكهل الذى يشغل منصب رئيس المؤتمر اليهودى العالمى والذى أنفق حياته من أجل إقامة دولة يهودية .

وكان الجديد فى هذا المقال أن الرجل تخلى عن أفكاره المتعصبة بشكل مفاجىء ودعا إسرائيل إلى البحث عن مخرج لتجنب المصير الذى يتوقعه لها ، وتنبأ بأن العرب سوف يحصلون على المعرفة الفنية بأية وسيلة ، وبهذه المعرفة الفنية مع التفوق البشرى الذى يتمتعون به ، سوف يتمكنون من القضاء على إسرائيل فى المستقبل القريب .

واقترح ناحوم جولدمان تحييد إسرائيل كحل لمشاكلها ، وأورد احصاءات دقيقة عن تعداد اليهود فى أنحاء العالم ، واستنتج من هذه الاحصاءات أن اليهود لا يقبلون على الهجرة إلى أرض الميعاد ، وأن الملايين الثلاثة التى هاجرت إلى إسرائيل منذ البداية ليست سوى المخـــزون الطبيعى من اليهود فقراء بولونيا وأوكرانيا وضحايا الاضطهاد النازى ، أما بقية يهود العالم فقد احجموا عن الهجرة لسببين الأول خاص بمستوى الحياة الرفيع الذى ينعمون به فى دول «الشتات» والثانى لأنهم لا يتعرضون لأى اضطهاد دينى فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وخلص الكهل بعد ذلك إلى القول بأن تحييد إسرائيل سوف يؤدى إلى جذب خمسة ملايين يهودى يعيشون فى دول الاتحاد السوفيتى .

وفتح الفأر درج مكتبه المتهالك فأحدث صريراً عالياً وسط الهدوء الذى ساد الاجتماع ، ثم ألقى إلينا بثلاث نسخ من المجلة الأمريكية ، وقال لنا : أن إسرائيل حانقة على الكهل الذى تنبأ بهلاكها ، وأن هذا المقال هو السبب فى الشائعات التى ترددت عن دعوة وجهت إليه لزيارة القاهرة ، وهو السر فى الزيارة التى قام بها إلى المغرب واجتماعه بالملك الحسن .

أما فى تل أبيب فكانت آثار المقال مختلفة ، إذ تعرض الكهل الوقور لفضيحة مخزية عندما زار إسرائيل ، فقد تقدم مصور من عملاء المخابرات الإسرائيلية بشكوى إلى قاضى التحقيق ، اتهم فيها الرجل الذى يبلغ الثمانين من عمره بإقامة علاقة شائنة مع زوجته الشابة .

وكان واضحا أن الهدف من القضية هو النيل من سمعته ، ونشر الاتهام على أوسع نطاق فى الصحف ، كما ركزت أجهزة الاعلام الإسرائيلية أضواءها بشكل مكثف على القصة التى ثبت فيما بعد كذبها .

وبعد أن تسلم كل منا نسخته انفض الاجتماع ، وقبل الظهر تسلمت رزمة من الورق الأبيض وقلم رصاص ومبراة ، وضاق « الفأر » ذرعا بكثرة استفساراتنا عن ترجمته الانجليزية التى صادفتنا أثناء قراءة المقال ؛ فأرسل الى كل منا قاموساً صغيراً ، مع تنبيه رقيق بأن نحتفظ بالمسودات وأية أوراق مهملة لكى يتولى بنفسه إعدامها ، ثم أعاد على مسامعنا تلك النصيحة التى لا يمل رجال المخابرات المحنكين من توجيهها للجدد :

« لا تترك أية أوراق فى مكتبك ، ولا تكتب أى كلمة إلا بعد التأكد من أن الورقة فوق سطح صلب » .

وعند ما حان موعد انصرافنا سمعنا صوتا طربنا له أيما طرب ؛ فقد وصلت إلى المكان عربة « ميكروباس » يقودها شاب لا يميل إلى الحديث مع الآخرين ، واحتل كل منا المقعد الذى راق له ، وخلال السنوات الثلاث التالية كان كل منا يجلس فى نفس المقعد فى الذهاب والعودة ، وكان الرئيس يجلس فى المقعد الخلفى ، وإلى جواره كومة ضخمة من الأوراق والملفات والجرائد والكتب .

وفى غضون أيام قلائل كان الفأر يراجع ما كتبناه ، وأدخل بعض التعديلات التى تقبلناها بنفوس راضية ، لأنها كانت منطقية من ناحية ، ولأن هذا الرجل الفذ لم يدع أى مجال للشك فى مقدرته وسعة اطلاعه من ناحية أخرى .

ولاقى العنوان الذى اختاره لمنشوراتنا ، استحساناً بالغاً ، فبعد أن ألقى

نظرة فاحصة على الأوراق التى قدمناها له بعد تعديلها ، تناول قلما أحمر وكتب على رأس كل منشور ، الرجل الذى كان يبحث عن وطن قومى لليهود أصبح الآن يبحث عن يهود لوطنهم القومى .

وقضينا الأسبوع التالى دون أى عمل ، ولم يعرف أى منا مصير المنشور الذى كتبه ، ولكن وجودنا من غير أن يطالب منا أحد أن نذهب إلى الجحيم ، أكد لنا أن أفكارنا لم تكن تتصف بالحماقة ، وانتهز الرئيس فرصة هذه البطالة وأغرقنا بسيل من الكتب ، واستعان بأدوات السيارة الميكروباس فى إنشاء مكتبه اختار لها الغرفة الأخيرة ، فكان يدق الأرفف بمفتاح العجل ، وينزع المسامير المعوجه ببنسة حادة الإسنان ، وفى النهاية قضى ساعات فى طلاء الجدران مستعينا بفرشاة احضرها فى جيب معطفه .

ومن المؤكد أننا نجحنا إلى درجة مرضيه ، فنى صباح يوم مشرق دعانا إلى اجتماع مفاجىء ، وكان منشرح الصدر يبتسم على غير عادته ، وقال لنا أنه حصل على بعض المعلومات اللازمه لعملنا من إدارة الجاسوسية ثم غابت الابتسامة من فوق شفتيه ورفع أصبعه فى وجوهنا محذرا .

— إن هذه المعلومات سرية إلى أقصى حد وعليكم أن تنسوها تماماً بمجرد مبارحة مكاتبكم .

وعن للاصلع أن يسأل عن الطريق الذى سلكه منشوره إلى الجيش الإسرائيلى وصمت الفأر لحظات ثم عقد حاجبيه الدقيقين وهتف :

— حسنا ، إن واجبنا هو أن نكتب ما يطلب منا فحسب ، أما أن يلقى بمنشوراتنا فى سلة المهملات أو أن توضع فى قذائف المدفعية لتسقط فوق رؤوس الإسرائيليين ، فهذا لا يعنينا بأى حال .

وكان فيض المعلومات غزيرا كما كان مرتبا ، وكانت كل نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة وفى رأسها عبارة « سرى للغاية الون الأحمر ، ورغم أن النسخ كانت أربعة بعددنا ، إلا أننا لاحظنا وجود أرقام معقدة تميز كل نسخة عن الأخرى .

وكان علينا أن نسلم هذه النسخ فى نهاية كل يوم ثم نتسلمها فى الصباح التالى من جديد ، وقد أثار هذا الإجراء حنقنا فى بداية الأمر ، إلا أننا ارتضيناه وتعودنا عليه .

وفى الأسبوع الأخير من يناير زاد عددنا ، والحق بفرعنا أثنان من المعاونين وموظف للآلة الكاتبة ورغم أن هذا الموظف لم يجد أية آله كاتبة فى مجموعة مكاتبنا المثيرة للشفقة إلا أنه استمر فى الحضور يوميا ، وكان هذا دليلا على أن الآلة الكاتبة فى الطريق إلينا ، وعندما وصلت ظهر يوم ممطر ، استقبلناها بفرح وأفردنا لها مكانا فى صدر غرفة قوية الإضاءة .

وفى أول فبراير انضم إلينا شاب أكثر غرابة من « الفأر » وكان متوسط الطول ممتلىء الجسد أميل إلى البدانة يتميز بعينين راسعتين وحاجبين كثيفين وجبهة عريضة وأنف تتوسطه ندبة لعلها من أثر عراك قديم وأدركت لأول وهلة أنه يتمتع بقدرة فطرية على تقمص شخصيات عديدة تبعا للظروف .

كان يرتدى سترة من جلد الشمواه فوق فانلة عصرية وحذاء باليا ، ولأنه وصل متأخراً حصل على أسوأ المكاتب وأقلها أثاثاً ولكن لم يبد أى اهتمام فى هذا الشأن ، ويوما بعـــد يوم اتضحت قيمة هذا الشاب بالنسبة لفريقنا ، فقد كانت لديه اجابة فورية على أى سؤال يتعلق بإسرائيل ، وكان يعرف أسماء المدن والقرى والازقة الضيقة فى أحياء يهود الشرق .

وكانت لديه ذاكرة حديدية يستطيع أن ينبش فى خلاياها ليوضح ما إذا

كانت شركة «عميدار» قد أنشأت مساكن فى رحافيا أو أن ذلك محض خيال ، وكان يجيد العبرية والانجليزية والفرنسية و لغة اليديش أيضاً .

وكما حظى الرئيس بلقب الفأر،اشتهر ذلك الشاب بيننا بلقب «الدكتور» ، وكانت لهذا اللقب قصة شيقة .. فقد لاحظ ذات يوم أن أحد الخدم يعانى من اصفرار خفيف يشوب بياض عينيه ، فاستدعاه إلى مكتبه وسأله عما إذا كان ثمة اختلاف فى لون الفضلات التى تخرج من جسده ، ولما أجابه الخادم بالايجاب أمره بأن يبقى فى سريره وأن يتناول طعاماً مسلوقا ، ورسم لنا كبداً وقناة صفراوية مسدودة وهو يشرح كطبيب حقيقى .. ومن المدهش أن طبيبا زار فرعنا وأيد أقوال ذلك الشاب الموهوب الذى هبط علينا من السماء .

وكانت لدى الدكتور عربة صغيرة بيضاء حديثة الطراز ، وكانت هذه العربة مكتظة بأوراق ومعدات تصوير وحقيبة سوداء ، ورغم أنه كان يقف أمام «الفأر» وقفة عسكرية بأدب جم ، إلا أنه كان معتداً بنفسه إلى حد الغرور .

ويبدو أنه كان ذا نفوذ عظيم ، إذ فرش مكتبه على وجه السرعة بأثاث جديد ، ووضع له نظام خاص فى الحضور والانصراف ، وكان يملى رسائله على موظف الآلة الكاتبة وهو يتجول فى أرجاء حجرته ، ومن المؤكد أنه كان يكتب أشياء على قدر كبير من الأهمية وأنه كان محل احترام الآخرين ...

وفى ديسمبر ١٩٧١ علمنا أن منشوراتنا قد وصلت إلى تل أبيب،وانهالت علينا المساعدات والمعونات من كل صوب ، وقبض على واحد من اليهود السود وهو يوزع منشوراً — كتبه البارز الوجنتين — فى شوارع القدس . وقيل لنا إن ما نكتبه يصل الى خنادق الجيش الاسرائيلى فى نفس اليوم ، وأفادت تقارير الاستطلاع بأن الجنود فى جبهة القناة يهربون منشوراتهم إلى أسرهم فى المستعمرات

وتمكنت الشرطة الاسرائيلية من القبض على صندوق ضخم يغص بالمنشورات بالقرب من نقطة التقاء الحدود السورية اللبنانية ، ولكنها لم تقبض على أولئك الذين كانوا ينتوون تهريبه ، واستخدمت المخابرات المصرية كل الحيل والوسائل لدفع منشوراتنا إلى أهدافها بدقة عبر المسالك الجبلية ووسط الأحراش وبالمظلات ودانات المدفعية وفوق ظهور الإبل .

وكان هناك أيضاً ما يعكر الصفو . وكنا نشعر بالأسى عندما نبذل جهداً كبيراً في صياغة كلماتنا لكي تترك أعظم الأثر في نفوس خليط بشرى مكون من أكثر من تسعين جنسية — هم سكان إسرائيل — ثم يجد ما كتبناه طريقاً خاطئاً إلى يد العدو، وتسببت هذه الحوادث المتفرقة في أن «الفأر» قرر ذات يوم أمامنا جميعاً أن الإذاعة العبرية تستخدم كوسيلة لإبلاغ وجهة نظرنا إلى «أصدقائنا» اليهود . .

وفي ذلك الوقت كانت الإذاعة العبرية « صوت القاهرة » قد بلغت شأواً بعيداً في مضمار الحرب النفسية ، وزاد ارسالها في منتصف مايو عام ١٩٧٢ إلى سته عشر ساعة ارسال ، منها أربعة عشر ساعه بالعبرية ، وكان الجهد قد استلزم حشد اثنى عشر مذيعاً وأربعة لإعداد البرامج . وكان هذا النمو هائلا بالنسبة إلى نصف ساعة إرسال واثنين من المذيعين في يوليو ١٩٥٣

ولا شك أن المخابرات المصرية وجدت طريقا لإيصال منشوراتنا إلى الإذاعة العبرية ، وربما دست محتويات هذه المنشورات في برامج مشوقة، ولكن المؤكد أن الإذاعة العبرية حظيت بشعبية خرافية في المجتمع الإسرائيلى

وخلال حرب أكتوبر كانت الأغنية المفضلة في إسرائيل والأكثر شعبية، هي أغنية « اريك اينشتاين » التي تقول : أبناء العشرين يريدون السلام ، أبناء

العشرين يحبون السلام ، وكانت هذه الأغنية تتردد فى الإذاعة العبرية .. وان كانت تعقبها أحيانا تسجيلات استجواب الأسرى .

وقد حدث أثناء الحرب ، أن نشرت الصحف فى القاهرة نبأ أسر «عساف ياجورى» ضابط المدرعات الاسرائيلى ، وكان عساف يقود لواء دبابات مدعم بوحدات مدفعية مضادة ومدفعية ذاتية الحركة ، وكان يعد أكبر الأسرى الاسرائيليين من حيث الرتبة ، وكان البيان العسكرى قد ذكر أنه برتبة عقيد «آلوف» .

وفوجىء كبير المذيعين فى الاذاعة العبرية ، وهو شخص رياضى القوام بهى الطلعة، يدعى«أحمد الحلى» بأن عساف ياجورى ليس سوى «مقدم» – سجين آلوف – وكان ذلك قبل الموعد المحدد لظهور الأسير على شاشات التلفزيون بوقت قصير ، وأسرع الرجل يتصل بواحد من كبار الضباط يستفسر عن كيفية التصرف فى هذا الموقف المعقد ، الأسير سوف يدلى برتبته الحقيقية بينما الصحف نشرت له رتبة زائفة . . وفوجىء كبير المذيعين مرة أخرى عند ما تلقى الاجابة التالية :

– فليكن مقدما أو حتى عريفا ، ليس ذلك من اختصاصى ، ربما أصدر أحدهم أمرا بترقيته !

وحظى عساف ياجورى برتبة أكبر من رتبته فى أوساط كل من لا يعرف اللغة العبرية فى العالم العربى ، أما الذين يعرفون هذه اللغة فقد ظنوا أن المذيع قد أخطأ الترجمة ،

ولكن الحقيقة مختلفة تماما ، فقد أدى هذا الخطأ المتعمد إلى استنتاج خاطىء وقعت فى براثنه المخابرات الاسرائيلية ، إن القصة كلها من وجهة النظر الفنية

تستحق قدراً كبيراً من الدراسة، إذ أن الاسرائيليين فكروا هكذا : ما دام المصريون قد ذكروا رتبة خاطئة للأسير فلا بد أنه لم يقع فى الأسر ، وربما استخدم المصريون معلومات قديمة عن ضباط المدرعات ، ان أول الأسئلة الثلاثة التى يجب على أى أسير أن يدلى بها ، هو عن رتبته، فلاشك أننا نستطيع أن ننالهم من هذه النقطة ».

وأسرع المعلق الاسرائيلى « دوف اينون » الى راديو اسرائيل ليعلن أن عساف لم يؤسر وأن القاهرة تكذب.

وأسرع أحمد الحلى هو الآخر إلى الميكرفون ليطالب من دوف اينون أن يتصل ببنات عساف الثلاثة وبأمهم لكى يستوثق من أن الأسرة المنكوبة تستمع بالفعل إلى صوت عائلها، وكانت ذروة المأساة فى أن المذيع المصرى منح خصمه خمسة عشر دقيقة لهذا الاتصال، وفى النهاية اعترف الاسرائيليين بخطأ استنتاجهم

وقد تحدثت إلى أحمد الحلى بعد الحرب، وكان الرجل سعيداً لأنه مارس لعبة من ألعاب المخابرات وتحمل تبعتها ، إذ ارتضى لنفسه الجهل بترجمة الرتب العسكرية الاسرائيلية، ولم يكن يعرف بالطبع شيئاً عن الهدف من هذا الخلط المتعمد فى الترجمة ، إلى أن وجد غريمه فى « أورشليم » يقع فريسة خدعة إعلامية ذكية .

وبالنسبة لى شخصيا ، استطاع برنامج الاذاعة العبرية أن يشد انتباهى ، لدرجة انى أصبحت واحداً من هواة الاستماع اليها ، ولا شك أن هذه الهواية تأصلت فى نفسى، فى تلك الفترة التى كنت أتابع فيها خطواتها إبان الحرب النفسية الضارية التى كنا نخوضها بنظام دقيق، وبتعاون غريب النمط حقا، إذ أن أحدنا لم يعرف الآخر، وحتى الذين كانوا يعملون معا تحت رئاسة ذلك « الفأر » لم ينفذ أى واحد منهم الى شخصيات زملائه الحقيقية .

وكان هذا النمط هو الأسلوب العلمى الصحيح ، لتنفيذ أهداف المخابرات ، أن تعمل فى قطاعك ، وتؤدى دورك دون أن تثقل نفسك بأعباء متابعة الآخرين أما إذا كان عليك أن ترسم أدوار عدد من أعوانك ، فلا بد من التصرف بمنتهى الحذر لكى يبقى كل منهم داخل نطاق مهمته ، وسوف تكتشف أن هذه هى الوسيلة المثلى لكى تنجح.

ولقد استمرت جهودنا بهمة تحدوها الرغبة فى تحطيم نفسية العدو وكان « الفأر » يعتقد أن هذه الحرب النفسية سوف تؤدى إلى اقناع الاسرائيليين بالقاء السلاح ، ولم اشهد فى حياتى رجلا يقطر بمشاعر السرور كهذا الرجل فى الأيام الأولى للقتال ، وكانت أنباء الأسرى الذين يستسلمون « بالمئات » قد أدت إلى فقدانه للاتزان الذى عهدناه فى سلوكه ، وكانت لدينا نفس المشاعر لأننا كنا جنوده فى تلك الحرب التى لم يسمع عنها أحد .

وبعد أن أثمرت جهودنا بدأنا فى قائمة المطالب ، وبدلا من أن تمدنا إدارة الجاسوسية بالمعلومات ، رحنا نحن نحدد هذه المعلومات ونطلب تفاصيلها . وعاملنا « خالد » بصبر بالغ ، فقد أنشأ هذا الفرع بنفسه وكان عليه أن يتحمل تبعة عمله ، وكان أحياناً يعترض على شراهتنا بقدر يسير من الحنق .

وحدث أن تعرض مواطن إسرائيلى لحادث يتميز بالقذارة وأخطرتنا إدارة الجاسوسية بالتفاصيل ، ولكننا طلبنا مزيداً من دقائق القصة كلها ، وأرسلته برقية إلى أحد العملاء لكى يوافينا بالإيضاحات اللازمة ، ولم تضع هذه الجهود هباء ، لأننا كتبنا منشوراً كان له وقع عظيم فى نفوس الإسرائيليين ، وتلقينا مكافآت مناسبة مع بعض المديح الذى كنا فى حاجة ماسه إليه ، لا لشىء إلا لكى يفيض حماسنا من جديد .

وكانت القضيه تتعلق بالأمن ، فبينما كان الإسرائيليون يقاتلون من أجل حدود آمنه كان المواطن « بيتر كوباش » يتعرض للمعاناه التى نجمت عن قصور أجهزة الأمن داخل الدولة ، وطبقاً لأقوال « بيتر » هذا فى محضر الشرطة ، تعتبر القصة برمتها مثالا صارخاً على ما يلاقيه فرد أعزل فى دولة مدججه بالسلاح .

وجاء منشورنا بمثابة اختصار دقيق لأقوال « بيتر » حرفياً ، وركزنا على ما رأينا أنه يستحق لفت الانتباه ، أما زميلنا الأصلع فزعم فى منشوره الموجه إلى الجيش الإسرائيلى ، أن الضحية مجند فى وحدة مظلات إسرائيلية والحقيقة أن « بيتر » جند فى جيش الدفاع الإسرائيلى ولكنه لم ينضم إلى قوات المظلات أبداً .

ولست فى حرية لأن أذكر نص المنشور ، لأن ذلك قد يعرض وسيلة نشره فى إسرائيل ، وربما وسيلة نقله أيضاً ، للاكتشاف ، ولكننى سوف أورد الواقعة طبقا للنص الرسمى ، وهو نص يستطيع أى صحفى فى إسرائيل أن يطلع عليه فى سجلات الشرطة ، كما أن بيتر كوباش شخصياً ، ما زال يعيش فى المنزل رقم ٢٢ شارع الحاخام موشيه بن ميمون فى جفعات يم ،

إن بيتر كوباش مواطن من أصل رومانى ، اضطر إلى التعود على المعيشة بمفرده ، ذلك أن والديه قتلا أثناء الحرب العالمية الثانية ، وتربى فى مدينة صغيرة فى رومانيا وكان ذلك فى أحد الملاجىء ، لقد نشأ فى هذا العالم دون قريب واحد وتعلم ميكانيكا السيارات واشتغل فى هذه المهنة حتى سن الثانية والعشرين .
وعندئذقرر مغادرة مسقط رأسه ليبحث عن فرصة أفضل ، وأستخرج جواز سفر وسافر إلى أثينا ، وكانت له بعض المدخرات من عمله ، إن الحياة فى

رومانيا ليست غالية ، وسافر إلى جنوب أفريقيا بعد ستة أشهر وعاش هناك فى يوها نسبرج ، وتعرف على بعض الأشخاص والأماكن ثم قرر مواصلة التجوال وكانت سيدنى عاصمة استراليا هى محطته التالية .

وجد له غرفة فى مسكن يمتلكه يهودى وإسرائيلى سابق ، وقد ذكر له أنه كان مغنياً مشهوراً فى إسرائيل ، وهو يعمل حاليا مغنيا متجولا فى أنحاء استراليا ويدعى عليه اللعنة[1] يسرائيل بامى وسرعان ما نشأت بينهما صداقة وحدثه كثيراً عن إسرائيل وعلمه بعض اللغة العبرية ، ونتيجة لكل ذلك اكتشف ذات صباح أنه تبلور قرار فى اعماقه ، فقد سئم التجوال فى العالم وأراد تكوين بيت له ، وقرر أن تكون إسرائيل هى المحطة الأخيرة فى تجواله .

وبعد أن قضى عاما فى استراليا وصل كمهاجر جديد الى اسرائيل، وأرسل الى كيبوتز « حايم الحود» حيث أقام خمسة أشهر هناك ، وأشتغل فى مصنع المعلبات «جيت» وقرر بعد ذلك أن هذا يكفيه فى الكيبوتز فانتقل الى تل أبيب وحصل على عمل فى جراج مستورد السيارات «ليثو-ولدبرج » وسكن فى دار مهاجرى جنوب أفريقيا فى «جفعات يم» وهناك تعرف على « جودى » وهى مهاجرة فى سنة من جنوب أفريقيا، وتعمل فى اسرائيل سكرتيرة لأستاذ أمريكى فى جامعة تل أبيب وأصبحا أصدقاء .

وقد وقع الحادث الرهيب فى يوم الأحد بعد وصوله الى البلاد التى قرر أن تكون محطة تجواله النهائية فى العالم، وكان ذلك فى حوالى العاشرة والنصف مساء، نزل من دار المهاجرين الى المقهى المجاور لسينما شبيط هو وجودى وصديقة

---

(١) اضطررت لذكر هذه العبارة لأنى تعهدت بأن أورد أقوال « بيتر » بحرفيتها .

لها أسمها «دوروثى» وهى مهاجرة حديثة أيضا ، وانضم اليهم فجأة رجل كبير له شارب، وبدأ يتحدث معهم باللغة الانجليزية، وحاولوا تجاهله والابتعاد عنه. وحاول أن يكون وديا ولكنه لم يستطع اخفاء وقاحته ، وكانت نواياه واضحة ودخلوا الى المقهى ودخل وراءهم وجلس بجوارهم وبدأ يشرب الكونياك كأسا بعد كأس . وفى النهاية وجه العبارة التالية الى الفتاتين :

ــ ما رأيكما فى السير معى كعاهرتين صغيرتين ؟

وعندئذ قامتا وابتعدتا عن المكان،وقام بيتر أيضا الا أنه أمسك بيده ونزع ساعته بقوة من معصمه وقال :

ــ اذا لم ترجع الفتاتين مرة أخرى فلن تأخذ الساعة .

ولم يكن بيتر يخشى فى هذه اللحظة أى شىء مخيف ،ولم يكن يعرف أن هذا الشخص هو «موردخاى شولمن » الشهير.ولم يخطر على باله أن يستنجد بالبوليس ، وظن أن المسألة سوف تنتهى بدون أى أذى وفى هدوء ورأى أنه مجرد شخص مزعج ومشاكس ، وكان ما زال غريبا على جو العنف الذى يسود البلاد .

وجرى « بيتر » وراء الفتاتين وناشدهما العودة وأوضح لهما موضوع الساعة. وعندما عادت الفتاتان لم تعد الساعة ، وحاول شولمن فى أول الأمر أن يكون مؤدبا ، غير أن الفتاتين استمرتا فى تجاهله وانتقل هذا الشخص تدريجيا الى حالة الفظاظة فمد يده بين فخذى جودى بوقاحة وخسة ، وقامت جودى وانصرفت. أما « دوروثى » فبقيت فى مكانها .

وظهرت مجموعة تضم سبعة رجال تظاهروا بأنهم أصدقاء ، وطمأن واحد

منهم صاحب المقهى وزعم له أنه من رجال البوليس ، وسوف يعمل على اخراج شولمن من المقهى ، وفجأة أخرج شولمن سكينا من جيبه وفكر بيتر فى الهرب ولكنه لم يستطع الحركة .

وأخرجهم شولمن من المقهى بتهديدات السكين وسار بهم إلى محطة تاكسيات قريبة . وأدخلهم فى تاكسى وأصدقاؤه يحيطون بهم من كل جانب ، ولم يتمكن المارة من رؤية السكين ، أما هؤلاء الذين رأوها فلم يبالوا بهم .

وجلس شولمن بجوار السائق ووضع السكين على عنقه ، وصعد بهم الى شقة فى الطابق الأول وفتح الباب ثم دفع بيتر الى الحائط ، وأدخل يده فى جيبه وانتزع محفظته ووضعها فى جيبه ، وبعد ذلك أدخل «دوروثى» الى حجرة النوم وأغلق الباب خلفه . . وبدأت دوروثى فى الصراخ بصوت خافت ، وقبل أن يفكر بيتر فى أى شيء فتح الباب الرئيسى بالمفتاح ودخل أصدقاء شولمن الذين كانوا فى المقهى من قبل وكانوا أربعة أشخاص هذه المرة .

إن القصة تبدو مثيرة تشد الأنفاس ، فقد ظن بيتر أنهم سيساعدوه فى اعتقال شولمن ، ومد واحد منهم يده بالسلام والمصافحة ، فمد بيتر يده وعندئذ أمسك يده ولف ذراعه بحركة سريعة خلف ظهره إلى أن اضطر الى الانحناء وانقض عليه الثلاثة الآخرون وخلعوا بنطلونه وبعد ذلك اغتصبوه، واحد بعد الآخر ، واستمر الكابوس أكثر من أربعين دقيقة تقريباً .. عشر دقائق لكل منهم ، وكان يصرخ بشدة ، وكانت صرخات دوروثى تصل الى أذنيه وان كانت أقل جدية .. ولم يفكر أحد من الجيران فى القدوم لمساعدتهم ، ولم يجرؤ أحد على أن يطلب البوليس . ولم يشك بيتر قط فى أن صرخاته سمعت خارج الشقة ، على الرغم من تشغيل شولمن لجهاز تسجيل .. وكان الأربعة يلعنون ويشتمون ، وكان الأربعة جميعاً فى حالة سكر ، ان هؤلاء لم يكونوا من البشر ، بل كانوا

حيوانات مفترسة ، وبعد أن انتهى الأربعة من عملية الاغتصاب انصرفوا من الشقة ولم تظهر عليهم علامات القلق ازاء حقيقة أنه رأى وجوههم»ولم يقوموا بأية محاولة لتقييده أو اعاقته ، وفى اللحظة التى أغلقوا فيها الباب أسرع هو الى التليفون وطلب البوليس .

ومر حوالى نصف ساعة من الهدوء ، ثم عادت صرخات دوروثى مرة أخرى ، وبعد ثلث ساعة مؤلمة سمع خطوات تقترب من باب الشقة فاقترب من حجرة النوم،ونادى بصوت عال لشولمن وقال له أن ثمة من يقرع الباب،وصرخ له شولمن :من الطارق ؟ فأجاب : لست أعرف .

وفتح باب حجرة النوم بعد لحظة وخرج شولمن وهو عارى الجسدواقترب من الباب الخارجى ونظر من وراء ثقب المفتاح ، وجاءت دوروثى بعده جريا وأمسكت بيتر وهى ترتعش وقد ارتدت ملابسها غير أن شولمن مزقها ..

وعند ما رأى من هؤلاء الذين يطرقون الباب،رجع ودخل الى حجرةالنوم وارتدى ملابسه ورتب الأشياء فى الحجرتين ثم فتح الباب ودخل ستة أو سبعة من رجال الشرطة وشرطية واحدة وأنزلوا بيتر ودوروثى إلى أسفل ثم أنزلوا شولمن بعد ذلك . ويبدو أنه أدرك من الذى ابلغ البوليس لأنه اقترب من بيتر ولكمه فى وجهه بقبضة يده بحركة سريعة، وأبعده رجال الشرطة إلى الوراء ثم كبلوا يديه ولكن بعد أن مزق فك ضحيته .

وبعدذلك نقل بيتر ودوروثى فى سيارة الداورية إلى مستشفى« ايخلوف »، ورجع إلى مركز البوليس بعد الفحص الطبي حيث كانت قد اعتقلت مجموعة من المشتبه فيهم، وأشار إلى واحد من المجموعة وقال :

— إن هذا واحد منهم ..

وكان هذا واحد من الأربعة الذين اغتصبوه ، واتضح ان اسمه «افراهام مزراحى» وحصل على خطاب من مركز البوليس ورجع إلى المستشفى ومكث فى «ايخلوف» يومين ونصف وخرج على ان يعود إلى هناك بعد شهر لكى يقرر الأطباء ما إذا كان من الضرورى إجراء جراحة فى فكه .

وكان أول شىء قام به خروجه من المستشفى هو تغيير مكان اقامته ، ان دار المهاجرين تقع بجوار سينما شبيط ولم يكن يرغب فى السير هناك كثيراً . . وسارت الأمور فى هدوء تام إلى أن جاء يوم رهيب آخر .

كان فى طريقه فى الرابعة بعد الظهر إلى شقته الجديدة، فى الجانب الشانى من «جفعات يم» وفجأة توقفت بجواره سيارة «سبورت» حمراء ونزل منها رجلان وأمسكاه بسرعة ، ورأى أن أحدهما كان من ضمن الأربعة الذين اغتصبوه وادخلاه فى السيارة،وامسك واحد منهم يده،وادخل الثانى أصبعين فى فتحتى أنفه وشدهما بقوة إلى أعلى، فانفتح فمه وعندئذ وضع الأول قرصا داخل فمه ثم ملأه بالكونياك من زجاجة كانت معه،وبلع بيتر ذلك كله حتى لا يختنق،وحدث ذلك بسرعة وبطريقة فنية جعلته يفقد وعيه خلال دقيقة واحدة .

وعند ما استيقظ وعاد إلى رشده،وجد نفسه على سرير أبيض وفى حجرة مغلقة من جميع الجهات،وطرق الباب فدخل عليه أحد الممرضين فسأله :أين أنا؟ وتبين أنه فى مستشفى للأمراض النفسية فى « بات ــ يام » وعرضوه على طبيبين نفسيين وغادر المستشفى وعرف أن احد المارة وجده ملقى على الرصيف،وقالوا له أنه أصيب بنوبة عصبية بتأثير القرص الذى ابتلعه وكان الهدف هو تخويفه بخلق انطباع بأنه مجنون فلا يصدق القاضى شهادته عند ما يبدأ نظر القضية . .

ولم يكن هذا يعنيه كثيرا ــ على حد تعبيره ــ ولكن الذى يعنيه هو أنه مر بتجربة مرعبة يشك فى أن كثيرين قد مروا بمثلها . .

وتكلفت إدارة الجاسوسية فى القاهرة مائة ليرة إسرائيلية دفعتها لشرطى عجوز لكى ينسخ هذه الأقوال، كما تكلفت مبلغا ثانياً لنقل هذه الأوراق بصورتها الرسمية إلى القاهرة، وبعد أن قمنا بدراستها والتوجه بالعبر المستخلصة منها إلى اليهود بدأت رحلة العودة، وأرسل كل نوع من منشوراتنا بوسيلة ما إلى إسرائيل ولكننا عرفنا فيما بعد أن إدارة الجاسوسية لم تكتف بهذا القدر فارسلت واحداً من عمـــلائها لكى يعثر على بيتر كوباش ويستمع إليه وهو يروى القصة .

وكان الظن أن لدى هذا الشاب التعس ما يخجل من الادلاء به فى محضر الشرطة، وتمكن عميلنا من العثور عليه إلا أنه عاد بخفى حنين، وبشريط مسجل بصوت بيتر نفسه وحتى هذا الشريط كان عديم النفع، إذ أن أحداً لم يجسر على إذاعته علناً، لأنه كان مقززاً لدرجة كبيرة كما كان مفتقراً إلى آداب الحديث العامة .

وكان « الفأر » هو حلقة اتصالنا بالعالم الخارجى وبقية أقسام المخابرات، وفى الأيام التى صفت فيها السماء كان « خالد » يأتى الينا وكنا نضع له كرسيا فى الناحية الواقعة أمام المكاتب، وكانت هذه الاجتماعات العفوية مفيدة لكل منا، ذكنا نتبادل الأحاديث والمقترحات ونفكر معاً فيما يمكن عمله .

وادخلت نظم جديدة وانضم إلينا زملاء جدد، وكان أحدهم مختصاً بدراسة نتائج استجواب الأسرى، وما يمكن العثور عليه من مستندات العدو كذلك كان مترجم ذا ثقافة عالية وشاب متخصص فى الإقتصاد الإسرائيلى وتوفيراً لأى مجهود ضائع، جلبنا كشكا من الصاج وزودناه بموقد صغير وعدد مناسب من الأقداح والأوعية وهكذا أصبح لدينا مشرب خاص بنا .

وخلال عامين أصبحت لدينا مكتبة حقيقية وخصص قسم منها لحفظ المعلومات وكان باستطاعة أى منا أن يدخل إلى هذه المكتبه ليطلع على ما يود الاطلاع عليه ، كذلك اختفت سلال المهملات وحلت محلها أجهزة دقيقة فى حجم راحة اليد ، وكان علينا أن نضع الاوراق والمسودات فى فتحات هذه الأجهزة ثم نضغط زراً صغيراً وفى مدى ثانيتين كنا نسمع فحيحا ثم تتبخر الورقة نهائياً .

وكان زميلنا الأصلع أسعدنا حالا فى واقع الأمر ، إذ كانت لديه قائمة بأسماء الضباط الإسرائيليين فى جبهة القناة ، وقد حفلت هذه القائمة بالتعديل والشطب ، لأنه كان يجرى بالقلم الأحمر نفس حركة التنقــــلات التى كان الجيش الإسرائيلى يجريها بعد تنفيذها ، كما كان لديه مرجع لسلاح الطيران ، موضح فيه أمام أسماء الطيارين بعض المعلومات المتيسرة عن حياتهم الخاصة بالإضافة إلى ساعات طيرانهم ودرجة كفاءتهم وأعتقد أن هذا المرجع كان دقيقاً :

وفى ديسمبر ١٩٧٢ طلب فرعنا بياناً وافياً عن انتشار الأمراض فى « خط بارليف » وكان ذلك بناء على اقتراح صائب من الأصلع ، الذى رأى أن يثير الذعر بين الجنود بإذاعة منشور عن تفشى الأوبئة فى الحصون الرديئة التهوية ، وكان يرغب فى الاستناد إلى حقائق لا تقبل الجدل لــكى يقنع قراءه بأسرع طريق ، ويبدو أن إدارة الجاسوسية قد تحمست للفــكرة لأنها أخطرت أحد عملائها وكلفته بجمع المعلومات المطلوبة فى أقصر وقت ممكن .

ولدى اقتناع كامل بأن هذا العميل كان مرضاً ، لأنه وافانا بمعلومات غزيرة فى صياغة فنية واضحة وكان أهم ما يستوقف النظر فى هذه المعلومات ، سجل شامل لأقوال الضباط العسكريين الإسرائيليين : ل نجن ، ن آجوز ، ى . كيرك ، واتضح من هذه الأقوال أن المــــلاريا تزداد ازدياداً مضطرداً بين الجنود فبينما كانت الإصابة بها لا تتعدى أربعة حالات فى نهاية ١٩٦٧ ، ارتفعت إلى ثمان عشر حالة

سنة ١٩٦٩ . ثم قفزت إلى أربعة وخمسين حالة فى سنة ١٩٧٠ وبلغت قمتها فى سنة ١٩٧٢ إذ أصيب مائة وأربعين جنديا واثنان من الضباط ، واستطيع أن اجزم بأن هذه الأرقام مسجلة بدقة فى ملفات جيش الدفاع .

ولكن الامور لم تكن لتمضى هكذا من غير عقبات ، فقد حدث أن أفضى إلينا الدكتور - ذلك الشاب ذو السترة الجلدية والعربة الفاخرة - بأننا نستطيع الحصول على معلومات وافية عن المفاسد المتفشيه فى صناعة السيارات الإسرائيلية وفهمنا من حديثه أنه استحوذ على سيارة جديدة عندما كان يعمل فى الميدان فى إسرائيل، عن طريق دفع رشوة لموظف مدنى من موظفى جيش الدفاع يدعى إسرائيل سينى .

وكانت هذه المعلومات منحة غالية لنا جميعا . فكتبنا مذكرة بالموضوع وقدمناها لرئيسنا ، وأفادتنا إدارة الجاسوسية بعد ثلاثة أيام بتفاصيل تكفى لكتابة منشوراتنا ، واتضح من ثنايا هذه التفاصيل أن إسرائيل سينى هذا يعمل كضابط اتصال بين جيش الدفاع وبين شركة اتوكارز الإسرائيلية وهى الشركة التى تتولى إنتاج السيارة تريمف ١٥٠٠ بإشراف شركة ليلاند الأنجليزية .

وكان بمقدور إسرائيل أن يحصل على سيارة جديدة بتخفيض يصل إلى ثلاثة آلاف ليره اسرائيليه بمساعدة مديرشركة اتوكارز ويدعى يسحاق شوفنيسكى ورجل آخر يدعى آرييه شاحر وهو مدير مالى معين من قبل شركة كور ، كما ظهر فى الصورة مرتشى آخر يدعى افرايم لفند وفسكى ويعمل مراقبا عاما فى أتوكارز .

وقضينا ساعات طويلة فى فحص هذه المعلومات ومراجعتها ثم عكفنا على كتابة عدة نماذج من المنشورات المقترحة وترجمناها إلى اللغات السائدة فى إسرائيل ولكننا تلقينا أمراً مفاجئا بتناسى المسألة كلها وتسليم المعلومات السابقة مع عدم

الاحتفاظ بأية نسخة منها فى مكتبتنا ، وكما هى عادة رجال المخابرات ، لم يقدموا لنا أى مبرر لهذا الإجراء الفج ، وضاعت جهودنا هباء دون أن نتلقى توضيحا.

وحدث حادث مماثل بعد ذلك بأسبوعين وكنا قد تلقينا معلومات غزيرة عن شركة طيران خاصة تدعى « كنف » وعلمنا أن اصحاب هـــذه الشركة ضباط سابقون فى جيش الدفاع ، أريك احنون ، ودادى موفيتش ، وابراهام بارارز وأن هؤلاء الضباط يحصلون على اعانات حكومية عن طريق دفع رشوه لإمرأة على صلة وثيقة بكبار العسكريين ، وكانت هذه المرأة تعمل كمساعدة لمدير هيئة الإمداد والتموين فى « تساهال » ولكننا فوجئنا بالغاء المنشورات التى كتبناها ومن المؤسف أننا قمنا نحن أنفسنا بإحراق الصفحات التى سودناها فى تلك الأجهزة الجهنمية .

وحتى الآن لا أستطيع أن أقطع ما إذا كانت هذه الاجراءات وليدة أخطاء عقيمة أو أن اعتبارات أخرى تدخلت فى اللحظة الأخيرة ، فالعمل فى حقل المخابرات يحتم على المرء أن يتقبل أى شىء بصدر رحب حتى لو كان مخالفا لاعتقاده الشخصى ، وليس من حق أى مخلوق أن يطلب إيضاحات قد تؤدى إلى كشف سر من الإسرار التى لا يمكن البوح بها تحت أى ظرف .

ورغم العقبات والمتاعب حدث تطور مفاجىء فى بداية سنة ١٩٧٣ إذ أصبح فرعنا إدارة مستقلة بذاتها ولم نعد نعتمد على مساعدات الإدارات الأخرى ، على الأقل من ناحية الإمكانيات المادية وكان الرمز الذى أطلق علينا هو الإدارة « ٤٤ » وأصبح هذا الرقم الذى ارتبطنا به ارتباطا وثيقا يزين مطبوعاتنا وأوراقنا ومراسلاتنا كذلك غدا هوية حقيقية لكل منا وكان بوسعنا أن نفخر بالانتماء اليه .

ولكن هذا التطور كان مقصوداً فقد دعانى الفأر الى مكتبه ذات صباح



السيارة تريمف ١٥٠٠ مصنع أتركارز

وأشار إلى بأن أغلق الباب، وبعد أن فحصنى بنظرة خاطفة كعادته أسر إلى بأنه قرر منحى سلطة استثنائية لتقرير صلاحية الأفراد الجدد الذين يرشحون للعمل فى إدارتنا، وكان نمو هذه الإدارة يستوجب ضم عدد إضافى من الموظفين والتراجمة وكان هذا النبأ بالطبع باعثاً على السرور إلا أن الرجل استطرد فى شرح مستفيض لمهمتى المقبلة، وكان هذا الشرح بمثابة صدمة واجهتها فى شجاعة بصرف النظر عن أفكارى الخاصة فقد اكتشفت أن إدارتنا تعمل من أجل السلام فعلا، وأن العدو أقوى من أن نتصدى له فى ميدان القتال .

وكانت جهودنا تهدف إلى التأثير فى نفوس الإسرائيليين لكى يتخلوا عن الرغبة فى إراقة الدم ، وكان معنى ذلك ببساطة أننا أيضاً لا نرغب فى الحرب .. وطبقا لهذا المفهوم كان على أن اختبر من يرسله إلى لكى استكشف مدى إيمانه بالسلم ، أو بمعنى أدق .. مدى ما لديه من اقتناع بالقاء السلاح والشروع فى اقناع الإسرائيليين لكى يتبنوا نفس الرأى ، وكنت أول من يدرك بلاهة هذا الاعتقاد

واقتضت التعليمات التى تلقيتها وضع لوحة دينية خلف مكتبى ،وكانت هذه اللوحة تدعو إلى السلم بخط بارز . كذلك تركت متعمداً فوق مكتبى ورقة فى حجم الفولسكاب ليتمكن زوارى من قراءتها بسهولة ، وكانت سطورها توضح مهمة السلام هذه بطريقة غير مباشرة

ولا بد أن أعترف بأنى لم أدرك حقيقة ما كان يجرى من حولى فى ذلك الوقت . فقد اتضح لى فيما بعد، أن أنباء الإدارة « ٤٤ » ومهمتها الوديعة قد وصلت إلى اسرائيل .. ولا شك أن عدداً من العملاء المزدوجين قد نقلوا إلى الجانب الآخر ما اتيح لهم من معلومات عن عملنا ، ولا شك أيضاً فى أن المخابرات

الاسرائيلية اقتنعت بهذه المعلومات الهامة القادمة من قلب المخابرات المصرية ، ومن مصادر متعددة .

ولكن الحقيقة التى لم تدركها المخابرات الاسرائيلية ، أن الادارة «٤٤» كانت خدعة هائلة لم يفطن الى زيفها أحد .

وفى السادس من أكتوبر اتضحت الحقيقـــة التى غابت عن أعين خبراء الجاسوسية فى تل أبيب ، . ففى صباح يوم الحرب ، الغى ضابط من ضباط المخابرات الاستراتيجية فى القاهرة ــ يدعى خالد ــ الادارة «٤٤» من الوجود ، وعادت مجموعة المكاتب التى شهدت كفاحنا السرى لمدة ثلاث سنوات متصلة ، إلى مهمتها الأصلية كمخزن ناء للوقود .

١١

شهيد اسمه موشى

يقال إن أباه كان واحداً من ضباط المخابرات ، ويضيف البعض أنه ضابط ذا رتبة عالية فى الجيش، ولكن المؤكد ان الفتى نفسه كان شابا فى العشرين من عمره وسيم المحيا رائع الطلعة سخت عليه الطبيعة. فحبته بقامة مديدة وملامح جميلة، عينين سوداوين واسعتين تحوطهما أهداب كثيفة ، فوق أنف دقيق وفم دائم الابتسام ينفرج عن أسنان منظومة بيضاء .

ولقد بدأت القصة فى صيف سنة ١٩٦٧ ، وفى ذلك الوقت كانت إدارة الجاسوسية تفكر فى ارسال عميل إلى إسرائيل .. عميل تتوافر فيه الصفات التى تؤهله للانخراط فى صفوف جيش الدفاع الإسرائيلى ، على أن يؤمن تأمينا محكما حتى لا يتعرض لخطر السقوط أو الإكتشاف،وأن يبقى لفترة طويلة دون أن يكلف بأى واجب فى مجال جمع المعلومات حتى اذا ما جاء الوقت المناسب، عندما تشعر القاهرة بأنها فى مسيس الحاجة إلى عونه . . شرع فى العمل على الفور.

ولسبب مجهول وقع الاختيار على ذلك الفتى دون مقدمات ، وكان هو تواقا إلى المغامرة ، يرحب — على عادة الشباب — بالمهام الخطرة، وتدور فى مخيلته قصص كثيرة عن الأبطال المجهولين فى مادة الجواسيس ، وكان يتعجل اليوم الذى تبدأ فيه رحلته ، وكانت لدى إدارة الجاسوسية فى سنة ١٩٦٨ امكانيات توفرت كنتيجة للأعمال التى قامت بها فى هذا الحقـــل ، والاحتياجات التى كانت تتضح يوما بعد يوم ، منذ أن تولت أمر عميلها الاول «كيفورك» .

وكانت ثمرة هذه الامكانيات والتجارب والأخطاء ، قسم متخصص فى اغراض التدريب وهو ما يعرف حاليا «بالمدرسة» ولكن الحقيقة أن المدرسة ليست إلا جزءا صغيرا من أجزائه العديدة .

وفى الوقت الحالى يقوم ذلك القسم على مساحة ثلاثة أفدنة ، ويشتمل على المدرسة والمقصف الملحق بها ، وهناك أيضاً مكتبة ودار للسينما وساحة للألعاب الرياضية ، ومستشفى يدعى هداسا ، ومبنى صـــغير للأساتذة وحظيرة للعربات ونقطة للوقود الى جوارها مبنى للادارة ، ويحيط بهذه المنشآت سور مرتفع من الحجر الأبيض تتوسطه بوابة حديدية إلى جوارها كشك للحراس وتتيح تعليمات أمن مشددة فى قسم التدريب الذى يعرف باسم «٣ ج ا » إذ يحظر الدخول اليه حتى بالنسبة لبقيـــة ضباط وموظفى المخابرات ؛ أما العاملون به فيتعرضون لإجراءات فحص يومية لا تمل من التكرار .

ويعتبر الرمز «٣ج ا » بياناً لمهمة ذلك القسم الحيوى ، فرقم ٣ هو ترتيب القسم بين بقية الأقسام الأخرى ، ويشكل حرف ج الحرف الأول من كلمة جيروساليم ومعناها القدس .. أما حرف ا فيتعلق بناحية تنظيمية بحتة .

وتحتل مدرسة الجواسيس مساحة كبيرة من القسم «٣ ج ا» اثنى عشر مبنى صغيراً على شكل حرف U يقيم فيها الطلاب إقامة دائمة ، ومبنى مكون من

ثلاثة طوابق للمحاضرات والشئون التعليمية المختلفة ، وأربعة متاجر متجاورة . وفى قاعة السينما تعرض الأفلام الاسرائيلية ثلاث مرات فى الأسبوع .. أما الطرقات الداخلية فترتفع على جانبيها علامات المرور الاسرائيلية كما تحمل العربات نفس اللوحات المستخدمة فى إسرائيل .

ويحظر على الطلاب أن يتحدثوا — أثناء فترة الدراسة — بغير اللغة العبرية وحتى فى الأحاديث التليفونية الداخلية ، ينقطع الحديث بشكل مفاجىء ، إذا أخطأ المتكلم واستخدم لغة غير لغة الدراسة الشديدة التعقيد .. كذلك لا يقبل المقصف سوى الليرة الاسرائيلية كوسيلة للتعامل . . وفى البداية كان الطلاب يشقبون العملات الاسرائيلية ليصنعوا منها ميداليات للمفاتيح ، الا أنهم أقلعوا عن هذه العادة السيئة نهائياً عندما عرفوا أن ذلك سوف يؤدى الى جلب مزيد من العملات الاسرائيلية ، مما يضيف عبئاً لا مبرر له الى الأعباء الثقيلة التى تتحملها ادارة « ٢ ج ١ » .

وفى يونيو ١٩٦٨ الحق الفتى ويدعى « عمرو طلبه » بمدرسة الجواسيس .. وتلقى برنامجاً خاصاً للتدريب .

وفى مارس ١٩٦٩ اجتاز الاختبارات المعقدة بنجاح يتناسب مع مواهبه وتقرر ايفاده بأقصى سرعة الى اسرائيل ، وبينما كان ضباط ادارة الجاسوسية يفكرون فى ساتر لاخفاء رجلهم ، ساق اليهم القدر حالة تعد نموذجية .. إذ اخطروا بوفاة أحد اليهود المصريين ويدعى موسى زكى رافع فى مدينة طنطا .

وأثبتت التحريات التى أجراها رجال المخابرات أن موسى كان شاباً فى مقتبل العمر مفرط فى الوسامة ذو قامة مديدة وملامح تعد آية فى الجمال البشرى ، وأنه ولد فى حارة اليهود القرائين ، وأن والده زكى رافع كان رجلا كليل البصر يتجر فى الأشياء القديمة والنفايات منطوياً على نفسه يقضى النهار وجزءاً كبيراً

من الليل متجولا فى أزقة القاهرة بحثاً عن مشترياته ، وفى وقت متأخر يعود إلى حارة اليهود حيث ينصرف إلى فرز حصيلة اليوم فى أكوام تملأ جنبات الغرفة التى كان يتخذها مسكناً ، وبعد ذلك يستغرق فى النوم حتى الصباح الباكر ليعاود الكرة من جديد .

وكان « موسى » طفلا صغيراً عندما ضاق ذرعا بحياة أبيه ، وبالغرفة التى تفوح من أركانها الروائح المتخلفة عن القدم والبلى ، ولما كان قد نشأ محروما من حنان الأم التى توفيت بعد عامين من ولادته ، قرر أن يشق طريقه فى الحياة بمفرده وأن يعتمد على نفسه وهكذا غادر حارة اليهود ذات صباح ، دون أن يهتم أحد من الجيران باختفائه ، وإن كانت النسوة قد اشفقن على الطفل الذى كان يتمتع بقسط وافر من الوسامة والجمال .

وتأكد أن « موسى » قد تقلب فى أعمال ومهن وضيعه تتفق مع عمره ومهاراته المحدودة ، وانتهى به المطاف فى مدينة طنطا حيث استقر فى عمل يدوى بمصنع للزيوت والتحق بمدرسة ليلية تعلم فيها شيئا من المحاسبة وبعد ذلك حصل على وظيفة كاتب فى شركة لنقل البضائع كان مركزها الرئيسى فى شارع البحر ، إلا أنه لم يستمر فى عمله الجديد طويلا ، إذ أصيب بمرض صدرى نجم فيما يبدو عن سوء التغذية والحياة المرهقة التى عاناها ، وقضى شهور مرضه متنقلا بين مستشفى المبرة التى تقع فى أقصى شارع الجيش ، وغرفته المتواضعة التى كانت كائنة خلف مستشفى علاج الحيوانات فى الطرف الآخر من المدينة ، وفى النهاية قضى نحبه فى هدوء .

وفى سنة ١٩٥٨ ، بعد أن هجر موسى حارة اليهود بثلاثة أشهر توفى الأب الكهل هو الآخر ، ولما كان الرجل بلا أقارب ، تولت الشرطة دفنه على نفقة الدولة ، فى المقابر المخصصة لمن لا عائل لهم من الموتى المعدمين .

ونسجت شخصية « عمرو » الجديدة تبعا لهذه الوقائع ، على نحو يتسم بالدقة وكان عليه أن يدعى ، أنه هجر حارة اليهود وعمل فى محل لبيع أدوات التطريز فى شارع الموسكى . ثم سافر إلى طنطا وهناك عثر على عمل فى مصانع شهيرة للزيت والصابون ، وفى نفس الوقت التحق بمدرسة ليلية ونال شهادة متواضعة فى مسك الدفاتر وبعد ذلك عاد إلى القاهرة واشتغل بالسمسرة وبيع بوالص التامين واكتشف ذات يوم أنه يشعر بحنين طاغ تجاه حارة اليهود ، وعندما وصل إلى هناك لم يجد أحداً يعرف شيئا عن مصير أبيه .

وفى السادس من ابريل ذهب عمرو طلبه إلى حارة اليهود لكى يعثر بنفسه على المنزل رقم ١٩ ، ولكى يتعرف على البيئة التى يفترض طبقا للشخصية التى سيتقمصها أنه ولد وتربى فيها ، واستفسر عمرو من جيرانه عن مكان والده ، ولكنه لم يتلق أية أجابة قاطعه ، وعرف أن مالك المنزل قد باعه إلى مالك جديد فارهق نفسه سعيا وراء عنوان الرجل الذى كان يملك « منزلهم » أثناء حياة أبيه وفى النهاية ، دله صاحب جراج قريب على العنوان بوضوح .

وفى نفس اليوم اتخذ « عمرو » طريقه إلى شارع بور سعيد ، بحثا عن محطة للوقود تملكها شركة مصر للبترول وكان الرجل القائم بادارة هذه المحطة ويدعى الحاج محمد أحمد شافعى هو نفسه المالك السابق للمنزل رقم ١٩ فى حارة اليهود القرائين ، ولكن الحاج لم يكن موجوداً فى محطته ، ورفض عمال تموين السيارات أن يجزموا بموعد حضوره ، وبعد مزيد من الالحاح أخبره أحد العمال ان الحاج يقيم فى شقه بالطابق الخامس من عمارة بنزايون التى تقع فى شاع الأزهر .

وكان الحاج شافعى وهو رجل بدين أحمر الوجه سمين الوجنتين ، قد فرغ من صلاة المغرب عندما وصل « عمـــرو » إلى بيته ، وسرعان ما تذكر الرجل الورع ذلك الطفل الذى كان يقيم مع أبيه فى بدروم منزله ولكن الحديث اتخذ

بعد ذلك مساراً حزيناً، إذ أفضى الرجل إلى الشاب ينبأ وفاة والده ، وكان « عمرو » بارعاً فى اظهار حزنه ، لدرجة أن المضيف الطيب بكى تأثراً من أجله وعرض أن يقدم أية مساعدة ، إلا أن عمرو — الذى أصبح إسمه موسى — كفكف دموعه وودع الحاج ثم مضى لشأنه .

وفى اليوم التالى ، قتل موسى نفسه سعياً وراء مخلفات والده ، وأفادته الشرطة بأنها لا تحتفظ بمثل هذه الإشياء لفترة طويلة ، كما أن الأب الفقير لم يكن فى حوزته شىء ذا بال ، باستثناء بطاقة شخصية وصورة لطفل صغير و بضعة قروش وكان على موسى أن يقضى ردحا من الزمن فى متاهات الروتين السقيمة ، إذا أراد أن يستعيد بضعة أوراق لا قيمة لها .

وفى منتصف مايو اجتاز عمرو سلسلة من الاختبارات الأخيرة ، للتأكد من استيعابه لدقائق شخصيته الجديدة فكان يستيقظ فجأة فى أى وقت من الليل على رنين جرس التليفون وما أن يرفع السماعة حتى يجد من يسأله عن مكان والدته ، أو عنوان أبيه ، وأحياناً كان المتحدث يوجه إليه السؤال التالى : هل أنت عمرو؟ وكانت الفترة التى تنقضى بين السؤال والإجابة ، تسجل بدقة فى جهاز تسجيل مزود بآلة لقياس الوقت أوتوماتيكيا .

وبعد هذه الاختيارات النهائية ، حصل موسى زكى رافع على وثيقة سفر صحيحة وغادر مصر فى اليوم الأخير من مايو متوجهاً إلى أثينا ، ومن هناك بدأ رحلته الطويلة ، وكانت كوالا لمبور عاصمة الملايا هى محطته التالية .

وفى كوالا لمبور حاول موسى أن يحصل على عمل فى مصنع ناجح للبسكويت تملكه شركة تدعى « تاى هونج » ولكن التوفيق جانبه بشكل سافر ، فقضى شهرين كمتعطل يجد فى البحث عن عمل ملائم ، وطوال هذين الشهرين كان يتردد بصفـــة منتظمة على مقهى « هنج كى » وفى هذا المقهى تعرف على أحد

الإسرائيليين ، وكان هذا الإسرائيلي شخصا ودودا دائم السكر يعمل بحاراً على السفينة « شيقمه » ويدعى « تصادوق» واستطاع الأخيرأن يغرى موسى بالهجرة إلى إسرائيل .

وذات صباح من أغسطس وصل موسى إلى حيفا ، ليسجل إسمه كمهاجر جديد ويستكشف الوطن وتمكن من الحصول على خطاب ممهور بخاتم وزارة الهجرة ، وتوقيع من يدعى « هيلل اشكنازى» كما قيد إسمه فى مكتب المهاجرين التابع للوكالة اليهودية ، وتجول فى أنحاء إسرائيل لمدة أسبوعين ، ثم رحل مرة أخرى إلى أثينا .

وبعد ستة أشهر عاد موسى — وتنطق بالعبرية موشى — إلى ميناء حيفا ، وهناك قدم أوراقه لموظف تفتيش الحدود والجمارك ، وكذلك الخطاب الرسمى الذى حصل عليه من وزارة الهجرة ، والذى ينص بجلاء على أن جميع الحقوق المعطاه للمهاجر الجديد مكفولة له ، وبعد ذلك كان عليه أن ينهى الاجراءات الرسمية فى أروقه وزارة الهجرة ورغم أن هذه الأجراءات معقدة تتسم بالدقة إلا أنه نجح فى اجتيازها .

وكان أسوأ من صادفه بين موظفى إدارة الهجرة ، رجل يرتدى ثيابا أنيقة ذو شعر مصفف لامع وغليون ثمين يتدلى بين شفتيه ، وكان هذا الموظف دقيقا فأكثر من التحديق فى خطاب وزارة الهجرة ، وبدا عليه انطباع بعدم سلامة الخطاب، فأخذ فى ترديد الأسئلة ، ماذا جرى؟ ألم تسجل كمهاجر جديد منذ ستة أشهر ، وماذا تريد الآن ، وكيف حصلت على هذا الخطاب الرسمى ؟ ولكن موشى وجد إجابة مقنعة ومختصره على شكوك الموظف الثرثار ، إذ خلع خاتما ذهبيا ضخما كان يزين يده اليسرى وهو يغمز بعينه ، فتهللت أسارير الموظف الأنيق بصورة مفاجئة وبعد أن دس الخاتم فى درج مكتبه ، وقع على النماذج بنفس مطمئنة .

وكان على « موشى » أن يتجول بصحبة نماذجه فى مكاتب وزارة الهجرة المفعمة بالضجيج ، ولفت انتباهه حشد هائل من اللافتات المصفوفة على الجدران مرحباً بك هنا ، يوجد لك مكان فى إسرائيل ، تستطيع أن تبدأ حياتك باطمئنان ولكن وجوه المهاجرين الواقفين تحت هذه اللافتات كانت تعكس واقعا مختلفا ، عدم الاكتراث والقلق والشعور بالحنين بينما أيديهم تمسك باعداد لا حصر لها من النماذج ، زرقاء وصفراء وحمـــراء ، ليس لسبب إلا لأن الورق الأبيض يتكلف غاليا ، كما أن وزارة الهجرة لا تهتم كثيراً بقوة إبصار الوافدين.

واستلزمت الاجراءات الروتينية الكسيحة أن يصعد « موشى » إلى الطابق الثانى ، حيث المكتب المخصص لصرف قروض للمهاجر الجديد ، يساعده على أن يبدأ حياته فى إسرائيل ، ومن المذهل أن الحكومة الإسرائيلية تمنح المهاجر قرضا لا يجاوز مائة وخمسين ليرة ، تسدد على أقساط بواقع عشرة ليرات شهريا وبهذا المبلغ الضئيل يتعين على المهاجر أن يدبر شؤونه وأن يحصل على مسكن ، وفى هذه النقطة بالذات اكتشف « موشى » أن المسكن اللائق يتطلب رشوة لا تقل عن عشرة آلاف ليرة ، تدفع للمسئولين عن ترتيب أولويات المستحقين للمساكن الشعبية . وترددت الكلمات اليائسة بين الطابور الطويل الذى وقف أمام موظفة شابة قصيرة حمراء الشعر ، ولاحظ « موشى » أن السيدة البدينة التى كانت تقف أمامه ، تميل شيئا فشيئا على صدره بينما تتطلع إلى وجهه من فوق كتفها .

وكان جمال الفتى الأخاذ قد جعله محط أنظار النسوة والفتيات اللائى تمنين لو أن الحياة فى أرض الميعاد تكتسب جانبا بهيجا بصحبة شاب يمثل هذه الوسامة ، وعندما وصل « موشى » إلى مكتب الموظفة القصيرة ، فشلت فى كتابة اسمه مرتين وأخطأت فى كتابة البيانات الخاصة به رغم الحاسبات الالكترونية المستخدمة ،

وبعد دورات عديدة لجمع توقيعات الموظفين وقف موشى أمام صراف بدين متذمر ليسلمه القرض الذى بدا كحلم من أحلام اليقظة .

وقضى «موشى» شهراً فى مدرسة لتعلم اللغة العبرية ، وهناك تعلم أن يكون متواضعاً . وكان زملاؤه خليط عجيب من البشر متفاوتى الأعمار ، من كل أنحاء الأرض يتكلمون انجليزية عرجاء وفرنسية لا تمت بصلة إلى باريس؛ مع كلمات عربية ويونانية وايطاليه وعبرية ، فى حجرة صـــغيرة . رصت فيها مقاعد من الخشب الأجرب .. وكان اتعس زملائه رجل من شيلى فى الخمسين من عمره .. كان الأستاذ يصر كل يوم على أن يسأله :

ــ لماذا ترغب فى تعلم العبرية وقد بلغت هذا العمر ؟

وكان الرجل يعتبر السؤال جارحا فلم يتعلم شيئاً ..

وبعد شهر الدراسة الذى كان موشى آخر من يحتاج اليه ، رحـل إلى القدس بحثاً عن عمل مناسب .. وهناك لاحت له فرصة عل شكل وظيفة كتابية فى مستشفى « اتيم » وكان الفتى يقضى الليل فى ركن المطبخ على مقعد من الصاج .. وأشفق طبيب أمريكى عطوف يدعى «مورتن فكسبرت » على هذا الشاب البائس فدعاه للاقامة فى غرفة ملحقة بجراج منزله الذى يقع فى شارع «آحادها عام» رقم ١٣ فى وسط ضاحية تلبيا . .

وجد الطبيب فى شخص موشى معاوناً مؤدبا كما كان مخلصا فكان يصحبه فى الصباح إلى المستشفى حيث يفترق عنه . وفى نهاية اليوم يمر عليه لكى يعودا معاً

واكتشف موشى أن الطبيب الامريكى يختزن قدراً هائلا من السخط . إذ فرض عليه أن يقبل بعد خبرة اثنين وعشرين عاما فى مهنة الطب ، أجر طبيب مبتدىء . وكان الرجل يشغل قبـــل هجرته إلى اسرائيل منصب مدير قسم فى

مستشفى «كونى إيلاند» وكان لديه منزل فى نيويورك باعه بخمسة وعشرين الف دولار ثم أخذ اجازة بدون مرتب وجاء إلى اسرائيل .

وكان الفتى سعيداً بالصداقة التى ربطت بينه وبين الدكتور المهذب ، فكان يقبع بالقرب منه وهو يقرأ دون أن يتحرك ، حتى إذا ما فرغ الدكتور من قراءاته التفت إلى الفتى وأخذ يتجاذب معه الحديث ، كما كان يغدق عليه المنح والمكافآت كلما سنحت الفرصة

وفى اتنيم كان لدى موشى حافزاً آخر على الشعور بالبهجة ، يتمثل فى فتاة جميلة من ممرضات المستشفى وكانت « حبيبه » حسناء فى السابعة عشرة ذات جمال آسر وملامح أندلسية بالإضافة إلى أرداف أشبه بارداف المكسيكيات ، وجمع الحب بين الفتى المصرى وفتاة السابرا الرقيقة الحال ، وفى الليالى المقمرة كان الفتى يصحب معشوقته إلى الضواحى ليبثها شوقه ، وكانت هى تحتفظ بالفاكهة التى يقدمها لها المرضى وتدسها فى حقيبتها لكى تشارك حبيبها فى تذوقها .

وأبى القدر الا أن ينتزع « موشى » من هذا العالم الصغير الذى كان قانعا به فقد اتضح أن الدكتور « مورتن » سوف يرحل عن القدس ، الأمر الذى أثار حزن الفتى لدرجة لا يمكن تخيلها ، ولم يتمكن من اقناع صديقه بالعدول عن عزمه ، فقد سنحت فرصة أراد الرجل أن يجربها قبل أن يتخذ قراراً نهائيا بالعودة إلى الولايات المتحدة ولم تكن هذه الفرصه سوى وظيفة مدير إدارة الخدمات الجماهيرية فى مستشفى متواضع فى أقصى الشمال ، فى مقابل أجر كبير والمنصب الذى بدأ له مناسبا .

وعندما حلت نهاية سنة ١٩٧٠ اضطر موشى إلى الرحيل هو الآخر قاصدا تل أبيب ، وهناك كانت وسامته كافية لإقناع سيدة اسرائيلية شمطاء تدعى

«شوشانا بيرسولتز» لكى تدبر له وظيفة فى دار النشر هى صاحبتها وهكذا أصبح موشى كاتبا للحسابات فى دار «أومانوت» للنشر المحدودة ، لقاء مرتب مقبول، ولكن شوشانا المتصابية كانت فى حاجة إلى عشيق أكثر من حاجتها إلى كاتب لحساباتها ، ولما كانت امرأة روسية من مواليد أوكرانيا اتخذت اقصر طريق إلى هدفها ، فدعته للاقامة فى شقتها وأعتقد أن الفترة التى اجبر موشى على قضائها مع شوشانا كانت اتعس فترة قدر لجاسوس أن يتحمل قسوتها ، فقد كانت المرأة منفرة بقدر ما كانت شغوفة بممارسة الحب مع مخدومها. وكان الفتى مجبرا على اخفاء مشاعره نحوها والتظاهر بالاقبال على جسدها المتهرىء فى نفس الوقت وكان يضحك فى سريرته لمنظرها وهى تخطر فى غلالة نوم رقيقة كاشفة عن جلدها المغضن وبروزات جسدها المدلاء ، وعلى حد تعبيره كانت المرأة أشبه ببركان تتصاعد من فوهاته أبخرة آسنة .

وظهرت فى الافق عجوز متصابية أخرى ولكنها جميلة فعلا ، وكانت تدعى «سوناتا فيرد» عضو الكنيست وزوجة الدكتور «ليتال» وقد شاهدت موشى ذات يوم وهو يدق على الآلة الكاتبة وكانت قد وصلت إلى دار «اومانوت» لزيارة صديقتها شوشانا ، فأومأت له برأسها وكان جوابه ابتسامة شاحبة من ركن فمه ، وعندما خرجت المرأة من مكتب شوشانا اقتربت من الموظف الوسيم وانحنت فوقه إلى أن لمس شعرها أنفه وادعت أنها تود أن تتأكد من درجة اجادته للكتابة ، لأن لديها شيئاً تود أن تنسخه ، وأدرك موشى أن المرأة قد وقعت أسيرة لسحره .

وتكررت زيارات سوناتا للدار زاعمة أنها تناقش شئون لجنة التربية ، ورغم أن شوشانا كانت مقررة هـــذه اللجنة فى تل أبيب بالفعل . إلا أنها تشككت فى السبب الكامن وراء زيارات سوناتا المتتابعة بشكل مفاجىء ، وبغريزة انثى ولدت فى العقد الأخير من القرن الماضى ، أدركت أن موشى هو

هدف هذه الزيارات ، فاهتاجت بشكل جدى وأخيراً اكتشفت أن الموظف المخادع يتردد بانتظام على شقة سوناتا فطردته من الدار بعد شجار صاخب .

واكتشف الدكتور «ليفتال» — وهو رجل نحيل اجش الصوت يتناول قائمة حافلة من الأدوية والمقويات ... الصلة التى جمعت العاشقين على أثر الفضيحة المخجلة التى أثارتها شوشانا الجريحة ، فطلب من زوجته أن تهجر تل أبيب وتعود إلى الكيبوتز الذى كانا يقيمان فيه ، ولكن سوناتا كانت إمرأة ألمانية من مواليد بافاريا تتميز بعاطفة غلابة واعتزاز بالنفس ، فرفضت بشدة بل وطلبت إسقاط عضوية الكنيست عن شخصها ، ثم اتخذت خطوة أكثر جرأة ، إذ اصطحبت عشيقها إلى الأماكن العامة والحفلات التى يؤمها علية القوم دون أى إحساس بالجرم أو الخجل .

ولم تدم السعادة للعاشقين طويلا ، فقد دعى « موشى » لتأدية ضريبة الدم ، وكان هو مطيعا ، فارتضى أن يصبح جنديا فى جيش الدفاع الإسرائيلى ، واكتفى بأن طلب من عشيقته أن تتوسط له لدى أصدقائها ذوى النفوذ حتى لا يرسله الجيش إلى الأماكن النائية ، حيث الحدود والاشتباكات والألغام والمدفعية ولكى يبقى بجوارها .

واتصلت سوناتا اللعوب بصديق لها يدعى « آل » وكان « آل » هذا رجلا واسع النفوذ حقا ، كما كان يقدر مثل هذه المسائل ، إذ أن ابنه هو شخصيا كان مجندا فى الجيش وسبق له أن توسط لكى يستبقيه إلى جواره لذلك وجد أن من الطبيعى التدخل لكى يبقى موشى فى تل أبيب ، وبفضل « آل » ألحق الفتى بعمل مريح لا تكتنفه أية مخاطر ، وكان ذلك فى إدارة البريد العسكرية ، حيث برع المجند المثقف فى عمله داخل قسم الرقابة البريدية وكان هذا العمل هو الحلم الذى لم يكن يحلم به قط .

ولما كان موشى بلا عمل مدنى ، رحب بعد انقضاء فترة التجنيد الاجبارية بالبقاء فى صفوف الجيش ، وفى نفس الوقت بدأت إدارة الجاسوسية فى الاتصال بجاسوسها الذى استقر له المقام فى جيش العدو ، وحدث فى وقت ما سنة ١٩٧٢ أن تلقى موشى علبة صغيرة من الجلد . ولم تكن هذه العلبة تحتوى على أى شىء مخيف،مجرد جهاز لاسلكى دقيق ومفكك إلى قطع متناهية فى الصغر ، وقد وضعت كل قطعة داخل أداه عصرية من من أدوات الحلاقة،

وكان على موشى المدرب جيـــدا أن يعيد تركيب جهازه وأن يستخدم عدسة مكبرة فى قراءة الشفرة السرية التى كتبت على شفرات الحلاقة وبدأ جاسوسنا فى العمل تحت الرمز ١٠٠١ وكانت حروف تعارفه عبارة عن ثلاثة أحرف متتالية قبل بدء الرسالة وثلاثة أحرف متتالية عكسيا بعد انتهائها .

وبمجرد أن انتظمت الصلة بين موشى ورؤسائه ، أصدر إليه هؤلاء أمرا غريباً ، أن يثير حنق عشيقته بأقصى ما يستطيع من جهد وكما هى عادتهم دائما ، لم يقدموا أى مبرر منطقى للامر المتسم بالقسوة والذى بدا وكأنه الحماقة بعينها .

ولم يثر موشى حنق سوناتا ، بل أثار حقدها ، فقد عادت المرأة ذات ليلة إلى مسكنها لتجد فتاها الذى كان يزعم أنه سيقضى الليلة فى ثكنته غارقا فى ممارسة الحب مع فتاة طائشة متكورة الارداف تعمل فى محل لبيع مستحضرات التجميل فى شارع ديزنجوف ، وكان مشهد الفتى العارى بشعره المشوش وآثار أحمر الشفاه التى غطت شفتيه ووجنتيه ، وشابت بياض أسنانه أيضاً ، كافيا لنشوب عراك محتدم تلقى فى بدايته صفعة مدوية من أنامل سوناتا الخشنة.

وكان رده عنيفا إلى أقصى حد ، إذ دفعها بقوة فتدحرجت على السلالم وأصيبت برضوخ مؤلمة وبينما عضوة الكنيست الموقرة تصرخ من الاوجاع التى

لحقت بعظامها ، ارتدى موشى ثيابه وجمع حاجياته الشخصية ثم اصطحب عشيقته الجديدة إلى الخارج دون أن يهتم بأن يغلق الباب وراءه ، أو حتى بأن يلقى نظره على حبيبته السابقة التى كانت تشهق من خلال دموعها بنبرات مؤثرة .

ولجأت سوناتا إلى الثأر بطريقة موضوعية ، فاشتكت لصديقها « آل » من سوء تصرفات ذلك الفتى الجاحد للجميل والذى بذلت جهودها من أجل اسعاده وهكذا ، نقل موشى بشكل مفاجىء من إدارة البريد المركزية إلى الجبهة ، رقيباً للبريد فى مركز العمليات الإسرائيلى المقام فى أم مرجم ، ومن هناك عاد إلى ممارسة هوايته المحببة ، فى الاتصالات اللاسلكية .

وكان هذا الجاسوس النادر صاحب أكبر قسط من الفضل فى المعلومات التفصيلية التى حصلت عليها القاهرة عن جبهة القناة ، وحداتها ومراكز قيادتها وأسماء ضباطها وجنودها وأماكن أسلحتها ومناطق تمركز مدرعاتها ومدفعيتها وكانت إدارة الجاسوسية حريصة على جاسوسها المثالى ، فأمرته فى الساعة الثانية إلا خمسة دقائق بعد ظهر ٦ أكتوبر بالتوجه إلى المبنى الخشبى الذى كانت تحتله النقطة الطبية فى موقع أم مرجم وكان هذا المبنى مقاماً على مرتفع يبعد مسافة مائتى متر عن غرفة العمليات التى كانت الهدف الأول لغارات الطيران المكثفة لحظة نشوب الحرب .

ولكن ممارسة التجسس فى جبهة ملتهبة ليست من الأعمال البهيجة فقد ارسل موشى برقية عاجلة بنتائج التدمير الذى لحق بغرفة العمليات فى الثانية والنصف ، ثم ارسل برقية أخرى بأنه أمر هو وجماعة البريد بأن تستعد لكى تنقل إلى المواقع الأمامية وكان ذلك فى الثالثة إلا خمسة عشر دقيقة بالضبط ، وردت إدارة الجاسوسية بأن طلبت منه تحديد الطريق الذى سيسلكه أو الموقع الذى سوف يلحق به .

وفى الرابعة والنصف أفاد موشى بأن قافلته تتعرض لقصف عنيف من الطائرات وأنهم فقدوا أربعة عربات احترقت نهائياً إلا أنه لم يشر إلى الموقع الذى كان فى طريقه إليه .

وعادت إدارة الجاسوسية إلى مطلبها الذى كان ملحاً ورد موشى بأنه يتحرك فى اتجاه مدينة القنطرة شرق وقال أنه يرى إلى الشمال وحدة مدرعة تتحرك مثيرة عاصفة من الغبار نحو الجبهة ووعد بأن يرسل مزيداً من التفاصيل عنها بعد أن يصل إلى مسافة قريبة منها ولكن إدارة الجاسوسية لم تكن تريد من جاسوسها اية معلومات إضافية .

وعلى مسافة عشرة كيلومترات من نقطة تقع جنوب القنطرة شرق بخمسة عشر كيلو مترا أرسل موشى برقيته الأخيرة وكان راقداً على الرمال بعد أن هجر العربة بسبب الغارات الجوية وأعطى صورة دقيقة عنيفة للجبهة التى تفجرت بالدمار ، وكان صوت الانفجار يغطى على مقـــاطع رسالته ، وكان الجندى الشجاع قد تخلى عن الشفرة منذ اللحظة الأولى لاشتعال القتال ، الأمر الذى اعتبر خطأ فادحاً فى غرفة الاستماع وكان عامل الاستقبال المختص يعتقد أن هذه الرسائل الغريبة مدسوسة بمعرفة الإسرائيليين ، ولكن ضباط المخابرات كانوا يعرفون رجالهم .

واتصلت إدارة الجاسوسية بسرعة ملهوفة بالمنطقة رقم ١١٠ التى يوجد بها ضابط مخابرات القنطرة غرب وكان الاتصال فى الرابعة وسبعة وثلاثين دقيقة بالضبط ، وكانت المهمة المطلوب تنفيذها عسيرة صعبة التحقيق إلا إذا تدخلت السماء بشكل مباشر ، إذ كان على ضابط المخابرات المشار إليه أن يبحث عن قافلة العربات التى كان موشى من بين الجنود الذين نقلوا بواسطتها ، وأن يتصل بقائد الجيش الثانى لكى يصدر أوامره بعدم إطلاق النار ، مهما كانت الظروف على أى فرد من هؤلاء الجنود ، حتى لو اطلقوا هم النار فى اتجاه قواتنا .

وفى نفس الوقت أخذ عامل الارسال فى إدارة الجاسوسية ينادى على ١٠٠١ وسيطر الوجوم على جو الغرفة التى كانت تزدحم بالضباط والموظفين وشرائط الورق التى تتدافع من أحشاء اجهزة المبرقات الاتوماتيكية عندما دخل مدير إدارة الجاسوسية بنفسه، رجل أشيب نحيل ذو جبهة عريضة وعينين حادتين وملامح جادة توحى بالعزم.

وبتؤده شديدة مضى المدير إلى جهاز الارسال ثم أخذ ينادى بنفسه على أفضل جواسيسه وأكثرهم نفعا ١٠٠١، ١٠٠١، وتكرر النداء وارتفعت حدته دون أن يسجل الجهاز أية أجابة، وراح الرجل يعبث فى الازرار بأصابع قوية وبعصبية تنم عن الغضب، وفجأة القى الميكرفون من يده ونزع الأسلاك المثبتة فى ثقوب الجهاز وأعاد فحصها مرات قبل أن يعيدها إلى أمكانها، ثم راح ينادى ١٠٠١، ١٠٠١ وفى النهاية نفد صبر الرجل الذى لم يحدث مطلقا أن نفد صبره بشكل علنى. فازاح الجهاز بعيداً ثم نهض واقفـــا وعلى باب غرفته أمر أحد مساعديه بان يعد له طائرة.

وفى الجبهة كانت الصورة تحتوى على قدر كبير من المخاطرة والجسارة إذ اندفعت عربة جيب داكنة من عربات المخابرات وسط ارتال الدبابات وحشود المدفعية وعربات التمـــوين والاسعاف والعربات المكتظة بجنود المشاة المحتمين بارديتهم الصوفية، وكان رجل يجلس فى المقعد الأمامى بجوار السائق وهو يستحثه لكى يسرع وكان لا بد من الحصول على إذن من اللواء «سعد مأمون» قائد الجيش الثانى قبل الدخول إلى منطقة قتال الجيش.

وعلى جسر مزدحم عثر ضابط المخابرات على شاب يمكن أن يلتفت إليه، ضابط صغير كان منهمكا فى إصلاح دبابته التى تعطلت بالقرب من رأس الجسر وقفز ضابط المخابرات من العربة التى اقتربت لدرجة أن أنفها اندست تحت مدفع

الدبابة ، وضاقت عينا ملازم المدرعات وهو يشهد رجلا لا يحمل علامات الضباط يتحدث بلهجة آمره . أين أجد اللواء « سعد مأمون » ؟

ـ اللواء سعد؟!! لقد شاهدته لآخر مرة يعبر الجسر الذى يقع إلى شمالنا مباشرة عليك أن تبحث عنه فى الجانب الآخر ذلك إذا كان مازال حياً ، فقد رأيته يعبر الجسر وهو حاسر الرأس . واضطرت عربة المخابرات إلى عبور الجسر دون إذن من أحد ، وفى المنطقة الواقعة جنوب القنطرة شرق عثر ضابط المخابرات على شخص آخر لديه وقت للحديث مع الآخرين ، جندى من الشرطة العسكرية يقف فى حراسة مفترق طرق بينما ارتفع قائم من الخشب عليه سهم أخضر ، ومرة أخرى سأل الضابط عن اللواء سعد مأمون ، ولكن رجل الشرطة العسكرية سدد إليه نظره كما لو كان قد صادف أحد المجانين ، ثم انهمك فى ارشاد مجموعة من المدرعات وصلت إلى المكان .

وفى الخامسة إلا عشرة دقائق اكتشف الضابط أنه يبذل جهوداً فاشلة ، فقد حاول التقدم فى اتجاه الشرق ولكن جندى الشرطة حذره من التقدم بسبب الإلغام وأخيراً سأله عن السبب فى تلك الرغبة العارمة التى تعتريه لكى يتقدم شرقاً إلى الميدان ، وأجاب رجل المخابرات الحانق بأنه يبحث عن قافلة عربات على مسافة عشرة كيلو مترات من الشاطىء ولكن جندى الشرطة ابتسم بسخرية ثم هتف:

ـ عربات ؟ هل تتصور أنك ستعثر على عربات ، من هذا المجنون الذى يمكن أن يقود عربة فى هذا الجحيم ، ليس هناك أحياء فى هذه المنطقة ياسيدى .

وفى الخامسة والنصف كان الظلام قد بدأ يخيم على الجبهة ، وكانت الانفجارات تملأ الأفق مختلطة بهدير المدرعات وأصوات الرشاشات وهتافات الجنود الذين تدفقوا عبر الجسور ، ورغم ذلك تمكنت طائرة هيليوكبتر رمادية من الهبوط بسلام على الرمال بينما ظلت محركاتها تئز ، وهبط منها بسرعة إلى الأرض رجل نحيل ثم تبعه ثلاثة رجال يرتدون ملابس مدنية .



الشهيد عمرو طلبه . . لحظة العثور على جثته

وأسرع إلى مكانهم ضابط محارب أدى التحية للرجل النحيل ثم تقدمه إلى حيث كانت ست عربات محترقة تناثرت حولها الجثث وأضاء الرجال مصابيح يدوية ثم أخذوا يتجولون بين الجثث وهم يقلبونها برفق ، وفى حفرة سوداء يبدو أنها ناجمة عن قنبلة ثقيلة عثر أحد الضباط على موشى راقدا على جنبه الأيمن وقد غطى وجه بيديه ولم يكن بجواره أى سلاح .

والتف الضباط الأربعة حول رجلهم دون أن يجرؤ أحد على التفوه بكلمة ، وومض ضوء ساطع أعقبه صوت انفجار تردد صداه فى الأفق مرتين ، وهرول أحد الضباط إلى الطائرة وهتف بصوت عال ، وخرج من بطن الطائرة ستة جنود يحملون صندوقا من الخشب وعلما زاهى اللون ، وقبل أن تنقل الجثة الساخنة إلى الصندوق أصدر الرجل النحيل أمراً قصيرا وشد قامته ، ووقف الضباط الذين يرتدون ملابس مدنية وقفة عسكرية ، ورفع الضابط المحارب يده بالتحية وحذا الجنود حذوه ثم حمل الجميع الصندوق الملفوف فى العلم وعادوا به إلى الطائرة .

وكانت هذه هى نهاية قصة العريف رقم ٢٤٦٧٥ موشى زكى رافى ، الذى قتل وهو يؤدى واجبه دون أن يعرف حقيقته إلا نفر قليل من رؤسائه .

١٢

رؤساء المخابرات في غرفة القبطان

مثلما شعر الخبازون بالسعادة، عند ما سطع نجم روبسبير إبان الثورة الفرنسية.. أدرك رجال المخابرات المصريون أن ثمة مستقبلا مشرقا ينتظرهم بمجرد أن تولى السادات رئاسة الدولة، فهذا الرئيس الذى يترك لدى الآخرين انطباعا بالبساطة، والذى بدا فى صورة محببة للجماهير.. كرجل مسالم، مفرط فى التواضع يرتدى عباءة منزلية زرقاء، ويمارس مهام الرئاسة من بيته المطل على النيل .. أو من استراحة القناطر الحكومية التى تبعد عن العاصمة مسافة خمسة عشر كيلومترا ليس سوى رجل مخابرات متمرس وداهية ..

خطا السادات أول خطوة إلى عالم المخابرات منذ زمن بعيد، عندما كان ضابطا صغيراً أثناء الحرب العالمية الثانية .. فقد حدث أن أوفدت المخابرات الألمانية اثنين من جواسيسها إلى القاهرة . . كان أحدهما مصريا من أم ألمانية

يدعى حسين جعفر ، ويتخذ اسم هانز ابلر ، أما الثانى فكان ألمانيا يدعى ساندى وسلك الرجلان طريقاً محفوفا بالمخاطر ، عبر الصحراء الغربية ، وكانا يرتديان الزى الرسمى للجيش البريطانى ، كما استخدما عربة عسكرية بريطانية ، كان روميل قد استولى عليها فى احدى معاركه ، واتجها من جنوب سيوة إلى الواحات الخارجة ، ثم إلى أسيوط ، وبعد ذلك مضيا قدما إلى القاهرة ، مقر قيادة القوات البريطانية فى الشرق الأوسط وقتئذ .

ادعى الألمانيان أنهما من الضباط الانجليز ، وكانت فى حوزتهما كمية هائلة من الجنيهات الاسترلينية المزيفة ، وقد بلغ من دقة تزييفها ، أن البنك الأهلى المصرى ، بدل لهما أربعين ألف جنيه بالعملة المصرية ، بواسطة سمسار يهودى حصل على ثلاثين فى المائة من الصفقة كعمولة ، وجهاز ارسال لاسلكى قوى ، واستقر لهما المقام فى عوامة كانت تملكها راقصة شهيرة تدعى حكمت فهمى ، وكانت مهمتهما سهلة لا تكتنفها أية مصاعب ، يسهران طوال الليل فى ملهى الكيت كات ، حيث كانت صديقتهما ترقص كل ليلة ، ويتسقطان الأخبار والمعلومات من الضباط الانجليز الذين يرتادون الملهى ثم يعودان فى الفجر إلى العوامة ، ومن هناك ، تنطلق الرسائل اللاسلكية إلى المخابرات الألمانية .

وذات يوم تعطل جهاز الارسال فجأة ، وزعم الألمانيان أنهما عجزا عن اصلاحه ، فلجآ إلى دبلوماسى من عملاء المخابرات الألمانية ، يدعى «هوارد» كان يعمل فى مفوضية السويد ، كمسؤول عن شؤون الرعايا الألمان فى مصر ، واضطر هوارد إلى سرقة جهاز إرسال أمريكى من المفوضية السويسرية ، إلا أن العميلين الرديئين عجزا عن تشغيل الجهاز الجديد أيضا .

واستغل حسين جعفر صلته بالمجتمع المصرى فاتصل بأسرة كانت

صديقة لأسرته ، وطلب من مفتش بمصلحة العمل يدعى عبد المغنى سعيد ، أن يعاونه فى العثور على أحد الفنيين لإصلاح الجهاز المعطل ، فدله الأخير على ضابط برتبة صاغ (رائد) يدعى حسين عزت ، الذى تولى تقديم العميلين إلى الرئيس السادات ، بوصفه ضابطا فى سلاح الاشارة ، وأبدى السادات استعدادا طيباً لمعاونة الألمانيين ، ووعد بزيارة العوامة لكى يلقى نظرة .

إن القصة عند هذه النقطة تستوجب أكبر قدر من التأمل ، فليس لدينا أدنى شك فى أن السادات كان يقدر المخاطر التى تكمن فى الاتصال بجاسوسيين ألمانيين ، ناهيك عن تقديم العون لهما ، وفى وقت كانت فيه المخابرات البريطانية تتمتع بأوفر قسط من الشهرة ، ولكن يبدو أن الرغبة التى كانت تملأ جوانحه ، والتى كانت تتلخص فى الحاق الضرر بالجيش الذى يحتل بلاده بأية وسيلة ؛ قد حفزته على المجازفة . ومما يستوقف نظرنا ، أن السادات كشف بسلوكه بعد ذلك ، عن موهبة فطرية ، ساعدته على انتهاج العمل السرى بثقة وحذر كاملين .

ففى وصف لحظة دخوله إلى العوامة ، قال الرئيس : «نظرت إلى أعلى العوامة فوجدت أربع ساريات من ساريات السلك الهوائى الذى يستعمل للارسال اللاسلكى والاستقبال ، فاعترتنى رهبة مفاجئة ، فان وجود سلكين هوائيين فوق سطح عوامة قد يثير بعضاً من الشكوك ، ثم تتابعت الأفكار فى سرعة متلاحقة وأصبحت بعد ذلك أسئلة لا أجد جوابا عليها ، هل يعرف اليهودى الذى بدل لها الأموال حقيقتهما فعلا . . ؟ !

وإذا كان يعرفها فهل تكفيه العمولة الكبيرة التى يتقاضاها لكى يسكت ولا يخون ؛ وما حقيقة موقف حكمت فهمى فى هذه المغامرة وما مدى

استعدادها للسير فيها إلى آخر الطريق وهل تستطيع أن تقدر حقيقة هذا الطريق والنتائج الخطيرة التي قد ينتهي بها إليها .

وفتحت لي الباب حكمت فهمي وبعد لحظات كان أمامي الألمانيان ابلر وساندي يرحبان بمقدمي بينما تدور عيناي في أرجاء العوامة أحاول أن استكشف نوع الحياة التي تجري بداخلها ولم يكن عسيرا على أن أحدد هذه الحياة في دقائق قليلة .

كان الجهاز مخبأ في قاعدة راديو موبيليا أنيق . في أعلاه بيك آب مغطى بغطاء خشبي دقيق الصنع وفي جوانبه دواليب صغيرة، ومقسمة لحفظ الاسطوانات ، وأمسك ابلر بالجزء الخاص بالبيك آب ثم حركه حركة بسيطة فانفتح إلى أعلى وقال للسادات : أنظر ، فنظر ليجد تجويفا كبيرا يكفي ليهبط فيه رجل ، فيجد كرسيا صغيرا وأمامه جهاز اللاسلكي وقال ابلر : تستطيع أن تجلس هنا على هذا الكرسي وأن تضيء النور الداخلي ، ثم أغلق عليك من فوق وأدير اسطوانة للرقص .

وبعد فحص الجهاز أوضح السادات أنه لم يشاهد مثله من قبل وعرض عليه الألمانيان أن يفحص الجهاز الامريكي وكان مخبأ في الطابق الأسفل ، وقصا عليه قصةهوارد بالتفصيل ، ولاحظ السادات أنه من النوع المعروف بالهاليكرافتر جديد كما أنه سهل الاستعمال ، فاتجه إلى الألمانيين وسألها ببطء :

هل الجهاز الأول معطل حقا ؟ !

شك الرئيس إذن فى حقيقة الألمانيين ، وقال فيما بعد إنه أعتقد أن العميلين استمرآ الحياة اللاهية وتقاعسا عن تأدية مهمتهما ، لذا عطلا الجهاز ولجآ إلى « هوارد» حتى ينقل القصة إلى قيادتهما وتنبأ الرئيس بأنهما سوف يعطلان الجهاز الأمريكى أيضاً فاقترح أن يأخذه معه ليفحصه فحصاً دقيقاً .

وبعد أن تردد السادات على العوامة حدثت حادثة مخيفة ، فقد جاءت نهاية الألمانيين على يد فتاتين يهوديتين من عملاء المخابرات البريطانية فقد كان الرجلان يمانيان من ولع بجنون ببنات الهوى ، وذات ليلة أفرطا فى الشراب وارتفعت عقيرتهما بنشيد ألمانيا فوق الجميع ، وتعجبت اليهوديتان من هذين الضابطين الانجليزيين اللذين يغنيان لنشيد عدوهما ، فأفضيا بالقصة إلى المخابرات البريطانية التى راقبتهما لمدة شهر ثم ألقت القبض عليهما .

يقول الرئيس . . بدأت سلسلة من التحريات على نطاق ضيق ومأمون ، فعلمت أن المخابرات البريطانية قد علمت بوجودهما منذ شهر ، وأن الرقابة كانت مفروضة عليهما طوال هذا الشهر ليلا ونهاراً وأن هم الرقابة كان معرفة أعوانهما فى القاهرة وعرفت بعد ذلك أن هذه المراقبة لم تكشف صلتى بهما ، ولم تقع أعينها على داخلا إلى العوامة ولا خارجا منها ، وأنها حتى بعد القبض عليهما لم تكن تعرف عنى شيئاً وتكشفت لى المخابرات البريطانية على حقيقتها : خرافة كبيرة .

ولكن المخابرات البريطانية حملت الجاسوسين حملا إلى ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا وقتئذ وكان فى زيارة لمصر ، فوعدهما الثعلب العجوز بحياتهما إن اعترفا بكل شىء فاعترفا اعترافا كاملا .

وقدم السادات للمحاكمة أمام مجلس عسكرى ، برئاسة ضابط انجليزى برتبة ميجور يدعى جنكنز ، وعضوية ضابطين أحدهما انجليزى يدعى سمبسون والآخر

ضابط شرطة مصرى يدعى كمال رياض ، ولم يكن لدى السادات أى إعتراض فيما يتعلق بالموضوع ، ولكنه احتج بشدة على محاكمته ، بوصفه ضابطا مصريا أمام ضباط انجليز . ورفض أن يدلى بكلمة واحدة أمام المحكمة ، ومع ذلك صدر الحكم بطرده من الجيش فى الثامن من أكتوبر ١٩٤٢ ، وبعد أن خلع الكسوة العسكرية ، قبضت عليه الشرطة المدنية ورحلته إلى معتقل المنيا .

إن هذه الفترة من حياة السادات ، لا تكشف فقط عن مقدرته الفذة ، فى القيام بالعمل السرى على خير وجه فحسب ، ولكنها تكشف لنا أيضاً عن إدراكه لأهمية التخطيط والدراسة ، بل انه يعترف بأنه إنسان لديه نقطة ضعف شأنه شأن الآخرين وان كانت لديه الشجاعة على أن يكشف نقطة ضعفه جلية واضحة دونما مواراة أو أدعاء .

ويقول الرئيس :

قد يعرف الذين زاولوا الكفاح من أجل فكرة أنهم لا يضعفون أمام الموت ولا يضعفون أمام السجن ولا يضعفون أمام التعذيب وقد يخيل إليهم فى لحظات الحماس والانفعال أنهم لن يضعفوا أمام شىء فى الوجود ولكنهم فى هذا واهمون فهناك الشىء الذى يضعفون أمامه والذى لا يملكون حياله إلا الفرار . . ولعلك عرفت الآن ما هو هذا الشىء الذى يضعف أمامه المجاهدون أنه الولد . . الطفل . العيال ، هؤلاء الصغار الودعاء الذين تدفعهم دفعا إلى مرارة الكفاح وتأخذهم أخذاً على الصبر والحرمان والتقشف ولما يدرجوا بعد مهاد الطفولة ، هؤلاء هم نقطة الضعف فينا ، وهى نقطة ضعف أعترف بها ولا تخجلنى لأنى إنسان .

ولكن السادات لم يكن من الطراز الذى يمكن أن يبقى ساكنا عندما يقع فى قبضة عدوه فقد تمكن من الهروب من معتقله ، بخطة جريئة وبارعة اعتمدت على شجاعته وحده ، فى نوفمبر سنة ١٩٤٤ ويصف الفترة التى أعقبت هروبه بكلمات

تتسم بالصدق إذ يقول : وفى الوقت الذى هربت فيه من المعتقل وبدأت أكافح لأعيش هاربا شريداً أقتات من عدد من الأعمال الغريبة هنا وهناك متنكرا مستترا حتى الغيت الأحكام العرفية عام ١٩٤٥ فبدأت أظهر بوجهى .

وكان السادات فى تلك الفترة التى حفلت بالمشقة والمعاناة والجلد ، يتلقى عون المخابرات المصرية بطريقة مباشرة وكان مديرها فى ذلك الوقت ضابطا برتبة عقيد يدعى موسى لطفى ، وقد تولى هذا الضابط الوطنى تحذير السادات من أن المخابرات البريطانية تراقبه بعناية ويقول الرئيس : فهمت أن تحركاتى كانت مكشوفة وذكرت لهذا الرجل احسانه إلى بكشف هذا السر لى .

وثمة حادثة أخرى تبين جانبا من اسلوب الرئيس ، فقد حدث أن اتصل العملاء الألمان بالفريق عزيز المصرى ، ذلك المجاهد المصرى الجسور ، واقترحوا أن يقدموا له كل معـــاونة ، لكى يفر من مصر و ينضم إلى صفوفهم ، وكان السادات مضطلعا بأهم جوانب هذه العملية عارفا بأدق تفاصيلها وعندما شرح الخطوات التى اتخذها فيما بعد جاء شرحه معبرا عن عقليته المرتبة وتقديره لأقل الاحتمالات ، فقد قال بالحرف الواحد :

ـــ وضع الألمان خطه الاختطاف وطلبوا منا أن نحدد لهم مكاناً خارج القاهرة يصلح لنزول الطائرات ، وقالوا أنهم بمجرد معرفة هذا المكان سيرسلون طائرة تحمل العلامات الانجـــليزية لتهبط فيه ويكون عزيز المصرى فى انتظار الطائرة ، وعلى الفور تناولنا الخرائط وأخذنا نحن الاثنين ومعنا زميلى عبد المنعم عبد الرؤوف ندرس جميع الأماكن وندرس أيضاً كل الاحتمالات .

اخترنا مطار الخطاطبة ولم يكن مطاراً بالمعنى المفهوم وإنما كان مجرد أرض صالحة لهبوط طائرة وقمنا ثلاثتنا لاستكشافه فى عربة عزيز المصرى ثم حددنا مكانه على الخريطة بالطريقة الطبوغرافية العسكرية وأرسلناه إلى الألمان ، ولكن

الألمان رفضوا مطار الخطاطبة وعينوا منطقة جبل رزه على طريق الواحات البحرية. وكان الاتفاق على أن تهبط الطائرة عند الغروب وأن يصعد إليها عزيز بمفرده. ثم يتصل بنا عن طريق اللاسلكى فور وصوله إلى خطوط الألمان ولكن عربة عزيز تعطلت ولم يصل فى الموعد المحدد فعادت الطائرة ادراجها .

وبصرف النظر عن الحجج التى قدمها السادات أمام المحاكم كانت حياته بعد هذه المغامرة سلسلة متصلة من التنكر والتخفى ، واضطر إلى ممارسة مهن وضيعة وشاقة . هربا من السلطات التى كانت تبحث عنه بضراوة ، وفى آخر الأمر، اشترك فى تنفيذ تدبير بالغ الجرأة للاطاحة بالملك والاستيلاء على السلطة ولا شك أن هذه الحياة الخفية ، مع متاعب الكفاح ضد الاحتلال الانجليزى ، قد اكسبته صلابة ومقدرة عالية على تحمل الصعاب ، كذلك صقلت موهبته الفطرية المتمثلة فى البراعة المتسمة بالدهاء ، على الافلات من الشراك والفخاخ التى تعترض طريقه ، فابتكر لنفسه قاعدة قوية يعيش حياته بمقتضاها وطبقها دائما بكل دقة وهى ألا يسمح لأى إنسان بالاطلاع على أفكاره الخاصة ، حتى لا يتمكن أحد من التنبؤ بخطوته المقبلة .

بعد وصوله إلى مقعد الرئاسة ببضع ساعات ، حرر السادات بخط يده أول مذكرة إلى إدارة المخابرات يسألها عن معلومات تفصيلية عن قوة الأسطول الاسرائيلى وأماكن قطعه البحرية ودرجة صلاحيتها كما طلب بيانا عن تسليحها ، وشعر الرئيس بالاغتباط لسرعة مجىء المعلومات الصادقة والتى تبعث على التقدير والرضا ، فقد تلقى ردا وافيا فى مدى ساعتين ونصف ساعة .

وفى أول فرصة ، قام السادات بزيارة أجهزة مخابراته للتعرف على رجالها ، ومن المقطوع به بصفة مؤكدة ، أن الرئيس ترك لدى رجال المخابرات

انطباعا صادقا بأنه ليس سوى واحد منهم ، يتحدث نفس لغتهــم ويطوى جوانحه على ذات المشاعر التى تجيش فى صدورهم ، وأثبتت الحوادث التى تداعت فيما بعد ، أن منظمات المخابرات المصرية على اختلاف مجالاتها ، قــد ارتبطت به ارتباطا وثيقا .

ومن المعروف أن رجال المخابرات لا يملكون السلطة على اصــدار القرارات السياسية التى تتفق معما جمعوه من معلومات ، فهذه مهمة القائمين برسم السياسة وصياغتها ، وفى أغلب الأحيان يشعر رجال المخابرات بالأسى عندما تأتى القرارات العليا مناقضة لما لديهم من معلومات أما عندما يكون رجل من طراز السادات فى قمة السلطة فان الأمور تتخذ شكلا باهرا يبعث على الاطمئنان والبهجة .

كان السادات دائما لا يطمئن إذا قام آخرون بتقديم المعلومات إليه بعد تصفيتها وتلخيصها ، ويفضل أن يرى الوثائق فى صورتها الاصلية ، وذلك لكى يستخلص منها النتائج بنفسه . وكان الرأى الذى تبناه وأعلنه لضباط مخابراته أن اختصار تقارير المخابرات التى تكتب أصلا باختصار شديد يفقدها كثيرا من مزاياها ، وتصبح عديمة الجدوى .

أخذ السادات يغمر المخابرات بسيل من المذكرات : فمثلا فى أول يوليو ١٩٧١ أخذ يستعلم عن قوة أجهزة ضخ النابالم التى أقامها الاسرائيليون على شاطىء قناة السويس الشرقى وسأل : هل هناك ما يدل على قيام الضفادع البشرية بحراسة فتحات هذه الأجهزة ؟

وفى نفس التاريخ استفسر السادات عن قوة الاذاعة العبرية الموجهة الى اسرائيل وأمر بمضاعفة امكانياتها وتزويدها بالعدد الكافى من المذيعين

ومعدى البرامج ، ثم اقترح أن يقوم نوع من التعاون بين المخابرات وادارة الحرب النفسية لرسم خطة اعلامية تنفذ على مراحل ، على أن تتحمـــل الإذاعة العبرية النصيب الأوفر فى تنفيذ هذه الخطة وعلى أن تشرف لجنة من علماء النفس والاجتماع على العملية كلها .

كان السادات يتحرك باسلوبه الخاص فى اتجاه أهدافه ، فبعد أن نحى الفريق القديم الذى وجده فى مواقع السلطة ، اختار السادات فريقه الجديد الذى جمعه بطريقة فذة ، مدير سابق المخابرات قائداً للجيش ، ومدير سابق للمخابرات أيضا مستشاراً للأمن القومى ، ومدير سابق للمخابرات العسكرية مديراً للعمليات بالإضافة الى عدد من الرجال أثبتوا أن لديهم الموهبة الوحيدة التى يبحث عنها الرئيس ، موهبة رجل المخابرات فحسب ، فقد كانت عمليته التالية عبارة عن خطة بالغة السريه لمواجهة ودحر جيش محصن قوى تابع لدولة اتخذت انفسها صورة الدولة الأقوى حربيا والطاغية وهى اسرائيل ..

وهكذا اعتلى رؤساء المخابرات ظهر السفينة فى انتظار أوامر القبطان .

وفى وقت لاحق ، قدمت الأحداث دليلا لا يقبل الشك على أن أحداً من الذين اطلعوا على السر لم ينطق به أبداً وتسنى لهذه المجموعة الفذة أن تقوم بهجوم شامل وشرس ضد الجيش الاسرائيلى دون أن تنتبه المخابرات الإسرائيلية النشيطة ، وأجهزة مخابرات عديدة أكثر منها قوة . . بل وجميع أجهزة المخابرات فى هذا الكوكب بلا أى استثناء وفى الساعات الأربع والعشرين التى سبقت حرب اكتوبر كان السر منوطا بأكثر من مائة وخمسين شخصا فى مصر وسوريا .

وحتى الآن لا يسمح الرئيس بأقل قدر من التهاون فى إجراءات

الأمن ، ولعل هذا هو السر فى اصراره على عقد الاجتماعات وجلسات المحادثات التى يشترك فيها، فى أماكن غير محددة سلفا من القاهرة الى أسوان ، وأحيانا فى أماكن مجهولة من الصحراء .

فى شتاء سنة ١٩٧٢ حدث أن أمطرت السماء بغزارة فى القاهرة وهذه ظاهرة نادرة الحدوث، وأدى انهار المطر الى تعطل بعض المرافق الحيوية فى العاصمة وغرقت العربات الصغيرة حتى آذانها فى ميدان التحرير ، وانقطع التيار الكهربى فى معظم الأحياء المكتظة بالسكان ، واستحالت الاتصالات عن طريق التليفون، واستغل كاتب خفيف الظل، بارع الأسلوب، وهو الأستاذ أحمد بهجت ، هذه المتاعب الكثيبة فى كتابة مقال لاذع نشرته جريدة الأهرام الذى ينتمى الى هيئة محرريها، وفى نهاية المقال وجه الصحفى نقدا مريرا على شكل سؤال صاغه على هذا النحو :

— ماذا لو أمطرت الدنيا ونحن نحارب؟!

والتقط السادات الكرة على الفور، وفى أول حديث عام له بعد نشر المقال، أبدى عجبه لأن الكاتب سخر من تعطل المرافق بفعل المطر، وأضاف أن الحرب سوف تؤدى الى تخريب أكثر بشاعة ثم أنهى المسألة عند هذا الحد وتطرق الى موضوع آخر ، ولم تكن هذه الفقرة من حديثه فى الحقيقة موجهة الى أحمد بهجت ، ولكنها كانت اشارة ذات دلالة قصوى للاسرائيليين الذين شعروا بالارتياح لأن الرئيس يتوقع أن تصل الحرب الى عاصمته، كما يدرك أن التدمير سوف يلحق بمظاهر الحياة فيها ، وكانت تصريحات الزعماء الإسرائيليين تحوى دائما تهديدات سافرة بنقل المعركة الى العواصم العربية نفسها .

كان الرئيس يعتقد أن الاسرائيليين سوف ينتبهوا لما يجرى حولهم فى

يوم الحرب، عندما يرفع الجنود شباك التمويه من فوق الدبابات، وبعد أن تخرج معدات العبور من مخابئها الجيدة الإخفاء، وكان رد الفعل المتوقع فى تصوره أنهم سوف يقدرون للهجوم موعدا متأخرا، فى غروب الشمس أو بعد الغروب بساعة على الأقل ولكنه كان على يقين من أنهم لن يستطيعوا « اللحاق بنا » .

ومن دراسته المبنية على التجارب العملية للفكر العسكرى الإسرائيلى ، استنتج الرئيس أن الإسرائيليين سوف يلجأون إلى الخداع السياسى فيطلبوا من الولايات المتحدة الامريكيه التدخل لدى مصر لاقناعنا بانتظار الحلول السلمية وفى نفس الوقت تجرى عملية تعبئة الجيش الاسرائيلى بسرعة ليبدأوا هم الحرب صباح الاثنين ٨ أكتوبر بضربة اجهاض جوية .

وكان يوم الاثنين هو اليوم الأمثل فى رأى الرئيس بالنسبة لإسرائيل، فهى تتغلب ببدء الحرب فى ذلك اليوم على المشاكل الناجمة عن تزمت طوائف اليهود المتدينين الذين يرفضون أداء أى عمل يوم السبت حتى لو كان هذا العمل يتعلق بالتهام أراض جديدة، وطرد أصحابها أو قتلهم جزاء لحسن نيتهم .

كذلك تتوفر السرية فى إسرائيل لإجراءات الحشد العسكرى، إذ أن السفارات الأجنبية تغلق أبوابها فى أيام الآحاد، ويتغيب رجال السلك الدبلوماسى بعيدا عن أجهزة اللاسلكى، الصلة الوحيدة بينهم وبين دولهم فى حالات الطوارىء العاجلة، كذلك تنتهى الحرب التى تبدأ يوم الاثنين قبل حلول السبت التالى ، او تصبح القوات الاسرائيلية على الأقل فى موقف يسمح لليهود المتزمتين بالاخلاد إلى الراحة .

والغريب أن إسرائيل قد بدأت الحرب بالفعل إبان العدوان الثلاثى، يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر، وبدأت الحرب بعد ذلك سنة ١٩٦٧ فى نفس اليوم المفضل، الاثنين

الخامس من يونيو، الأمر الذى يؤكد أن تصور الرئيس كان دقيقاً، كما كان صائباً

وامعانا فى الخداع نقل الرجل الذى يحمل على كتفيه أعلى رتب الجيش، نقل ورش الاصلاح الرئيسية إلى مواقع متقدمة خلف الجبهة، وبينما كانت أرتال الدبابات تنساب نحو جبهة القتال كان بمقدور أى جاسوس حاذق أن يقف إلى جوار الطريق ليسأل سائقى الدبابات عن وجهتهم، لأن الاوامر التى تسلموها كانت تقضى بالاتجاه نحو الورشة وهى شىء مختلف تماما عن الحرب، وقد نقلت أطقم هذه الدبابات قبل الحرب بيوم واحد فى عربات نقل عادية .

أما معدات العبور، الهدف الرئيسى للجواسيس المهرة ، فكانت مشكلتها سهلة وتم التغلب عليها ببساطة، فقد اشترت مصر ضعف المعدات التى تلزمها فعلا لعبور القناة، ونقلت نصف الشحنة من ميناء الاسكندرية علنا إلى منطقة صحراوية فى ضاحية حلوان، وكدست على مرمى البصر بالقرب من طريق ممهد، ثم تركت هناك حتى ساعة بدء القتال دون أن تستخدم قط، أما النصف الثانى الذى استخدم فعلا فى عبور القوات وقت الحرب فقد نقل محاطا بأقصى درجات السرية والتكتم إلى الجبهة .

واتبع فى تدريب القوات أسلوب تميز بالدهاء والمكر، فبعد أن قام عملاء المخابرات على مدى ست سنوات بتجميع صورة شاملة لأدق تفاصيل الشاطىء الشرقى، حيث كان يقبع الاسرائيليون، أقيمت نماذج متفرقة لعدة قطاعات من خط بارليف الشهير فى السهل الصحراوى المجاور لمناطق استصلاح الأراضى فى الصحراء الغربية، ونقل الجنود إلى مواقع التدريب العملى فى عربات طليت باللون الأحمر وتحمل اسم أحد المقاولين الذين لاوجود لهم، وألقيت وسط منطقة هذه النماذج التى كانت تنص بالخيام البالية، لافتة خشبية كتب على سطحها المتجه إلى السماء عبارة «المؤسسة المصرية العامة لاستصلاح الأراضى» بخط بارز.

وكانت هذه اللافتة تبدو كما لو كانت قد اقتلعت من مكانها بفعل الرياح ولم ينس ضباط المخابرات أن يطمروا جزءا من اللافتة فى الرمال لاخفاء بعض أحرف الكلمات المشجعة، وكان على أجهزة قراءة الصور الجوية المعادية أن تستخدم الخيال فى استكمال الأحرف الناقصة ثم تشعر بالسعادة

وتنبأ ضباط المخابرات بمشكلة مستقبلة لم يكن أحد يتصور أنهم سوف يضعونها فى حسابهم، وكان لديهم إحصاء دقيق عن عدد المصابيح الكهربية اليدوية المتوفرة فى السوق المحلية، ومن المعروف أن مثل هذه السلع تخضع لضرورات العرض والطلب، وعلى ذلك كان المتوفر منها يكفى فقط للاستهلاك العادى فى الظروف العادية، وقرر الضباط أن الطلب سوف يزداد عند اندلاع الحرب على هذه المصابيح، تبعا لأوامر الاظلام التى تطبق بصرامة للوقاية من الغارات الجوية .

وأعتقد أن هذه النقطة تحتاج لشرح جانبى فقد لاحظت استخفافا بأوامر الاظلام هذه رغم أن الجميع حرص على تطبيقها، إذ كان الناس يتساءلون ما فائدة هذه الظلمة التى نسبح فيها ما دامت الطائرات الحديثة مزودة بأجهزة متقدمة لحساب مسافة الهدف ولضبط دقة التصويب بالإضافة إلى الأشعة تحت الحمراء ؟

ويبدو هذا الاعتراض منطقيا للوهلة الأولى، ولكن لو أننا فكرنا بعقلية المخابرات، فيجب ألا نهمل احتمالا واحدا وان بدا بعيد الوقوع وهو تعطل الأجهزة الملاحية أو انحرافها عن جادة الصواب، وفى مثل هذه الحالة علينا ألا نسهل للعدو القيام بمهمته .

ولم يكن من الصواب استيراد أعداد كبيرة من هذه المصابيح بصفة مفاجئة، ووجد أحد الضباط الاكفاء حلا طريفا للمشكلة التى بحثت فى يوليو قبل الحرب بثلاثة أشهر، فارسل عميلا مدربا إلى مهرب يتجر فى قطع غيار السيارات.

وبعد أن تأكد هذا المهرب من أن زميل المهنة الجديد على دراية كبيرة بمسالك الصحراء وخلجان الشاطىء ، كما أن له صداقات حميمه مع بعض رجال الجمارك ، تم الاتفاق بين الاثنين على تهريب صفقة ضخمة من المصابيح المختلفة الأحجام .

واستأجر الرجلان ثلاثة مخازن لتكديس سلعهم المهربة واحد فى الصحراء الغربية والثانى بدروم فسيح فى منزل قديم بالاسكندرية ، بالإضافة إلى جراج فى حى العباسية بالقاهرة ، ورفض عميل المخابرات بشدة بيع الشحنات أولا بأول حتى لا يتعرضا لخطر الاكتشاف ، وأضطر المهرب فى النهاية إلى الرضوخ لمطالب الزميل المفرط فى الحذر .

وفى اليوم المحدد لتهريب الشحنة الأخيرة قبضت داورية من حراس الحدود على العميل وفى حوزته كمية ضخمة من المصابيح وطبقـــا لنصوص القانون ، صودرت المصابيح المضبوطة كلها وعرضت للبيع فى المجمعات الاستهلاكية بأثمان متواضعة . وانتشرت القصة فى أوساط المهربين وهم فئة من البشر دائمى التنقل من بلد لآخر بحكم مهنتهم .

ويبدو أن الأساليب العتيقة تعود أحياناً بالنفع هى الأخرى ، فقد صنع الفنيون فى الجيش المصرى عدداً كبيراً من الدبابات وعربات الرادار الهيكلية ، وأخفيت هذه اللعب المصنوعة من الخشب الحبيبى داخل حفر مشابهة لحفر المعدات الحقيقية ، ولا شك فى أن الإسرائيليين كانوا يهزأون فى قرارة أنفسهم من هذه المعدات البلهاء والواضحة التزييف ، ولـكنهم لم يدركوا إلا بعد فوات الأوان أنها كانت تخفى فى جوفها قوارب من المطاط واجزاء عائمة انشقت عنها الأرض لحظة بدء الهجوم .

وفى أول سبتمبر قدرت هيئة الأركان خسائر عملية العبور بحوالى نصف قوات الموجة الأولى ثم تطرد النسبة تنازليا مع استمرار تدفق القوات ، وكان هذا

التقدير مجافيا للصواب ، لأن الهجوم الفعلى أسفر عن عـــدة مئات من الشهداء والجرحى من مجموع ثمانين ألف رجل عبروا فى الست ساعات الأولى، وتقرر اخلاء عدد من المستشفيات المدنية للمساعدة فى عملية استقبال الجرحى ، وعلى الفور هب ضباط المخابرات لتقديم المعونة باتقان ، فنصحوا إدارة شئون الضباط فى القوات المسلحة بتسريح ضابط طبيب كان مستدعى للخدمة العسكرية ، وما أن أعيد هذا الطبيب إلى الحياة المدنية حتى تسلم وظيفته السابقة فى وزارة الصحة، وعين فى مستشفى الدمرداش الذى وقع عليه الاختيار ليكون فى أول القائمة .

ولأن هذا الطبيب كان رجلا حاذقا وجدا فى عمله ، اكتشف بعد وصوله إلى المستشفى بفترة قصيرة أن ميكروب التيتانوس يلوث العنابر الرئيسية مما سبب له انزعاجاً شديداً وأصابه بالهم والقلق وبعد ضياع يومين فى المناقشات التلبية وكتابة المذكرات أخلى المستشفى تماماً من المرضى بحجة تطهيره ، وبعدها تقرر أن يقوم بجولة تفتيشية على بقية المستشفيات لاستكشاف درجة تلوثها ، وما أن حل أول أكتوبر حتى كان العدد المطلوب من هذه المستشفيات قد أخلى نهائياً .

وتمثلت قمة الخداع فى عملية النشر العلنية التى واكبت هـــذا الاجراء فعلى صفحتها الثالثة نشرت جريدة الأهرام ، تحقيقا مصورا عن اخلاء المستشفيات الملوثة ، وظهرت بوضوح صور الأسرة الخالية وعمال التطهير وهم يعفرون العنابر المهجورة برذاذ المواد الكيماوية المطهرة .

كانت المخابرات المصرية على دراية كبيرة بأجهزة الاستطلاع الجوى ، التى تستخدم فى التقاط الصور ونقلها بكفاءة ، وعلى الأخص الأقمار الصناعية المزودة بمعدات التصوير الحرارى، التى تستطيع التقاط صور واضحة لتحركات المعدات حتى بعد أن تغادر أماكنها ، بدقة متناهية ، ولم تكن هناك وسيلة لإخفاء طوابير العربات والمصفحات والدبابات وقطع المدفعية ، عن عدسات هذه الأقمار التى

لا تكف عن الدوران حول كوكب الأرض ، فى مسارات متعددة ، ولكن الدراسة العميقة أثبتت أن فى الإمكان خداعها .

وكان من المعروف لدى خبراء الاستطلاع الجوى المصريين أن هذه الأقمار تحلل الألوان إلى اثنين وثلاثين قسماً تتدرج من الأبيض الناصع إلى الأسود القاتم ، ثم ترسل أرقاماً يعبر كل منها عن لون المربع الواضح فى الصورة ، وفى مراكز الاستقبال الأرضية يعاد استبدال الأرقام بمربعات لها نفس درجة اللون فتتكون الصورة مرة أخرى .

وقد نوقشت مشكلة الأقمار الصناعية فى وقت مبكر بعد أن اتخذ قرار الحرب الذى صدر بالاجماع فى أبريل ١٩٧٣ ، وكان رأى اللواء الجمسى — ذلك الضابط الماهر الذى يشبه الرمح — أن القمر الصناعى ليس إلا جاسوسا أبكم يمكن رصده بسهولة ، واستقر الرأى على تشكيل مجموعة بحث لدراسة الوسائل الكفيلة بتضليل الأقمار الصناعية وكانت ثمرة عملها معجزة حقيقية .

وضعت مجموعة البحث فى اعتبارهـــا ، شبكة الطرق المؤدية إلى جبهة القتال ومواصفاتها ثم مدارات الأقمار الصناعية ومواقيت إطلاقها ، وبعد ذلك قامت المجموعة بوضع عدد من الجداول الزمنية المعقدة أيما تعقيد وأوضحت هذه الجداول مواعيد تحرك القوات وأماكن توقفها ومدة التوقف بالدقيقة ، مع اصدار الأوامر المشددة باتباع هذه الجداول بمنتهى الدقة ، وعلى هذا الأساس كانت الطوابير تتحرك إلى الجبهة فى مجموعات صغيرة فوق طرق مختارة بعناية حتى لو كانت طرقا فرعية ، ثم تعود العربات الخالية بمجموعات كبيرة فى وقت مناسب لكى يمر من فوقها القمر الصناعى الباحث عن المعلومات ، وهكذا استقبلت مراكز دراسة الصور الجوية . صوراً كثيرة ولكنها تؤدى إلى استنتاج معاكس للحقيقة ، وكان هذا هو هدف المخابرات المصرية بالضبط .

وفى المجال الخارجى اتخذت خطة الخداع طريقاً حرجا ، وعلى سبيل المثال كان من المقرر أن يصل إلى القاهرة يوم الاثنين ٨ أكتوبر وزير الدفاع الرومانى وكان المشير أحمد إسماعيل قد وجه الدعوة إلى الوزير الصديق لزيارة مصر ، وأصدر بيانا رسميا أعلن فيه أنه سيكون شخصيا فى استقبال الضيف لدى وصوله إلى المطار القاهرة الدولى .

كذلك أعلن بصفة رسمية عن رحلة الأميرة الانجليزية الجميلة مارجريت ، التى أبدت رغبتها فى زيارة مصر وأخطرت السلطات السفارة البريطانية بترحيبها بالأميرة ، وبالفعل طارت طائرة الأميرة من لندن إلى روما وكان من المقرر أن تصل إلى مطار القاهرة الدولى صباح الأحد ٧ اكتوبر ، وفى الساعة الواحدة بعد ظهر السبت ٦ اكتوبر ، كان قائد الجناح الجوى بارينكوت الملحق بالسفارة البريطانية يحضر اجتماعا مع كبار ضباط المخابرات لرسم خط سير الطائرة وتأمين وصولها ، ومن المؤسف أن مطار القاهرة الدولى أغلق بعد ذلك بساعة وخمس دقائق عندما نشبت الحرب .

وكانت هناك رحلة أخرى تعرضت للتأجيل لأكثر من مرة ، فقد كان اللواء حسنى مبارك قائد القوات الجوية يعتزم زيارة الجمهورية العربية الليبية بصحبة عدد كبير من ضباط سلاح الجو ، وفى النهاية تم تجهيز طائرة قائد الطيران وأجرى اتصال لاسلكى مع السلطات الليبية وحدد موعد اقلاع الطائرة ظهر يوم الجمعة الخامس من اكتوبر ، إلا أن ظروفا قاهرة حالت دون الرحلة المرتقبة .

كانت كل التفاصيل موضع دراسة مستفيضة فى مكاتب المخابرات ، كما أن شيئاً لم يترك للصدفة أو الفأل الطيب كذلك كان ضباط المخابرات يعملون بجد ودأب حتى لا يتسرب أى نبأ عن النوايا الدفينة إلى الجانب الآخر وكان مفهوما لدى الجميع ، على اختلاف مستوياتهم أن الخسائر لا بد أن تكون رهيبة لو أن المخابرات

الاسرائيلية أدركت مايدبر فى الخفاء ، وأطلقت صيحة تحذير للجيش على جبهة القتال الهادئة .

وكانت آخر عمليات المخابرات هى تلك المتعلقة بشل أجهزة ضخ المواد الملتهبة التى أقامها الاسرائيليون على شاطىء القناة، وقد صممت هذه الأجهزة بحيث تضخ على سطح المياه بطول امتداد القناة مزيجا من النابالم والزيوت السريعة الاشتعال مع كمية من الكيروسين، لتكوين حاجز من اللهب يستحيل اختراقه بسهولة، ولو أنهم نجحوا فى استخدام هذه الأجهزة لكان من المحقق ارتفاع خسائر عملية العبور إلى رقم خرافى .

وكانت هذه الأجهزة البشعة تتكون من عدد كبير من الصهاريج الضخمة معبأة بالخليط السريع الالتهاب ولها صمامات تتحكم فيها طلمبات ضخ ماصة كابسة ويخرج منها خط من الأنابيب بقطر ٦ بوصات وتنتهى بفتحات تحت سطح الماء على مسافات متقاربة فى جميع المواضع الصالحة للعبور .

ولم تكن فكرة اشعال النار فى القناة من ابتكار الاسرائيليين ــ إذا توخينا الدقة ــ ولكنها ترجع إلى صيف ١٩٤٠، وقد ابتكرها شاب برتبة ميجور يدعى «جون بيكر هوايت»، وكان من ضباط المخابرات البريطانية، وكان هذا الشاب الموهوب مكلفاً بالقيام بحرب نفسية ضد قوات الألمان العسكرية التى كانت تستعد فى ذلك الوقت لغزو بريطانيا .

وأرسل «بيكر هوايت» إلى خليج «سانت مرجريت» بالقرب من دوفر ليرى بنفسه حقيقة الأسلحة التى تملكها بريطانيا ،وكان ما شاهده كافياً ليبعث فى قلبه عوامل الارتياب، اذ كان الشاطىء فى حماية فصيلة من حملة البنادق ولديها مدفعين اثنين من طراز برين ومدفع رشاش من طراز فيكرز، وكانت المدفعية المساعدة تحتوى على قليل من المدافع الفرنسية القديمة من عيار ٧٥ مم ولكل مدفع ذخيرة مقدارها عشر طلقات فحسب، ولم يكن هناك شىء وراء هــذا الخط الضعيف لمسافة عشرين ميلا ومع ذلك وجد «بيكر هوايت» شيئا يستحق العناية وجد

على طول الشاطىء أنابيب بها ثقوب وموضوعة على مسافات منتظمة . ووراء هذا الخط كانت هناك خزانات الوقود وطلمبات تمد الأنابيب بمزيج من البترول وزيت الوقود، فكانت هذه المعدات أشبه شيء برشاشات الحدائق وترسل ألسنة اللهب على الشاطىء .

وأثناء عودته الى لندن كان منظر اللهب لا يزال يسيطر على مشاعره، ولم يستطع ذهنه أن يتخلى عما شاهده، وسرعان ما تخيل أن ألسنة اللهب تمتد الى سطح القناة ذاتها نارا مشتعلة وفى طريقه أخذ يكرر عدة مرات : «اشعال النار على سطح البحر» ودار بذهنه نشر شائعات تقول أن بريطانيا على حد تعبير تنيسون : كانت أبراجا عائمة تحيط بها النيران من كل جانب .

وأخذ «بيكرهوايت» يستشير الخبراء الذين أكدوا له أن مثل هذه العملية يمكن تنفيذها، وبناء على رأى الخبراء قدم مذكرة الى اللجنة المختصة بمثل هذه الاقتراحات فوافقت عليها .

وأطلق «بيكر هوايت» هذه الشائعات، وعملت المخابرات البريطانية على نشرها من مواقعها المعتادة فى صالة جراند أوتيل فى استوكهلم ومشارب أفنيدا فى لشبونة ومقهى ريتز فى مدريد وحيثما كان للالمان مراكز الاستماع .

وصدق الألمان هذه الشائعات الى حد أنهم أجروا تجربتين فى اطار محكم الاولى فى Fecomd فى نورماندى والأخرى فى بحيرة مختارة بالقرب من بروسيا الشرقية، وصدرت الاوامر للخبراء باجراء تجاربهم بمنتهى الدقة وبصورة واقعية قدر الامكان، والتزموا تنفيذ التعليمات فقاموا بتغطية أسطح القوارب بأوراق الاسبستوس بعد أن ملئت بالجنود ثم صبوا مقادير من الزيت على سطح الماء وأشعلوا فيه النار، ووجهت القوارب إلى لجة الزيت المحترق، فكانت نهاية من عليها هى الهلاك المحتوم .

وعلى الأثر، أصدر هتلر أوامره فى التاسع من يناير ١٩٤١ إلى القيادة العليا بإيقاف كل استعداد لغزو انجلترا.

وقد عرفت المخابرات المصرية بقصة الأجهزة الإسرائيلية فور إنشائها.. ولكنها تكتمت النبأ إلى أن تتأكد من صحته، وكلفت وحدات الاستطلاع بالمضى إلى أبعد مدى فى التحقق من تفاصيل العملية كلها، كذلك طلب من بعض العملاء الموثوق بهم أن يرسموا صورة دقيقة للانشاءات وما تحتويه من سوائل ملتهبة، وتمكن أحد العملاء من جلب عينة حقيقية من هذه السوائل.

وأجريت تجربة عملية باستخدام خليط بنفس النسب على مياه النيل وفى منطقة بعيدة عن الأعين، وعندما قيست درجة حرارة السطح بعد إشعال النار فى الزيت اتضح أنها وصلت إلى ما يقرب من سبعمائة درجة مئوية، ولم تكن المسألة هذه المرة مجرد إشاعة يمكن تجاهلها، ولكنها كانت حقيقة راسخة لا تقبل الجدل.

وفجأة عدلت المخابرات المصرية عن خططها، وأخذت تذيع تفاصيل مرعبة عن الفتحات التى تنفث النابالم بقوة وتحيل الشاطئ إلى جحيم، وكان من الجلى أن القيادة لم تجد حلا لهذه العقبة الكئود الأمر الذى ولد شعوراً عاما بأن عملية العبور نفسها قد غدت مستحيلة.. وأيقنت المخابرات الإسرائيلية أن تنفيذ الفكرة رغم النفقات الباهظة قد ترك أثرا أفضل من الأثر الذى نجم عن الإشاعة التى أطلقها الإنجليز.

وفى الساعات الأولى من صباح يوم الحرب، تسللت مجموعة من رجال وحدات الاستطلاع المدربة إلى مواقع هذه الانشاءات وتفرعت إلى مجموعتين، قامت الأولى بقطع خراطيم الطلمبات الماصة الكابسة وتولت الثانية سد فتحات الأنابيب بلدائن خاصة سريعة التصلب، وكان الهدف من هذا الازدواج تأمين العملية بشكل مطلق وكان

من المتوقع إذا اكتشف العدو تخريب الطلمبات أن يبذل جهوده لاصلاحها دون أن يخطر بباله أن هذا الاصلاح ليس إلا عبثا لا طائل من ورائه وقد حدث ذلك بالفعل .

ويبدو أن الاسرائيليين كانوا يعلقون آمالا عريضة على هذه الاجهزة فقد عرف فيما بعد أن موشى دايان وبخ الجنرال «شموئيل جونين» الذى كان قائدا لجبهة سيناء توبيخا شديدا بسبب فشله فى تشغيل أجهزة النابالم وقال له :

ـــ أنك تستحق رصاصة فى رأسك جزاء هذا التقصير .

والذى لم يعرفه موشى ديان حتى لحظة نشر هذا الكتاب أن الجنرال المسكين لم يستطع تشغيل أجهزته الجهنمية لسبب واحد وهو أن جميع فتحاتها كانت مسدودة بأحكام .

وسوف تبقى هذه العملية المحكمة الى الأبد، دليلا ناصع القوة على ما تستطيع أجهزة المخابرات التى تتمتع بحظ وافر من الدراية والكفاءة أن تقدمه من خدمات عظيمة اسهاما فى احراز النصر، كما أنها تعد برهانا ساطعا على أن الأعمال الضخمة التى تتكلف أموالا طائلة، تصبح عديمة الجدوى اذا لم يهتم أصحابها بدراسة مكامن الضعف فيها واتخاذ الاجراءات الكفيلة بتأمينها .

وبهذا الأسلوب كانت المخابرات المصرية تتحرك أمام سفينة الحرب ، تحدد العوائق وترفع الالغام وتنقل الى القبطان صورة دقيقة لميدان المعركة المقبلة .. وكان رؤساء المخابرات يتظاهرون باللامبالاة وهم يرقبون الافق والفريسة السهلة تطفو على السطح دون أن تدرى شيئا عن الحراب المعدة للاطلاق .

أما القبطان نفسه ، فكان من يراه يتصور أنه ينعم بشمس الشتاء .

١٣

الليلة التى سبقت الهجوم

فى يوم الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . كانت الاستعدادات النهائية قد أتخذت وكان رجال المخابرات يترقبون بفارغ الصبر بدء العمليات العسكرية ، التى كانت تمثل بالنسبة لهم ، كشف الغطاء عن السر الذى أثقل صدورهم، ونهاية للقلق الذى طالما سيطر عليهم خوفا من تسرب غير مقصود لأى بصيص من الضوء قد يفضح نواياهم ، كما كانوا ملهوفين لإجراء الاختبار العملى الوحيد لصحة كل ما قدموه من معلومات وتقديرات .

وعلى الجانب الآخر كانت الصورة متناقضة، فقد مضت الحيـــاة بطيئة متسمة بالكسل فى الساعات الباقية على بداية يوم « كيبوراه » . فاعتباراً من غروب شمس الجمعة، وحتى غروب شمس السبت، كان على وسائل المواصلات العامة أن تتوقف ، وأن تصمت أجهزة الراديو والتليفزيون وكل وسائل الإعلام، وأن تغلق المسارح ودور السينما والمحلات العامة أبوابها . كانت إسرائيل فى الطريق لأن تصبح جثة لا حراك فيها .

كان الزعماء السياسيون والعسكريون فى حالة تأهب للعطلة، بعد أسبوع حافل بالمتاعب الحقيقية، وكان «ديان» صقر المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، وبطلها المغوار قد ظهر صباح الجمعة فى التليفزيون البريطانى ليتحدث عن المشكلة التى شغلت تفكيره ، والتى كشفت عن جهله المطبق بما يدبر له فى الجبهة ، إذ أفاض فى الحديث عن حمق القرار النمسوى بالرضـــوخ لمطالب الفدائيين الذين خطفوا قطار اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفيتى، ونصح باتباع المكر والخديعة مستقبلا ..

وبعد أن اطمأن «ديان» إلى إذاعة الحديث الذى حقق له مزيدا من الشهرة ، اتجه إلى الفيلا الفاخرة المؤثثة على أحدث طراز، والتى تتوسط حى كبار الضباط الارستقراطى فى تل أبيب، وهناك كانت تنتظره السيدة «راحيل تورن» تلك السيدة الشقراء التى اقترن اسمها باسم «ديان» فى فضيحة أثارتها مطلقته ، وفى تمام الواحدة والنصف، اصطحب ديان السيدة راحيل، واتجها إلى فندق «دان» فى شارع «يركون» وهبطا إلى الطابق الأرضى .. حيث البار.

وفى الواحدة والنصف وأربع دقائق، كانت «جولدا مائير» رئيسة الوزراء التى عادت من رحلة قصيرة إلى فيينا ، دون أية مكاسب سياسية ، كانت تراجع بعض الأوراق مع سكرتير مجلس الوزراء ويدعى «أرنون» وكانت تزمع قضاء العطلة مع ابنتها «سارة» فى كيبوتز النقب ، وفى نفس الوقت ، كان «أبا إيبان» وزير الخارجية موجودا فى مقر الأمم المتحدة بنيويورك، وكانت لديه مشاكله هو الآخر، فقد قطع الرئيس «موبوتو» رئيس دولة «زائير» الافريقية ، علاقاته مع إسرائيل بشكل مفاجىء ، واستشاط «إيبان» غضباً ثم راح يصف قرار الرئيس «موبوتو» بأنه خيانة كبرى لمبادىء الثقة الدولية ، وكان هذا التصريح المنافى لقواعد اللياقة ، هو آخر التصريحات الاسرائيليـــة ، المتسمة

بالاستعلاء والتحدى ، والتى غمرت العالم لمدة ست سنوات ، ثم اختفت نهائيا بعد حرب أكتوبر .

وفى الثانية وثمانى عشرة دقيقة بالضبط ، وصل إيجال آلون، أقرب الوزراء مكانة من « مائير » ، إلى مستعمرته التى تبعد ساعتين عن تل أبيب ، ولم يكن يدرى بالطبع، أنه سوف يستدعى بصفة عاجلة ليعود إلى تل أبيب مرة أخرى .



م. ج الياهو زاعيرا
مدير المخابرات الاسرائيلية
طردته لجنة اجرانات

وفى الثانية وأربعين دقيقة . استدعى ديان على عجل من فندق « دان » ، وفى مكتبه بتل أبيب كان الجنرال « الياهو زاعيرا » ، مدير المخابرات الإسرائيلية ، ودافيدأليعازر رئيس الأركان وعدد آخر من كبار الضباط ينتظرون وزير الدفاع وملامحهم تنم عن القلق ، وبعد اجتماع قصير ، ظل التقييم الرسمى للمخابرات كما هو ، وكان مضمونه أن احتمال نشوب الحرب ما زال مستحيلا .

وفى الثالثة وخمس دقائق، انتقل الضباط المسؤولون عن أجهزة الدفاع الإسرائيلية ، إلى المبنى المجاور الذى يضم مكتب رئيسة الوزراء، واستدعت « مائير » إسرائيل جاليلى حيث استمعا معاً إلى التقييم الذى انتهى إليه الرأى والذى قدمته المخابرات ، واستدعى على أثر ذلك الوزراء الآخرون الذين يقيمون فى تل أبيب ، وقد وصلوا فى الرابعة تماما باستثناء إيجال آلون ، وبنحاس سابير الذى شكا بعد ذلك من أن مكتب رئيسة الوزراء لم يبذل جهداً حقيقيا للاتصال به . وتم فى هذا الاجتماع استعراض شامل ودقيق للموقف ، وكرر أليعازر رأيه فى استحالة نشوب الحرب، وأيده زاعيرا ، وأعاد إلى الأذهان الحشود الكاذبة التى سبق أن حدثت .

وإذ انتهى الإجتماع أعلنت مائير أنها لن تذهب لزيارة ابنتها « سارة » بل سوف تتصل بها عن طريق التليفون ، ونصحت وزراءها بالبقاء على مقربة

منها فى تل أبيب ، ولكن مائير قالت فى الوقت نفسه لأصدقائها المقربين ، أنها شعرت بالارتياح بعد أن سمعت التقارير المشجعة بأن الحرب لن تنشب .

وفى الثالثة وخمسين دقيقة صباحا، يوم السبت ٦ أكتوبر ، اتصل دافيد اليعازر بجولدا مائير فى مسكنها تليفونيا ، وأبلغها أن تقارير المخابرات التى تجمعت طوال الليل تقطع بأن « نشاطا ما » يجرى على الجبهتين ، وعقب ذلك اجتمعت مائير وديان عن طريق التليفون واتفقا على دعوة كبار الوزراء إلى اجتماع خاص فى الساعة الثانية صباحا .

وفى الثانية وعشر دقائق اجتمعت وزارة المطبخ — أى الوزراء المقربين من مائير — ولكن بغير ايجال آلون وبنحاس سابير وكان سكرتير مجلس الوزراء « أرنون » ، قد اتصل بآلون ليستدعيه إلى الإجتماع ، وسأل الأخير عما إذا كان الموقف عاجلا ليستقل طائرة هيليوكوبتر من مستعمرته إلى تل أبيب ، ولكن « أرنون » طمأنه وهكذا عاد آلون بالسيارة ووصل بعد ساعتين ونصف .

أما « سابير » فكان يشهد صلوات يوم الغفران فى المعبد ، وهو لا يدرى أن إسرائيل كلها سوف تكفر عن بعض خطاياها بعد ساعات قليلة ، لأن أحداً لم يخطره بأن الحرب توشك على الإندلاع .

وفى هذا الإجتماع الذى عقد بمكتب رئيسة الوزراء ، وحضره ضابط برتبة كولونيل من المخابرات العسكرية ، نوقشت مسألة الحشود العسكريه على الجبهتين وانتهى الرأى إلى أنها تشابه تلك التى سبق أن حدثت فى يناير ومايو وقبل ذلك فى سبتمبر ولم تكن غير انذارات خاطئة .

وبعد العاشرة صباحا بدقائق استدعت مائير كنيث كيتنج سفير الولايات المتحدة فى إسرائيل إلى مكتبها وأبلغته فحوى تقارير المخابرات الإسرائيلية وطلبت منه رسميا أن تقوم الولايات المتحدة ، بابلاغ كل من مصر وسوريا بأن إسرائيل لن تكون هى البادئة بالقتال!!

وفى حوالى الساعة الواحدة أبلغ الدكتور هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى بالمخاوف الإسرائيلية ، وكما قال الدكتور كيسنجر بنفسه للصحفيين ، اتصل بالمخابرات الأمريكية والإسرائيلية وطلب منها القيام بتحريات عاجلة ، إلا أنهمـــا ردتا بأن الحرب بعيدة الاحتمال !! ولكن ، لماذا لم تخطر القيادة الإسرائيلية جنودها فى الجبهة بنذير الحرب ؟ ! لقد فاجأت الحرب ما يقرب من ستة آلاف جندى إسرائيلى ، هم مجموع القوة الإسرائيلية فى جبهة القناة ، وكانوا طبقا لأقوال الأسرى ، فى حالة استرخاء كاملة وقت الهجوم ، تمثلت فى خروج عربات الأجازات فى نفس الموعد الذى لم يتغير طيلة ست سنوات ، الثانية بعد الظهر ، وفى انتهاز بعض الجنود فرصة الحرارة الناجمة عن ارتفاع قرص الشمس فى جو خال من الغيوم ، وراحوا يغسلون ثيابهم كذلك كانوا جميعا بغير أحذية الميدان الثقيلة !!

كانت المفاجأة رهيبة كوقع الصاعقة ، ولم يتمكن عدد كبير من هؤلاء الجنود المنكودى الطالع من مجرد التقاط أسلحتهم للدفاع عن أنفسهم وخلال الثلاث ساعات الأولى ، استسلم منهم تسعمائة وأربعون جنديا ، وثلاثة وستون ضابطا ، منهم خمسة وثلاثين ضابطا برتبة « رف سيجن » وثمانية وعشرين برتبة « سيرن » والباقى من الضباط الأصاغر .

إن مسألة أعداد الأسرى تستحق عناية إضافية ، فقد حدث أن أذاع الجانب المصرى أن الأسرى يستسلمون « بالمئات » ثم عاد المتحدث العسكرى المصرى - ذلك اللواء الممتلىء بالثقة والاعتداد بالنفس - عز الدين مختار فأعلن أن عدد الأسرى خمسة وسبعين أسيراً ولقد ترددت شائعة قوية عن « مذبحة الأسرى » وقد حدثت هذه المذبحة بالفعل ، ولـكن بأسلوب مختلف تماما .

فما أن بدأ القتال ، حتى توالت بلاغات الوحدات الصغرى عن سقوط أعداد

كبيرة من الأسرى فى قبضتها ، ورأت القيادة أن الحكمة تستوجب تجميع هؤلاء الأسرى فى الجانب الشرقى من القناة ، بدلا من السماح لكل وحدة بإعادة أسراها إلى النقطة المواجهة لها على الضفة الغربية ، إذ أن هؤلاء الأسرى سوف يعودون حتما — طبقا لتقاليد الجيوش — إلى إسرائيل ، ولم يكن من الصواب أن يجوسوا خلال مواقعنا على الضفة الغربية .

وفى الساعة السابعة صباحا، يوم ٧ أكتوبر، تم تجميع الأسرى فى نقطة سهلية أمام المحور الأوسط ، وأمر الجنود بالوقوف على هيئة طابور بينما أمر الضباط بالوقوف بعيدا دون أن تقيد أيديهم ، وصدرت الأوامر بحلاقة شعر بعض الجنود الذين كانوا يتميزون برؤوس متسخة خوفا من انتشار الأوبئة ، وفى السابعة والنصف وصل إلى المكان مصورو الجيش لالتقاط بعض الصور التذكارية بينما انهمك الكتبة العسكريون فى تسجيل البيانات بحماس ، وفى نفس الوقت وصلت إلى المنطقة قافلة مكونة من سبع وعشرين عربة نقل وانتظمت إلى جوار بعضها تحت تبة رملية .

واكتشف أحد جنود الشرطة العسكرية أن ضابطا اسرائيليا قد خلع علامات الرتب واندس بين الجنود الأسرى ، فأمره بأن يكشف عن" ملابسه الداخلية ، وفى تلك اللحظة ظهرت الطائرات الإسرائيلية فى السماء ، ولما كانت السماء فى ذلك الوقت قطعة من الجحيم مخصصة لذوى الذنوب الجسيمة ، ألقى الطيارون الإسرائيليون حمولتهم بسرعة فوق صف عربات النقل وغمروا الطابور الواقف فى العراء بسيل من النابالم ، ولما كانت براعتهم فى تمييز الأهداف لا تقل عن براعتهم فى التصويب، سقطت القنابل فوق رؤوس الأسرى ولم تدمر عربة واحدة.

وهكذا احترق التعساء وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم ، ولم يتمكن من النجاة سوى أقرب الأسرى إلى عربات النقل .

وقبل أن نبين وقائع « الليلة التى سبقت الهجوم » ... فى الجانب المصرى ... نود أن نسأل سؤالا له أهمية ... لماذا لم تصدر القيادة



بعض الأسرى .. حلقت شعورهم ، منعاً لانتشار العدوى



ضابط أسير خلع رتبته العسكرية
ولكن ملابسه الداخلية كشفت عن شخصيته

الإسرائيلية أمرا بالغاء الأجازات ؟ ! ، لقد رصدت المخابرات المصرية عربات الإجازات وهى تغادر المواقع فى موعدها ، وهذا الموعد هو السر فى تحديد ساعة الصفر بعد الثانية بخمس دقائق بالضبط ، إذ كان رأى الأخصائين النفسيين فى القيادة العليا لمجموعة الجيوش المصرية ، أن قيام الطائرات بقصف المواقع الإسرائيلية بعدخروج عربات الإجازات سوف يحقق ثلاث نتائج نفسية باهرة.

وأول هذه النتائج هو شعور الجنود القائمين بإجازاتهم بالفزع وعرباتهم تسرع فى اتجاه الشرق بينما زملاؤهم يتعرضون للقصف ، وسوف يؤدى بهم هذا الفزع إلى المبالغة فى حجم وقوة قصف الطيران ليبرروا فرارهم .

وثانى هذه النتائج أن الجنود الباقين فى المواقع سوف يسألون أنفسهم . . ألم يشاهد زملاؤنا الذين لم يبتعدوا أكثر من كيلو متر واحد هذه الطائرات وهى تهاجمنا . لمـــاذا لم يحاولوا العودة إذن لاتخاذ أماكنهم خلف الأسلحة التى افتقدت رجالها ، ولا شك أن هذا السؤال سوف يؤدى إلى شعور متزايد بالقهر والخيبة يؤدى إلى ضعف مقاومتهم وسرعة استسلامهم .

وثالث هذه النتائج أن الوحدات التى سوف تدفع من العمق لنجدة المواقع سوف تلتقى بعربات الاجازات اللائذة بالفرار وتستمع من أفرادها إلى أول أنباء من شهود عيان لمـــا ينتظرهم فى الخطوط الأمامية . . ولما كانت هذه الوحدات ستجبر الفارين على العودة ، فإن الشعور الإنهزامى الذى تزايد فى نفوس جنود الاجازات سوف يسرى إلى جنود وحـــدات النجدة ، وهكذا يقترب الجميع من ميدان القتال والانكسار يعتمل بشدة داخل نفوسهم .

وفى مدينة القاهرة كان الناس منصرفين إلى مشاغل حياتهم اليومية العادية. ولم يكن أحد يتوقع حرباً ضارية بعد ساعات ، فالطغيان الاسرائيـــلى المتسلط وغارات الطائرات اللاانسانية ومهاجمة المدنيين الآمنين وجولات « الكامندوز»

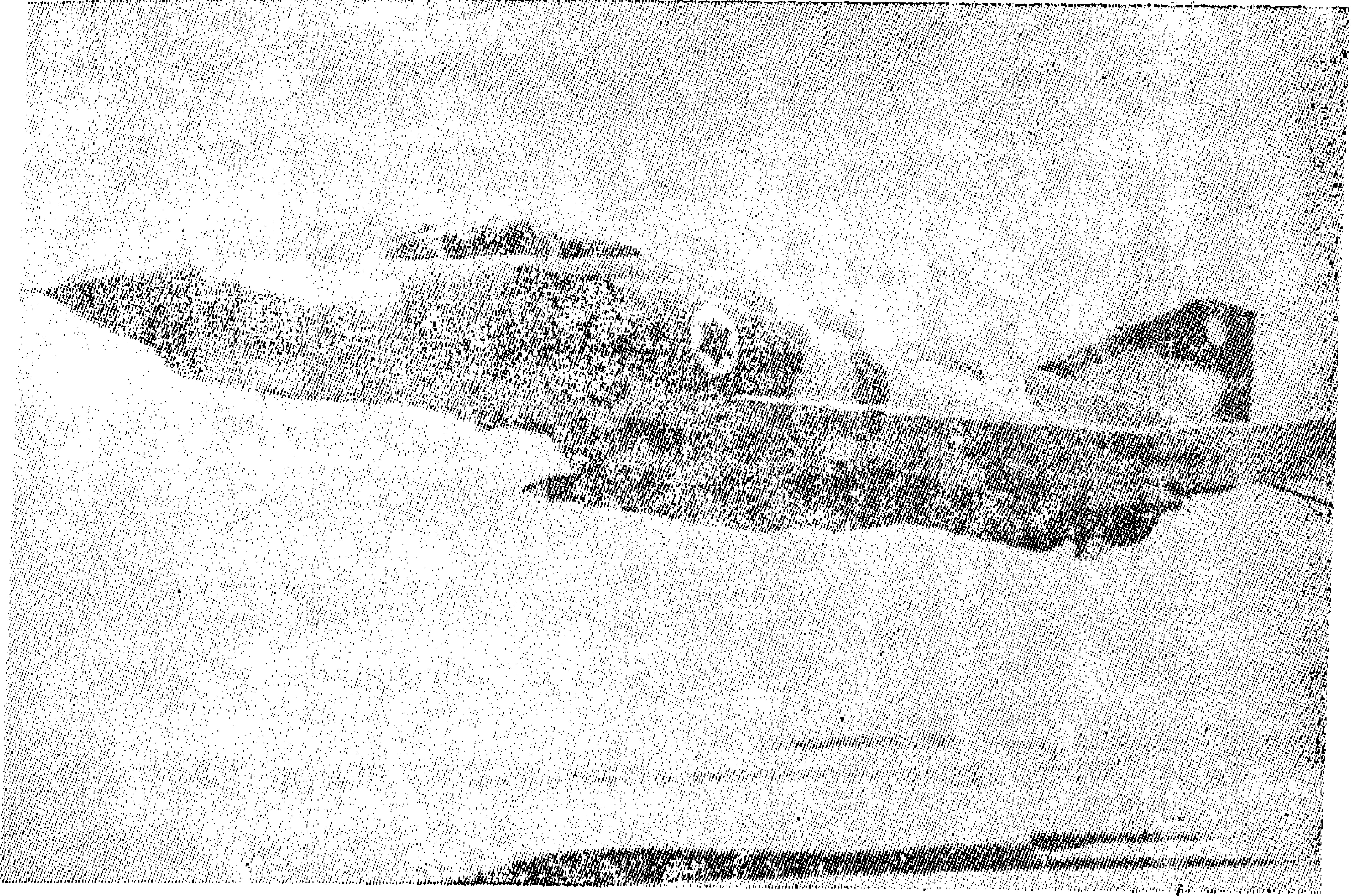
فى بيروت ، كلها مرت دون أى ردع ، باستثناء كلمات الاحتجاج الجيدة الصياغة ، وخطب المندوبين العرب فى أروقة الأمم المتحدة . وبرقيات التعازى المجللة بالسواد .

وكانت الجبهة هادئة بينما باطنها يغلى كقدر جف فوق النار ، وكان المركز الذى حفل بنشاط خيالى هو غرفة العمليات الرئيسية ، حيث كان مركز رئاسة السادات لعمليـــة الهجوم ، وهناك كانت المعلومات الصحيحه المناسبة تفصل وتوضح على خرائط كبيرة تبين حالة الشاطئ ودرجة انحدار التيار وبيان مواقع الموانع وحواجز الدفاع من الأسلاك الشائكة والتركيبات وحقول الألغام وبيانات أخرى لمطارات العدو القريبة من خط القتال .

كذلك كان هناك بيان عن توزيع الجيش الإسرائيل فى جبهة سيناء، ويشمل أسماء القادة ابتداء من الجنرال «شموئيل جونين» إلى قادة الفرق المختلفة والوحدات الصغرى ، ثم جدول لكل وحدة وما لها من طاقة وامكانية للقتال .. وعلمت المخابرات أن لدى إسرائيل حشداً من ثلاثمة وأربع وثمانين طائرة فى مطارات سيناء وحدها .

وقد جاءت معظم هذه المعلومات من الاستطلاع الجوى والدراسة الدقيقة للصور الفوتوغرافية المأخوذة من الجو ، ومراقبة وسائل العدو اللاسلكية واعتراض رسائله وغير ذلك من الوسائل المعتادة التى تنتهجها المخابرات لجمع المعلومات .

وفى الحقيقة كانت مهمة شاقة متعددة المجالات ، كما كانت مثيرة توحى بالجرأة والمغامرة ، ومهما روت قصص التجسس فلابد أن تظل قاصرة عن الإلمام بالجهود التى بذلت فى هذا الصدد . ورغم كل شىء ، لا بد من إنقضاء وقت طويل ـــ وربما إلى الأبد ـــ قبل أن تنشر التفاصيل الكاملة لدور المخابرات ..



فانتوم إسرائيليه – فى الأفق تظهر ملاجىء من الأسمنت المسلح للطائرات

كانت المطارات الاسرائيلية كلها تحت رقابة شديدة من جانب المصريين نوع السطح والاتجاه بالدرجة والاحداثيات – وهى اصطلاح جغرافى يعنى الموقع بالضبط على الخرائط – بالإضافة إلى عدد الأسراب الجوية وأنواعها مع بيان شامل للمستودعات والملاجىء والاستحكامات .

فمثلا كانت لدى المخابرات معلومات تفيد بأن مطار رامات دافيد قاعدة المنطقة الشمالية يقع فى النقطة ١٦٧٢٣٠ وأن به ممرآ رئيسياً طوله ألفين وخمسماية متر بعرض خمسة وعشرين مترا من الأسفلت، وأن اتجاهه بالدرجة ٢٢٠، كذلك كان الموقف بالنسبة لقاعدة المنطقة الوسطى فى مطار عكير « تل نوف » ويقع فى النقطة ١٣٢١٣٧ وبه ممران رئيسيان أطوالها ٢٤٤٠ ، ٢٠٠٠ متر والاتجاه

بالدرجة ٣٦٠ ، ٢٧٠ على التوالى كما أنه مجهز للطيران الليلى ويشتمل أيضاً على محطة رادار للانذار الجوى.

وكان معروفا لديهم أن قيادة سلاح الطيران تتخذ لها مقراً فى مطار الرملة التابع للمنطقة الجنوبية ، وأن مطارات عين جدى (١٨٧٠١٦) وعسلوج (١٨٦٠٥٠) وعين حصب (١٧٣٢٠٥) ليست سوى أراضى نزول فى حالات الطوارىء .

أما مدارس التدريب الفنية التابعة لسلاح الجو ، فكان معروفا أن واحدة منها فى مطار حيفا (١٥٤٢٤٦) وبه أربعة ممرات رئيسية أطوالها ٨٠٠، ١٠٠٠، ٢٠٠٠ ، ٧٥٠ متراً واتجاهها بالدرجة ٢٩٦ ، ٢٥٢ ، ٢٤٠ ، ٢٠٦ على التوالى وتقع المدرسة الثانية فى مطار كفار سيركن (١٤٢١٦٦) وبه ثلاثة ممرات أطوالها ٦٠٠٠ ، ١٧٠٠ ، ١٥٠٠ واتجاهها بالدرجة ٣٢٤ ، ٢٨٥ ، ٢٠٢ وحتى مطار الخضيرة الذى لا يعدو أن يكون أرضاً للهبوط الاضطرارى، والذى يمتد من الشمال إلى الجنوب بين بيارات البرتقال ويقع فى النقطة ١٤٢٢٠٦ كان لدى المصريين صورة وافية عنه .

وكان أصغر طيار فى سلاح الجو المصرى يعرف ـ ويحفظ أيضاً عن ظهر قلب ـ جميع محطات الرادار الاسرائيلية التى تبحث عنه فى الأجواء الملتهبة كما تبحث اللبؤة عن صيد لأبنائها ، وفى مدارس السلاح الجوى المصرى توجد لوحة مثبتة على مداخل فصول التدريب تشتمل على إحداثيات محطات الرادار الاسرائيلية وفى أسفلها جزء خال تركه رجال المخابرات ليكتب فيه بيان ما ينشئه العدو من محطات جديدة .

وهذه اللوحات المعدنية تتضمن البيان التالى :

١ — المنطقة الشمالية :

مار الياس	١٤٧٢٢٤٨٠	ثابتة للانذار والتوجيه البحرى والجوى
جيفات أولفا	١٣٨٨٢٠٥٤	« للتوجيه البحرى والجوى
النبى شعنان	١٥٢٢٤٤٠	« « الجوى
عسقيا	١٥٦٧٧٢٣٦٠	« للانذار والتوجيه الجوى
الكرمل	١٥٤٩٢٣٧٣	« « « « ا ٠ ٦ ٤:
رامات دافيد	١٦٧٢٣٠	« « الجوى
جبل الجرش	١٨٩٢٦٧	« « «
شرق صفد	١٩٧٢٦٥	« « الجوى والبحرى
جبل الدجى	١٨٣١٢٢٤٩	« « الجوى
السميرية	١٥٨٢٦٢	« « «
نورس	١٨٦٢١٥	« « «

٢ — المنطقة الوسطى .

القسطل	١٦٣٧١٢٣٦	ثابتة للانذار الجوى
تل يونس	١٣٠١٦١	« « « والبحرى
عكير	١٣٢١٢٧	ثابتة للانذار الجوى
كفار سيركن	١٤٢١٦٦	« « «
اللد	١٤٠٤١٥٥٨	« « «
جنوب شرق جديرا	١٢٩١٣٥	محطة متحركة للانذار الجوى
ميناء يافا	١٢٦٥١٦٢٦	« ثابتة للانذار البحرى والجوى
جيفات يم	١٢٤١٦٤	« « « « «
معسكر صرفند	١٣٤١٥١	« متحركة للانذار الجوى.
معسكر يعقوب	١٣٦١٩١	« « « «

٣ــ المنطقة الجنوبية :

الجدل	١١٢١١٧	محطة ثابتة للانذار الجوى			
بتسى ريمون	١٢٩٥٠٠٢٨	«	«	للتوجيه الجوى	
قسطينا	١٢٥١٣٠	«	«	للانذار الجوى	
مرتفعات إيلات	١٣٩٩٨٨٨٠	«	«	«	البحرى والجوى
جبل يعون	١٦١٦٩٤٥٢	«	«	«	الجوى

فمن أين جاءت هذه المعلومات كلها ؟

كان سيل المعلومات يتدفق من جيش العملاء الذين يتجولون داخل إسرائيل ، ووقت بداية الحرب كان للمخابرات المصرية إثنا عشر عميلا من اليهود المقيمين فى الميدان ، ولكن الفضل الأكبر فيما يتعلق بالمعلومات الجوية يعود إلى جاسوس فريد .

ففى قيادة القوات الجوية الاسرائيلية كانت تعمل امرأة فى الأربعين من عمرها برتبة مساعد، وكانت هذه المرأة التى تعيش الآن فى مسكن مريح بحى الزمالك ـ أرقى أحياء القاهرة ـ قد أمدت المخابرات المصرية قبل لجوئها إلى مصر عن طريق قبرص ، بأكثر من أربعمائة وثيقة هامة « وكانت دوافعها نبيلة إلى أقصى درجة ، فعلى حد قولها ، سئمت التفرقة العنصرية البغيضة التى يتعرض لها اليهود الشرقيون فى إسرائيل ، ولما كانت من أصل عراقى ، وجدت من المناسب الاتصال بالمصريين وتقديم بعض العون لهم .

وقدم ديان شخصيا مساهمة جليلة فى جهود جمع المعلومات دون قصد بالطبع إذ القى بيانا وافيا فى الكنيست عن اسقاط طائرة الركاب المدنية الليبية التى أسقطتها مقاتلات الفانتوم الباسلة قبل الحرب بقرابة سبعة أشهر والتى أحدث اسقاطها رد فعل مفعم بالازدراء فى أنحاء العالم المتحضر باسره .

وكانت الطائرة قد انحرفت عن طريقها نتيجة خطأ ملاحى ، وظهرت على ارتفاع أربعة وعشرين ألف قدم فوق مستوطنة « تسيون » التى تقع غرب رأس

سدر بمسافة اثنين وثلاثين ميلا بحريا،وكانت تطير بسرعة سبعمائة وخمسين كيلو مترا فى الساعة فى اتجاه الشمال الشرقى فى تمام الساعة الواحدة وأربع وخمسين دقيقة بعد ظهر الأربعاء ٢١ فبراير ١٩٧٣ .

وقال ديان أن الرادار الإسرائيلى أوضح الخط الملاحى للطائرة فى الساعة الواحدة وست وخمسين دقيقة بالضبط وأن الأوامر صدرت فى الواحدة وتسع وخمسين دقيقة لطائرتى فانتوم للحاق بطائرة الركاب وظلت الفانتوم تدور حول فريستها لمدة سبع دقائق ثم أطلقت النار وأسقطت الساعة الثانية واحدى عشرة دقيقة ، وكانت قد وصلت غرب « رفيديم » بمسافة خمسة وخمسين كيلو مترا ، أى على مسافة عشرين كيلو مترا شرق القناه .

واستخلص ضباط المخابرات من كل هذه الاحاجى والألغاز أن الرادار الإسرائيلى يقضى دقيقتين فى تحديد مسار طائرة تسير بسرعة سبعمائة وخمسين كيلوا مترا فى الساعة وأن قيادة سلاح الجو الاسرائيلى تصدر أوامرها بالاجراء المناسب بعد ثلاث دقائق كاملة .

وفى القصر الجمهورى كان يوم العطله عاديا إلا أن الرئيس كان يباشر مهامه كالمعتاد وأصدر تعليماته بشأن البعثة التى قرر إيفادها إلى الارجنتين لتهنئة الرئيس بيرون بتولى رئاسة الجمهورية هناك، وكانت هذه البعثة التى غادرت القاهرة فجر اليوم التالى مكونة من ألبرت برسوم وزير الدولة ، واللواء محمد أحمد السيسى ياور الرئيس ، وعبد المنعم سليم أمين رئاسة الجمهورية ؛ واسماعيل مخلوف المستشار بوزارة الخارجية. وكان هناك أيضاً « نجيب قدرى » الذى أوفده الرئيس إلى توجو برسالة شخصية للرئيس « إيتان إيديما » وقد عرف أنه وصل إلى لومى الأمر الذى يدعى إلى الارتياح .

وفى مدينة القنطرة شرق كانت إحدى نوافذ مسكن متواضع من طابقين مفتوحة على مصراعيها، وفى مواجهتهـــا على الضفة الغربية كانت عربة مدرعة تقف كأنها فى موقع حراسة عادية ، وتحت مدفع الجرينوف الذى يعلو الكابينه كان غطاء الفتحة اليمنى مرفوعاً بينما فتحة السائق محكمة الغطاء ، وكان باستطاعة من يلقى نظرة من الجانب الشرقى أن يدرك من منظر هذه العربة التى تشبه ذئباً نائماً أن جنودها قد هجروها لسبب أو لآخر ، وخلف الفتحة اليمنى كان عميل من المخابرات يتصل باللاسلكى بجهـــة ما ليخطرها عن حالة النافذة التى تواجهه تماماً .

وكان لدينا عميل نابغه فى هذا المسكن المتواضع فى مدينة القنطرة شرق، ولم يكن من المستساغ أن تدبر وسيلة اتصال أفضل من تلك التى كان يستخدمها والتى كانت من ابتكاره ، فقد قسم هذا الرجل زجاج نافذة غرفة نومه إلى ثمانية مربعات متساوية ، والصق على كل مربع ورقة بلون مختلف ، وكان العميل يثبت مصباحاً صغيراً خلف المربع الذى يريد له أن يضىء ، ولما كانت النافذة تطل على جهة الغرب ، أمكن لذلك الجاثم فى العربة المدرعة أن يتبين إذا كان الضوء ينبعث من المربع رقم ١ أو المربع رقم ٨ ، كما كان كل مربع من هذه المربعات رمزاً لدرجة الاستعداد فى القوات الإسرائيلية .

وطوال يوم الجمعة كانت النافذة مفتوحة بصفة دائمة ، وكان هـــذا الجهاز الغريب لنقل الشفرة يدلى بمعلومة على جانب كبير من الخطورة ، فقد كان معنى هذا الاجراء البرىء أن الجيش الإسرائيلى يحلم أحلاماً سعيدة .

وفى الرابعة بعد الظهر كانت طائرة هليوكوبتر تطير فى سماء مصر على ارتفاع منخفض لدرجة أن سكان المدن التى مرت فوقها ظنوا أنها سوف تسقط فوق رؤوسهم، وفى داخل هذه الهليوكوبتر كان اللواء حسنى مبارك قائد القوات الجوية

يتنقل كنحلة حقيقية نشطه بين القواعد الجوية البعيدة عن العاصمة ، ليتأكد بنفسه أن الاستعدادات النهائية قد استكملت لاجراء مشروع تدريب بالذخيرة الحية تحدد له صباح السبت .

ومنذ شهر يوليو سنة ١٩٧٣ كان الضباط يتسلمون كلمة سرية تتغير على فترات منتظمة ، وكانت تعليمات قيادة الجيش المشددة تقضى بأن هذه الكلمة التى تبدو وكأن لا معنى لها، سرية جداً ومهمه جداً فى نفس الوقت فبمجرد ترددها فى أجهزة اللاسلكى يتوجب على الجميع أن يقوموا بمهام القتال المحددة لحالات الطوارىء وكانت كلمة السر فى شهر أكتوبر هى « بدر » .

وفى منتصف الليل تماماً سمع حارس الليل الذى يقف خلف مقر غرفة العمليات الرئيسية وقع خطوات منتظمة فى الشارع الهادىء الذى نادراً ما يعكر صفو هدوئه أحد من المارة . ثم شاهد الحارس رجلا طويلا ممتلىء الجسد يتقدم مسرعاً من الدرجة الخلفى ، ولما كان هذا الرجل يرتدى الكسوة الرسمية للجيش المصرى ، تعرف عليه الحارس ورفع يده بالتحية العسكرية ، وفى داخل المبنى تقدم الرجل الطويل وهو يعرف طريقه جيداً وكان الحراس يضربون كعوبهم وهم يحيونه بحرارة ، وعندما صعد إلى غرفة المكتب التى تعلو الردهه الواسعة كانت مجموعة من ضباط الأركان تدرس الموقف بعناية وفى تلك المقابلة السرية التى غيرت، خريطة الشرق الأوسط فيما بعد ، القى الرجل الذى يقود مجموعة الجيوش المصرية بأسلحتها المختلفــــة نظرة أخيرة على دراسات رؤساء أركانه ووافق عليها .

وفى الساعة الثانية صباحا وصل اللواء حسنى مبارك إلى الباب الخارجى لقاعدة جوية تقع غرب مدينة القاهرة ، وشهر الجندى المكلف بنوبه الحراسة سلاحه فى وجه أعلى قائد فى القوات الجوية ، وكان اللواء يخفى وجهه بقبعة عادية

من قبعات الضباط الأصاغر ، ولحسن الحظ استطاع أن ينطق بكلمة المرور السرية ، لكى يسمح الجندى له بالدخول ، وكان الضباط يتناولون طعام السحور وهو الطعام الذى يمتنع بعده المسلمون عن تناول أى شيء حتى غروب اليوم التالى . وتعجب الطيارون وهم يشهدون الطيار الأقدم يدخل وحيدا فى عربة جيب يقودها بنفسه كأى جندى سائق .

وفى الساعة السادسة صباحا أرسلت القيادة العليا برقية لاسلكية إلى جميع الوحدات ، كذلك أبلغت الوحدات القريبة بمحتوى البرقية تليفونيا ، وكان هذا المحتوى الغريب يتلخص فى خفض حالة الاستعداد إلى درجة عادية مع منح قادة الوحدات سلطة الموافقة على أجازات للضباط فى حدود نصف القوة .

وفى الثامنة صباحا تخير كل قائد عددا من الضباط لكى يحصلوا على أجازاتهم وفهم الضباط الباقون أنهم سوف يقومون باجازاتهم بمجرد عودة زملائهم وتسلم كل ضابط قبل أن يغادر وحدته مظروفا صغيرا أبيض اللون ، وقيل لكل منهم على حدة ألا يفتح هذا المظروف إلا بعد ساعتين من مبارحة معسكره ، وظن الضباط أن هذه المظاريف تحتوى على تكليف بمهام سرية ، واعتقد الضباط الأصاغر أنهم حصلوا على ترقية بطريقة مرحه ، ولكن الذى حدث بعد ذلك كان غريبا ، فقد كانت فى كل مظروف ورقة صغيرة مكتوب عليها ثلاث كلمات فقط ، عد إلى وحدتك .

وكان اليوم مشرقا ، فى مكتب من مكاتب المخابرات . . . وكان رجل حاد النظرات يتحدث فى التليفون وفى يده ورقة صغيرة من النوع الرسمى . وأثناء الحديث تردد اسم اسماعيل فهمى الذى كان وزيرا للسياحة ، فقد كان هذا الوزير الواسع الثقافة فى فيينا وكان من المقرر أن يعود إلى القاهرة ومعه رد من برونو كرايسكى مستشار النمسا على رسالة الرئيس السادات إليه ، ووضع الرجل

سماعة التليفون الداخلى ثم تناول الورقة الرسمية مرة أخرى ، ولكن خبراً صغيراً لفت انتباهه ..

كان الخبر عبارة عن تصريح «لإسرائيل جاليلى» وزير الدولة فى إسرائيل ونصه كما يلى : « إن إسرائيل ستقيم مستعمرتين جديدتين فى مرتفعات الجولان المحتلة قبل نهاية العام المقبل ، وبذلك يصل عدد المستعمرات الإسرائيلية فى هضبة الجولان وحدها إلى سبع عشرة مستعمرة ورسم الرجل دائرة حمراء فوق الخبر الصغير وابتسم ابتسامة غامضة .

وفى الساعة العاشرة صباحا تسلم قادة مجموعات الاقتحام أعلاما قيل لهم أنها هدية من الرئيس ومن شعب مصر ، وأدرك الضباط أن الحرب قد اقتربت بشده ، وقال ضابط فى الجيش الثالث : يبدو أن التدريب سوف يكون عنيفاً هذه المرة ! !

وكان اللواء عبد المنعم واصل قد عقد مؤتمراً لضباط الجيش الثالث فى أول أكتوبر أكد فيه أن الاستعدادات القائمة ليست إلا بغرض التدريب وفى نفس الوقت أزيلت أغطية المشمع من فوق جميع الطائرات الجاثمة فى حظائرها وراح جنود سلاح الجو ينقلون الذخائر من مستودعاتها،وأشرف قادة القواعد بأنفسهم على عملية التفتيش النهائية ، وتردد فى ست قواعد جوية فى وقت واحد أن قائد السلاح الجوى سوف يصل فى الواحدة والنصف لكى يراقب بنفسه مشروع التدريب .

وفى العاشرة وثلاث عشرة دقيقة حدث أمر لم يكن فى الحسبان، إذ وصلت إلى المخابرات المصرية معلومات عاجلة، وكان من السهل أن تعطل هذه المعلومات اجراءات الحرب، وكان المصدر أحد الجواسيس البارزين، وكان هذا الجاسوس محاطاً بهالة ضخمة من السرية والأهمية، ولكن يبدو أنه حتى المحترفين يخطئون فى بعض الأحيان.

فقد أرسل الرجل برقية تقول أنه وصل إلى قاعدة «رامات دافيد» السربان رقمى ١٠٩ ، ١١٦ بالإضافة إلى سرب الهليوكبتر رقم ١٢٤ ، وبمجرد ترجمة البرقية سيطرت الكآبة على ضباط المخابرات ، واكتست الوجوه بظلال القلق والتخوف وأصبح السؤال الذى يتردد فى عيون الجميع هو :

— ما الذى دفع إسرائيل إلى تحريك هذه الأسراب الثلاثة إلى الشمال ؟ !

وروجعت المعلومات المتوفرة عن طائرات الأسراب التى أشار إليها الجاسوس ، وكانت هذه المعلومات هى الأخرى مصدر مزيد من القلق، إذا اتضح أن ١٠٩ ، ١١٦ مكونان من طائرات « مستير ٤ أ » المقاتلة ، وهى طائرات شديدة البأس حقا ، كذلك اتضح أن السرب ١٢٤ هو واحد من ثلاثة أسراب تملكها إسرائيل من طراز « سيكورسكى » التى تستخدم فى القصف الجوى وانزال القوات، وكان معنى هذه المعلومات أن الحرب كلها قد أصبحت فى كفة القدر، ولم يكن من الصواب أن يبدأ القتال بينما العدو يتربص بالمهاجمين .

كانت الحقائق مريرة بقدر ما كانت تعسة أيضاً . وكان معنى حشد هذه الطائرات فى القاعدة الواقعة فى المنطقة الشمالية أن الاستعدادات التى اتخذت بنفس التكتم فى الجبهة السورية قد تسربت أنباؤها إلى الإسرائيليين ، وسواء كانت الاستعدادات المصرية قد كشفت هى الأخرى أو لا ، فإن العدو قد تنبه وانتهى الأمر .

وبسرعة محمومة روجعت جميع الاتصالات التى تمت خلال الاسبوع المنصرم مع من يدعى « ل ٥٦٤ م » وكان هذا هو رمز الجاسوس ، واكتشف أن أمرا صدر إليه يوم الثلاثاء ٢ أكتوبر للافادة عن أى تحركات مفاجئة فى تشكيلات سلاح الجو الإسرائيلى ، وفجأة ومضت عينا أحد الضباط ثم هتف :

— أين خريطة توزيع الطائرات الإسرائيلية ؟

ووسط القلق الذى انسدل على جو الغرفة الكئيبة ، نشرت خريطه كبيرة تتناثر فيها دوائر حمراء يتوسط كل منها رسم أزرق أشبه بالسهم ، مع مئات من الأرقام والرموز الملونة ، والتى تعنى مدلولات عظيمة فى أعين الفنيين، ولاحظ هذا الضابط أن الاسراب التى ورد ذكرها فى برقية جاسرسنا موجودة فى قاعدة «رامات دافيد» منذ فترة طويلة : وبعد أن هرش مؤخرة رأسه ببراءة ، قال أنه يعتقد أن خطأ ما قد حدث أثناء ترجمة الرسالة .

واستدعى المسؤول عن حل الشفرة إلى الغرفة على عجل، وكان هذا الإجراء منافياً لأبسط قواعد الجاسوسية ، ولكن الظرف كان دقيقاً وحرجا ، وضوهيت الرسالة الأصلية بالترجمة التى كتبها بخط يده ، فثبت بما لا يدع مجالا للارتياب أن الرجل كان دقيقاً فى عمله ، لأن الترجمه كانت مطابقه .

وكانت الشفره المستخدمة فى التراسل مع « ل ٥٦٤م» عبارة عن مجموعات متتالية تتكون كل مجموعة من أربعة أرقام ، وكان مفتاحها فى كتاب ضخم من كتب الفيلسوف الايرلندى الشهير « برنارد شو » وأنفق الضباط وقتاً كافياً فى مراجعة الأرقام واستبدالها بالكلمات ، ولكن البرقية اللعينه ظلت تحملق فى وجوههم دونما خطأ ؛ وكانت هذه هى البرقية الوحيدة، ربما فى كل عالم المخابرات التى تمنى مستقبلوها أن تكون مجافية للصواب ،

ولكن الضابط ظل هادئا ، وكرر القول بأنه يعتقد أن خطأ ما قد حدث فى عملية الترجمه ، وكانت عملية الترجمه الوحيدة المقصودة هى تلك التى حدثت بعيداً، عند مصدر الرسالة، عندما استبدل الجاسوس الأرقام بالكلمات قبل ارسالها.

وفى العاشرة وتسع وخمسين دقيقه حملت أمواج الأثير برقيه عاجلة من « العمه ليليان» إلى «ل٥٦٤م» للافادة فوراً عن صحة البرقيه المزعجة . وظل عامل الارسال يدق هذه البرقية لمدة سبع دقائق بصفة مستمرة ، وفى الساعة الحادية

عشرة وثمان وعشرين دقيقة أبلغ قسم الاستماع عن تلقى برقيه مشفرة ، وبعد أن تولى الموظف المختص ترجمتها ، بينما العيون مركزة على أصابعه من كل صوب ، اكتشف الخطأ الذى كاد أن يتسبب فى تأجيل الحرب ، فبدلا من كلمة « وصل » فى البرقيه الأولى ظهرت كامه جديدة هى « وجد » وكان الجاسوس النشيط قد بذل جهداً اضافياً لم يطلبه منه رؤساؤه بأن زار قاعدة «رامات دافيد» يوم الخميس ٤ أكتوبر ضمن عدد من فنيى السلاح الجوى الاسرائيلى ، ولاحظ وجود الأسراب الثلاثة فأبلغ عنها ولكنه نسى أن واجبه كان اعتبارا من الثلاثاء ٢ اكتوبر ، الافادة فقط عن التحركات المفاجئة للتشكيلات الجوية ،. وكان هذا النشاط مقبولا إلى حد ما لو لم يقترن بخطأ لا يمكن التغاضى عنه فى عملية التراسل بالشفرة .

وقد ألغيت بعد حرب أكتوبر الشفرة المعتمدة التى كان يستخدمها هذا الجاسوس . كذلك تغير رمزه وأصبح له رمز جديد ، لا أدعى لنفسى معرفته ولكن ما أستطيع أن أقطع به هو أن هذا الرجل مهما كان شأنه سوف يستدعى إلى مكان ما خارج إسرائيل ، ليتلقى تدريباً قاسيا فى تشفير الرسائل ولولا أهميته الفائقه ودقة معلوماته لما غفر له هذا الخطأ الجسيم مطلقا .

وفى الواحدة تماما أرسلت برقيه عاجلة إلى جميع المحطات اللاسلكيه التى كانت فى حوزة عملاء المخابرات فى الأرض المحتلة ، وكان على هذه المحطات أن ترد على التوالى مفيدة باستعدادها للاستقبال، ولكن محطه واحدة بقيت صامته وكانت فى مدينة الحسنه ، وفشلت جميع الجهود التى بذلت لاقامة اتصال مع هذه المحطة وكان الرأى الغالب أن جهاز اللاسلكى قد أصابه خلل طارىء .

وفى الواحدة وثلاث عشرة دقيقه وصلت إلى باب جانبى من أبواب قصر الطاهرة ـ وهو قصر من قصور الرئاسة مخصص لرؤساء الدول

الذين يزورون مصر ــ عربة سوداء هبط منها الفريق أحمد اسماعيل واتجه بسرعة إلى الجناح الرئيسى حيث كان الرئيس السادات مرتديا ملابسه العسكرية .

وفى نفس الوقت ، توقفت عربة رمادية أمام الباب الخاص بوزير الإعلام فى مبنى الوزارة وهبط منها رجل أنيق خفيف الحركة وفى يده حقيبة سوداء، وقد اتجه مباشرة إلى المصعد وضغط بنفسه الزر رقم ٩ ، وعندئذ هتف حارس وزارة الاعلام : ما الذى جرى ، إنه مستشار الرئيس ؟ !

وعند ما دخل السادات إلى غرفة العمليات كان المكان أشبه بخلية نحل هائلة وهتف ضابط برتبة نقيب كان يقف أمام شاشة تليفزيون ضخمة :

ــ لقد جاء الرئيس .

واتخذ الرئيس طريقه إلى مائدة كبيرة نشرت فوقها خريطة مجسمة لصحراء سيناء ، وكان اللواء الجمسى يضع أصبعه السبابة على غرفة العمليات الإسرائيلية فى أم مرجم .

وعند ما حلت الساعة الواحدة وأربعة عشر دقيقة كان هناك من يعانى هو الآخر من تعطل الاتصالات، وإن كان موقفه مختلفاً . إذ حاول الملازم أول «دافيد ترجمان» قائد موقع لسان بور توفيق أن يتصل ــ عن طريق التليفون ــ بخطيبته فى شرم الشيخ، وكانت هذه الخطيبة ــ وهى ضابطة برتبة ملازم ــ تنتظر مكالمة « دافيد » بصبر نافد ، فقد حصلت على إجازة بمناسبة يوم كيبوراه، وكانت تود لو أن خطيبها حصل على إجازة أيضاً ليلحق بها .

وفى الواحدة وست وعشرين دقيقة تمكن مركز الاتصال الاسرائيلى فى أم خشيب من تحقيق المكالمة بين الخطيبين ، وكان صوت الفتاة خافتا ولكنه مسموع وفجأة تدخلت فى الخط شوشرة عالية ثم تبعتها طقطقة من أثر التداخل فى الاسلاك

وفى النهاية تحقق نوع من الاتصال الجيد ، وراح « دافيد » يصرخ بأعلى صوته لكى تصل كلماته إلى خطيبته ، وقال لها أنه سوف يحصل على إجازة بأية وسيلة لكى يلتقى بها فى اللد ، وقبل أن يسمع جوابها قطعت المكالمة مرة أخرى .

وفى الواحدة والنصف تماما ، أخرج الدكتور أشرف غربال مستشار الرئيس وسفير مصر الحالى فى الولايات المتحدة ، أخرج البلاغ العسكرى الأول من حقيبته وقرأه للمرة الأخيرة ، ثم وضعه أمامه على المكتب واتخذ وضعاً مريحا فى جلسته ثم ابتسم بسعادة .

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف بدقيقة واحدة ؛ عندما سمع « دافيد » صوتا قادما من بعيد ، ولم يكن هذا هو الصوت المألوف لعامل التليفون فى مركز أم خشيب .. واستشاط دافيد غضبا وطلب من المتحدث أن يدع الخط إلى أن يتحدث إلى خطيبته ، ولكن المتحدث أجابه ببرود أنه يتكلم من القيادة العامة ليدلى بإشارة عاجلة إلى قائد الموقع . ورد دافيد بحنق :

ـــ أى موقع ؟

ـــ موقع « ميزح » (الاسم العبرى للسان بور توفيق) .

ـــ حسنا .. انى القائد .

ـــ نعم ياسيدى . . إشـــارة من قائد الأركان . . يحتمل أن يقوم المصريين بـ ......

وانقطع الاتصال قبل أن تنتهى الإشارة ، وعاد دافيد إلى الدق على جهاز التليفون ولكن الجهاز اللعين بدا ميتا ، ولم يتحقق الاتصال أن يتم إلا بعد ثلث ساعة كاملة .

وفى الثانية وأربعة دقائق حلقت أول موجة من الطائرات على ارتفاع

خمسة عشر مترا فوق سطح الأرض وانطلقت فى اتجاه الشمال والشرق مخلفة ضجة رهيبة .

وتتابعت موجات الطائرات بفاصل سبع ثوان ، وفى الثانية وخمس دقائق ترددت فى جميع أجهزة اللاسلكى وعلى جميع الموجات كلمة «بدر» وسمع كل من كان بالقرب من جهاز استقبال هذه الكلمة تتكرر ثلاث مرات بوضوح تام. فى المدفعية والمدرعات والدفاع الجوى والقاذفات والوحدات البحرية العاملة بالقرب من شواطئنا وفى أعالى البحار ، وكل الأسلحة التى تطلق النيران .

وفى نفس الوقت تمكن الملازم أول «دافيد ترجمان» من تلقى اشارة قيادة الجيش الاسرائيلى ، وشعر الشاب الذى ينحدر من أصل جزائرى بالغيظ لأنه لم يلحق بعربة الاجازات التى غادرت الموقع منذ خمس دقائق ، واستمر فى محاولة الحصول على تصديق رؤسائه للقيام باجازته دون أن يلقى بالا إلى الهراء الذى أذاعته قيادته .. فقد كانت الجبهة هادئة تماما .. كما كان بمقدوره أن يرى الشاطىء الآخر من مكانه ، وشرع فى معاودة الاتصال التليفونى بشرم الشيخ ليحادث خطيبته .

وفجأة سمع دافيد أزيزا مكتوما وأصوات انفجارات قريبة ، فترك سماعة التليفون ورفع عينيه إلى السماء ، وهناك كانت طائرة سوخوى تقذف سيلا من الاسطوانات المشحونة بالموت .

ففى تمام الثانية وخمسة دقائق بالضبط بدأت الحرب .

رقم الايداع ١٩٧٤/٤١٥٤



المؤلف

ماهر عبد الحميد

- كان من ضباط الفرسان
- اشترك فى حرب اليمن وأصيب فى حرب يونية
- سنة ١٩٦٧ امتهن الجاسوسية
- عمل كجاسوس للمخابرات الإسرائيلية فى مصر
- لعب دور العميل المـ
- أسهم فى الحرب ا حتى صباح ٦ أكـ

الثمن
٧٥ قرشا

مكتبة القاهرة - ٤ شارع كامل صدقى - الفجالة ت : ٣٠٥١٨

